بسام شمس الدين

نداء منتصف الليل

بسام شمس الدين

نداء منتصف الليل

بسام شمس الدين

نداء منتصف الليل

رواية

1

وقف الشيخ رعدان بمحيط قرية الرباط يتأمل قطرها وتضاريسها بعين خبيرة، ما لبث أن أخذ عصا رقيقة وراح يرسم على الأرض خطاً سحرياً، متنقلاً من موضع إلى آخر حول القرية.

كان أثناء ذلك يتلو تعاويذ غريبة، اقتضى هذا العمل وقتاً طويلاً، حتى التفت الأهالي إلى الرجل العجوز، ووصل الخبر سريعا إلى الكبير عاطف، فأقبل ومجموعة من الرجال يحملون الفواريع والعصي، وتلوح على كتفه بندقية سلطانية رهيبة. حين لمح الأهالي سرحان وبغلة الإقطاعي نجيم والطفل الصغير، أسقطوا عصيهم وفواريعهم، لكن الكبير عاطف صرخ في وجوههم:

ـ صوبوا أسلحتكم، هناك أغراب في القرية.

استجاب الرجال لنداء كبير القرية، بدت علامات الإكراه ظاهرة على وجوههم، لم يكونوا مقتنعين بما يفعلون، لكن أمر الكبير عاطف لا يجب تجاهله، ما لبث الأخير أن تقدم صوب سرحان، وأمسك شاربه وجذبه بعنف، سائلاً بسخط:

ـ أين والدي أيها الحثالة؟

ـ اترك شاربي وشأنه يا عاطف، القصة طويلة وشائكة، سأخبركم في القرية.

حرر شاربه بحذر وهو يتأوه ألماً، وقف مندهشاً لا يدري كيف يزف إليهم خبر الأهالي الغائبين، ابتدأ الطفل الصغير يقول:

ـ غط.. غط..

صاحت ماما زكية بصوت متحشرج:

ـ ألا تسمع أيها الرجل المتبجح؟ الصغير يقول لك "غط" يعني غلط.

تفرس الكبير عاطف في وجهها ووجه مريمة، ثم سأل سرحان بنزق:

ـ من هؤلاء الأغراب أيها الطحَّان؟ هل استبدلتهم بوالدي الكبير عون ورفاقه؟

ـ لا تتعجل أخبار الشر يا عاطف، دعونا ندخل القرية، أنا متعب الآن.

هتف الفقيه مرشد بفزع:

ـ أين زكية أيها المجرم؟

نظر سرحان إلى قدميه وهز رأسه بحزن واضح، لم يحسب حساب هذه اللحظة المزعجة، أو بالأحرى لم تترك له الأحداث المتعاقبة فرصة ليفكر في هذا الموقف العسير، كما لم يتوقع مطلقاً أن يجد عاطف متغطرساً إلى هذا الحد، وقد أصبح كبير القرية خلفاً لأبيه.

صاح الكبير عاطف قائلاً بحمية:

ـ هناك شيخ يخط بعصاه حول القرية، أريد تفسيراً لما يحدث في قريتي.

ثم أشار إلى وجه سرحان وهو يكز على أسنانه مردفا:

ـ لم تعرف القرية مكروهاً حتى رأيناك تنجب ولداً منحوساً.

أخيرا ظهر الشيخ رعدان يمشي ببطء، بدا ضعيفا متعبا من السير، فاستبد الغضب بالكبير عاطف، وصوب البندقية ناحيته، وضغط الزناد، لكن الرصاصة لم تنفجر، أحس بالخزي والسخط، رفع البندقية نحو الأعلى وضغط الزناد، فانفجرت، عاد وصوبها ناحية الشيخ الغريب، وضغط ثانية، لم يحدث شيء، صوبها إلى الناحية الأخرى، فانفجرت، وأجفلت البغلة، وجعل سرحان يمسح وبر قذالها ليهدئ من روعها.

تفجر غضب الكبير عاطف فضرب البندقية على حجر بارز في الأرض حتى تطايرت إلى قطع، ثم رمى ماسورتها من يده بقنوط، وعاد إلى القرية بخطى متوترة يائسة، لحق به الأهالي مرتبكين، راح الفقيه مرشد يرسم صورة رهيبة للشيخ المسن، زاعما إن هذا الرجل ساحر خطير يحمي نفسه بالتعاويذ، لا ريب أنه يملك تعاويذ مدمرة بحيث يستطيع أن يوقف الرصاص في حلوق البنادق، أكد أن الخطوط والدوائر السحرية لا يصنعها إلا كبار السحرة، ولا شك أن هذا الشيخ فر من أحد السجون، وهو الآن مطارد يبحث عن ملاذ آمن.

كان الكبير عاطف يفكر في وسيلة لاجتثاث هؤلاء الغرباء ومنعهم من العيش في قريته بأي ثمن، لقد صار يحتل منزل زكية، فضلاً عن سيطرته على الطاحونة، وقد كلف حمود الذيب في وقت سابق أن يقوم بالطحن مقابل الأجر، واليوم أعلن للأهالي أنه لن يعيد أي شيء إلى سرحان حتى يعيد إليه والده الكبير عون.

***

سار سرحان ورفاقه صوب منزل زكية، فقد أصبح منزله، لا أحد يستطيع أن يقف في طريقه، حتى إن اختفت امرأته أو ماتت، فهو

وريثها الوحيد، لا يوجد له ملاذ آخر غيره، أخذ يكلم نفسه ويحرك أصابعه محتداً كأنه يجادل شخصاً ما، كانت مريمة تنظر إليه بغضب، وهو منغمس في عالمه الباطني، لما نفد صبرها صرخت في وجهه بنزق:

ـ ما بالك شاردا؟ لقد خدعتنا يا هذا، انظر كيف استقبلنا الأهالي!

فز سرحان ورد بارتباك:

ـ لا أستطيع أن أعتب عليهم، إنهم يسألون عن أقاربهم المفقودين، ينبغي أن أشرح لهم ما حدث.

ـ لكن ذلك الرجل المتنمر شهر سلاحه في وجه أبي، كيف يجرؤ على فعل ذلك؟

ـ آه، إنه يدعى عاطف، وهو ابن الكبير عون، وقد صار كبير القرية، لا أدري كيف سأفسر له والأهالي ما جرى! أنا نفسي لا أصدق ذلك.

" سرحان، سرحان.."

انتبه سرحان إلى مصدر النداء، كانت روضة تقف في انتظاره عند باب دارها متبسمة، إنها أول شخص من الأهالي يبش في وجهه، تابعت بصوت تطغى فيه الفرحة على العتاب:

ـ أخيراً عدت أيها الغائب المتجاهل، ألا تحب أن تلقي نظرة على بناتك؟ إن منزلكم مُغتصَب الآن، تفضل ورفاقك لتنعموا في ضيافتي.

ظهرت من خلفها رؤوس بناته الأربع، كن ينظرن بحذر إلى القادمين، تسمرت عيونهن الصغيرة في وجه الأب الكئيب الذي رسم في ثغره ابتسامة مودة، أسرعت روضة وربطت البغلة قرب

المدخل، وأخذت الصغير، ثم أشارت إليهم بالدخول خلفها، كما دعاهم سرحان قائلاً بتأثر:

ـ تعالوا، لندخل منزل جارتي روضة.

تقدموا، وفرّت الفتيات إلى الداخل، فمضى يقول بصوت متعب حزين:

ـ هذا أنا يا بنات، وهؤلاء رفاقي، الشيخ رعدان والأم زكية ومريمة.

مضت روضة تقول وهي تجتهد في تسوية أماكن جلوسهم وسط حجرة مرتبة:

ـ لن يستقبلكم أحد غيري في القرية، لقد تغير كل شيء هنا حتى قلوب وأرواح الأهالي، منزل زكية وطاحونتك في قبضة الكبير عاطف.

سارت لتعد مشروباً للقادمين، سرعان ما لاحت أجساد فتياته قرب المدخل، بدأن يتسللن إلى الحجرة على التوالي، جلسن بعيداً بخجل قرب الباب الخشبي الصغير، ندم سرحان لأنه لم يجلب للبنات قطع من السكر كهدية، لكنهن وجدن في شقيقهن الهزيل السلوى، كان يتحرك مستنداً على الجدران، واضعاً خطواته الأولى ببطء، ثم يقع على الأرض، كن يتابعنه بفرح، أخذوا جميعا يتابعون حركاته بإشفاق، قال الشيخ رعدان بحسرة:

ـ لا ينبغي أن يظل الصبي دون اسم، ها قد شرع يخطو، وبعد شهور سنراه يلعب بين الصبيان في الشارع، وسوف يبتكرون له اسماً قبيحاً.

أجاب سرحان بلا حماس:

ـ آه، الاسم، هذا صحيح، كانت والدته تريد أن تطلق عليه اسم سَعْد، لكن هذا الاسم لا يليق به كما تعلم.

ـ ما جدوى البحث عن اسم لائق إذا كانت أقدارنا لا تتغير بالأسماء.

هزّ سرحان رأسه قائلا بضجر:

ـ لنرجئ أمر الاسم إلى وقت آخر، منزلي وطاحونتي مغتصبان.

ـ هل أستطيع أن أرى المنزل من النافذة؟

سأل الشيخ رعدان باهتمام شاخصا إلى المنازل المقابلة، اقترب سرحان، وأشار بضيق نحو دار مؤلف من ثلاثة طوابق، مزدان بالأحزمة الحجرية والمخربشات البديعة، ثم تراجع بيأس، أخذ يراقب بناته بضمير معذب، مضى الشيخ يرطن بكلمات غريبة، نافخا الهواء باتجاه المنزل، ثم جعل يرهص السمع، ما لبث أن قال بصوت ذي رنة عالية:

ـ لا أحد الآن في المنزل كما يبدو! أعدك أن نبيت داخله هذه الليلة، وفي الغد لن يدخل الطاحونة أحدٌ غيرك.

في تلك الأثناء، أتت فتاة يافعة على رأسها طاقية من القش، وقفت على مدخل الحجرة، متطلعة إليهم باستغراب، عرف سرحان أنها فاطمة بنت روضة، وقد عادت لتوها من المرعى للغداء، ابتسم لها موحياً بالأمان، فابتسمت بخجل، لم ترد بصرها عن الشيخ رعدان والمرأتين، لعلها تتفهم سبب وجود جارهم الطحّان، لكنها لا تدرك ـ مثل غالبية أهالي القرية ـ سبب وجود أشخاص غرباء إلى جانبه، فمنذ مات والدها لم يدخل أي رجل غريب هذا المنزل، بعد مدة من التفكير والاستغراب اضطرت أن ترحب بالغرباء بهزة

لطيفة من رأسها الصغير، رسمت ابتسامة متكلفة على وجهها الأصهب، مضيفة كلمات قليلة مألوفة: أهلا بكم في دارنا.. ارتفع صوت أمها من بيت النار يحثها على القدوم، فانسحبت بهدوء وخفة، أحس القادمون ـ رغم غرابة الجو هناك واستقبال الأهالي الفج ـ بشيء من الارتياح في تلك الحجرة الصغيرة، على الأقل وجدوا امرأة طيبة استقبلتهم، بفضلها ألقوا أجسادهم على فُرُشٍ عتيقة تحت سقف مظلل، ولم يعودوا مضطرين للسفر ثانية، بدت عيونهم مستسلمة لتلك الدعة والسكينة، راودتهم رغبة عارمة في النوم، حتى سرحان الذي يفتقد منزله وطاحونته بدا مسترخياً ناعساً، ما كاد جفناه يطبقان، حتى سمع أصوات الأهالي تدمدم في الخارج.

أطل من النافذة، رأى صفوفاً مرتبة تنادي بهلاكه ومعاقبته، في المقدمة يلوح الكبير عاطف ووالدته فاطمة، وأقرباء الرجال الثلاثة الأشداء، ظهر كذلك الفقيه مرشد متجهماً، شاهراً خنجره في الهواء، بحيث بدا أكثرهم تنمرا وحقداً، في الخلف لاح معظم رجال القرية حاملين أسلحتهم المألوفة، العصي والخناجر، يتطاير الشرر من عيونهم المحملقة بسخط، سأل سرحان نفسه بغباء عن سبب حرن الفقيه مرشد وغضبه، فسرت روضة لجارها الأمر، لقد أعلن الرجل بجنون أنه ينتظر عودة زكية على أحر من الجمر، بات يجاهر أنه يفتقدها كثيرا، إثر ذلك هربت امرأته سعدية إلى عائلتها، ولم تنفع تعاويذه وجهوده التي بذلها لاسترجاعها، بقي لديه أمل زاهر أن تعود المرأة التي أحبها وتسببت في تعاسته، واليوم يظن نفسه من جملة الأهالي الثاكلين، أدرك سرحان أن الرجل جاء متكئاً بعصا الشيطان ليسمع خبرها منه، تناهى إليه صوته المبحوح المعذب بين الأصوات وهو يصيح:

ـ اخرج يا سرحان الطحان إن كنت شجاعاً.

بدت روضة قلقة ومرتبكة، ظلت متسمرة على النافذة ماسكة رأسها بين يديها، لاسيما حين رأت على كتف عاطف بندقية نوع جرمل عتيقة، كذلك كانت مريمة وأمها تراقبان بقلق ما يحدث عبر النافذة الأخرى للحجرة، لقد أصر الرجل المسن على الخروج أيضاً، وتخشيان أن تسوء العواقب. كانت الأصوات في الساحة ترتفع والأيادي تتحرك بعصبية، أخيرا سكن الضجيج عندما ظهر سرحان، اندهشوا وهم يرونه يتقدم ناحيتهم بهدوء، يسير خلفه ذلك الشيخ الغريب المتعثر الخُطى، حتى توقفا أمامهم بلا وجل.

روى صاحب الطاحونة ما جرى للأشخاص الغائبين مهملاً الكثير من التفاصيل الصغيرة، أطلَّت الابتسامات الساخرة من شفاه الأهالي، زال التأثر والاهتمام من وجوههم، كان لسان حالهم يفصح بأن القصة وصلت إلى ذروتها الخرافية، وأضحت زائفة لا تصدق، ما دفع الثاكلين إلى التشكك، بل وتمنوا أن يكون كل ما قيل محض افتراء وزيف، ختم سرحان حديثه قائلاً:

ـ هذا ما حدث، الكبير عون وزكية مازالا على قيد الحياة، لكني أخشى أن يكونا من المجانين الذين أعطبت الشياطين عقولهم.

ـ هل رأيت والدي وزكية بعد هذا الحادث المزعوم؟ سأل الكبير عاطف.

رد بانكسار:

ـ بل رأيت آخرين ممن هاجمتهم الشياطين في سوقٍ قريب من المدينة...

قاطعه الفقيه مرشد بصوت حاد:

ـ أنت تكذب لتنجو بنفسك، أنا أكثر الناس معرفة بالتعاويذ والسحر وأعرف أن الشياطين لا تظهر على البشر...

توقف الفقيه مرشد عن تتمة كلامه، حين ظهر الصبي الصغير على كثب ماشيا بخطوات مضطربة، صار يسقط ثم يعاود النهوض والسير، لفت حضوره المباغت الأنظار، سمعوه يقول بوضوح:

ـ غط.. غط..

أتت شقيقته صفية خلفه صائحة:

ـ سعد.. سعد..

صاح سرحان على ابنته بنزق:

ـ أعيدي الولد إلى منزل روضة، ولا تطلقي عليه هذا الاسم ثانية.

اعترض عاطف طريق صفية ودفعها بقسوة، ثم أمسك الصبي وثبته إلى جانبه، قائلا بحدة:

ـ سعد رهينة لدي حتى يعود والدي، لكل شخص غاب قريبه أن يأخذ منك ما يشاء.

أصيب سرحان بالهلع، نظر إلى البندقية المصوبة ناحيته بقلق، بالكاد استطاع النطق:

ـ أعد إليّ ولدي يا عاطف، لقد أخذت منزلي وطاحونتي، لا تتماد أكثر.

ـ لن أدعك تهنأ العيش حتى تعيد إليّ والدي.

ـ وزكية أيضاً.

ـ ورجالنا.

صاح الكبير عاطف في وجوههم قائلاً بسخط:

ـ هذا صحيح، لكنهم ليسوا بمنزلة كبير القرية.

هزّت أمه فاطمة رأسها بيقين، لكنها خاطبت ولدها بقلق:

ـ دع سعد وشأنه، فإن للصبي كرامات معروفة، أخشى أن نصاب بمكروه، خذ سرحان بدلا عنه.

ضحك عاطف بسخرية، وهز رأسه مستبعدا، وأجاب:

ـ لا.. لا.. سرحان لا يساوي شيئاً، الصغير ـ رغم خفة وزنه ـ أثمن منه وأقل كلفة.

تقدم الشيخ رعدان، فقال عاطف محذراً:

ـ قف مكانك أيها الشيخ المخادع، فالجرامل بنادق لا تخطئ الرمية ولا تَشْبَك.

ـ أعِد سعد إلى والده.

ـ كلا، لن أعيده، هيا استحضر شياطينك لأراهم بالعين.

ـ أتريد ذلك حقاً؟

قفز الفقيه مرشد إلى أمام الكبير عاطف، وعض على شفته محذراً، ثم التفت إلى الشيخ رعدان وقال:

ـ لنسمعهم أولاً.

دفع عاطف الفقيه مرشد جانباً، وصاح:

ـ لنراهم أولاً، هذا زيف صارخ، أعرف ذلك.

فتح الشيخ رعدان مخلاته، أخرج قنينة عطر صغيرة، وخاتماً عريضاً فضي اللون ذا فص غريب نُقِش عليه صورة كائنٍ عارٍ ذي جناحين ضخمين، استغل الفقيه مرشد انشغالهم بمراقبة الشيخ، وتسلل إلى الخلف، ثم لاذ بالفرار راكضاً بكل ما أوتي من قوة، تفرسوا في الشيخ بعجب وهو يدعك فص الخاتم، ويشم العطر ويتلو بضع كلمات غير مفهومة، فجأة اهتزت الأرض تحت أقدامهم حتى تمايلوا، وسمعوا صوتا خارقا يضج في الفراغ:

ـ لبيك سيدنا، هل نرمي هؤلاء الناس في جزر نائية وسط البحار أو في براري لم تدسها قدم إنسان؟

ـ كلا، لا أريد أن أغيّر أقدارهم، اظهروا عليهم بصوركم الحقيقية وحسب.

ـ هذا سهل جداً.

تبلد الأهالي فاتحين أفواههم، وخرجت عيونهم إلى منتصف وجوههم، واصفروا واحمروا وابيضوا، ثم تجعدت وجوههم وجباههم، وصاروا يصيحون ولا تخرج أصواتهم من حناجرهم، ثم سقطوا في غشية طويلة، لما أفاقوا لم يجدوا سوى أنفسهم في المكان، فأسرعوا نحو منازلهم، حين دخل عاطف وأمه فاطمة منزل زكية رأوا الزواحف تملأ السلالم والغرف، فذعروا أيضاً، ولاذوا بالفرار إلى منزلهم الأصلي وسط القرية.

2

بعد أن تناول سرحان عشاءه، خرج من منزل زكية، اعتاد منذ زمن بعيد أن يتنسم الهواء ويدخن، ويصيخ إلى ليل القرية، هدوء تام يقطعه نباح كلب متحفز، أو حفيف جناحي طائر على شجرة برقوق قريبة، مشى قليلاً مستعيناً بخياله الخصب حتى وقف جوار منزل جاره ناصر حنشات، تلمس طريقه إلى حجر ناتئ مستوٍ عند ركن المنزل الصغير، جلس متنفساً الصعداء، أخيراً آب إلى قريته، وإلى هذا الموضع المحبب، شدّ طرف مئزره، وفك عقدة التبغ، سكب قليلاً من المسحوق البني الخشن على قعر راحته، فركه بإصبعه حتى تحول إلى مسحوق، ثم كبَّه بحذر إلى تجويف المشرعة[1]، فعل ذلك في الظلام بثقة شخص واثق ومُجرِّب، تذكر أنه مازال يحتاج إلى الجمر. نظر بكسل إلى منزل زكية، لا يظن أن هناك جمرٌ في الموقد الطيني، بيت النار في منزل ناصر حنشات قريب وظاهر، ولا حاجة لطرق بابهم ليستأذنهم من أجل جمرتين، لا توجد كلفة بين الجيران، ينبغي أن يتسلل بحذر حتى لا يثير فزعهم، فكر سرحان بذلك، استعان بذاكرته وضوء طفيف للنجوم، وصعد على درجات حجرية حتى بلغ صالة مفتوحة على السماء، ظهر ضوء يتهادى من حجرة أصحاب المنزل، ما يعني أنهم لم يخلدوا للنوم بعد، أوشك أن يرفع صوته ليعلن عن وجوده وهدفه، لكنه سمع أنيناً خافتاً يصدر من الداخل، فانتابه الفزع، قد يكون أحدهم عليلا وهو أتى ليطلب جمرتين، يا له من أمر مخجل!

[1] المَشْرَعة: غليون محلي طويل.

اقترب بلا هوادة، واختلس النظر عبر شق صغير على الباب الخشبي الواطئ، كان ناصر حنشات عارياً يولج في جسد امرأته غنية، رآه يقوم بحركات مرتعشة واهنة، وهي تحاول توجيهه دون جدوى، لأجل ذلك تئن غيظا وكمدا، أخيراً لم تحتمل مزيداً من حركاته الضعيفة، فدفعته عنها وهي تقول بحنق:

ـ توقف، لا ترهقني أكثر، عليك أن تركب نفسك.

جلس زوجها مقرفصاً طاوياً ذراعيه على ركبتيه، تلوح الخيبة على محياه رغم خفوت ضوء السراج، أجاب محاولاً تبرئة ساحته من التهمة:

ـ لكنك تتثاءبين وتنعسين، وهذا يفطر سويداء قلبي.

ـ ماذا أفعل؟ لا أشعر بشيء منك داخلي، أنت تمرجحني وحسب، لقد ذكرتني بالمرحومة أمي حين كانت تهزني برفق لأنام.

حبس سرحان فاه براحته حتى لا يضحك، ظل هكذا حتى رد الزوج الخائب باندفاع:

ـ ما حدث هذا اليوم كان مهيلاً، مازالت أشكال الشياطين عالقة في رأسي، لازلت أرتعش منذ رأيتها، آه آه ما أبشعها!

ـ أنت المرتعش الأبدي الذي أعرفه، وكما يقول المثل: بنتنا الرعديدة طاردتها الكلاب.

قلبت مؤخرتها صوب الباب ونامت، راح ناصر حنشات يسب سرحان الذي جلب ذلك الشيخ الغريب إلى القرية، وأوشك سرحان أن يرد الشتيمة على جاره الذي يرمي فشله على غيره، لكنه أعاد الكلام من طرف لسانه، فهو في وضع المتلصص.

عاد إلى منزل زكية يساوره أمل كبير أن يجد ناراً في الموقد، أخذ يشق طريقه بثقة في الظلام، لقد سار مراراً لا تحصى دون سراج، اصطدمت قدماه بأشياء مجهولة، أدرك أن كل شيء لم يعد في مكانه الصحيح، صار يمشي بخطوات حذرة حتى دخل بيت النار، اقترب من الموضع الذي يتربع عليه الموقد، وجد ملمسه بارداً، أوغل راحته وسط الرماد وبعثره بغضب، ثم مضى باحتراس صوب الطبقة الثالثة، هناك اتجه صوب غرفته وزكية بثقة عالية، كأنه في رابعة النهار، لكنه ارتطم بالجدار، مرر راحته هنا وهناك، ولم يجد الباب، مكث قليلا يفكر بانزعاج.

تناهى إلى سمعه تنهدات وشهقات مريمة التي يعرفها جيداً، كأنها ألحان أغنية محلية مألوفة، مضى نحو الغرفة الثانية، وهناك سمع شخير ماما زكية الذي يحاكي هدير طاحونته، ارتد هابطا إلى الأسفل، تقدم من المجلس الكبير، لكن شيئاً مجهولاً دفعه إلى الخلف، اتجه مرعوبا نحو الغرفة الصغيرة المجاورة وفتحها بيسر، سمع أصوات أنفاس بناته تتصاعد بفوضى لطيفة رقيقة، تحسس أجسادهن بحذر، أحس ناحيتهن بالشفقة والعرفان، استطاع أن يجد جوارهن الأمان، لكن المجال ضيق للغاية، لا ينبغي أن يزاحم الصغيرات ويفسد نومهن العميق بحضوره اللئيم، كيف نسي أن منزل زكية صار محتلاً من الغرباء الذين جلبهم إلى القرية! عاد إلى الشارع، جعل يفكر في مكان يلجأ إليه، ظل محتاراً متردداً، بوسعه أن يعرج إلى منزل روضة، من المؤكد أن يجد هناك جمرا، فهي فلّاحة نشيطة تقيم أود بقرة وحمار وستين رأساً من الغنم، باتت تملك عدداً من الحقول الصغيرة ابتاعتها أثناء غيابه، أخبرته أن وضعها المالي تحسن قليلاً، وأنها تعيش بهناء، بل وأسدت إليه ألا يتردد عن طلب أي شيء يعوزه منها، لكنها أرملة والسير إليها في الليل من أجل جمرتين أمر في غاية السخف، وكلما فكر في

منزلها يزجر أفكاره، صار يحبذ أن يبيت في الشارع على أن يزعجها أو يثير شكوكها.

كان الليل في منتصفه عندما نظر إلى النجوم، بدا الظلام حالكا، والسكون يخيم في الأرجاء، ندم على اصطحاب هذه العائلة الرهيبة إلى الرباط، تملكه الخوف من العودة إلى المنزل، وقف محتاراً للحظات، حتى سمع أصوات الكلاب في الجوار، يمم وجهه صوب منزل روضة خوفا من نباحها المزعج، لكنها قطعت عليه الطريق بسرعة، أحاطت به من كل جانب، لحسن حظه أنه كان مولعاً بتربيتها منذ طفولته، ويشاركها طعامه في أيام الجوع، لم يكن يخشى أن تعضه بقدر خشيته أن تفضح تشرده، ظل هادئاً وسط دائرة الكلاب الضارية التي شرعت تطلق أنيناً صغيراً خافتاً، توقع أن تهاجمه بين لحظة وأخرى، لكنها ظلت تتحرك حوله بتحفز وحماس، كأنها جاءت لاستقباله وسؤاله عن سبب غيابه لمدة عام ونيف، لم يشعر بالخوف كما حدث البارحة عندما استقبلهم الأهالي بالفواريع والأسئلة الرهيبة عن أقاربهم، تشجع وأطلق من فمه صفيراً هادئاً ليوحي لها بأنه ليس غريباً، سمع أحد الكلاب ينبح، رأى طيفه يقترب منه كأنه يريد أن يخاطبه بشيء ما، أثناء ذلك تذكر كلبه دغمار على نحو مباغت! أين هو يا ترى؟ كيف نسي كلبه العزيز! أيكون هذا هو؟ سأل نفسه بشوق، وقال بصوت خافت:

"دغمار، أهذا أنت؟"

تقدم الحيوان خافضاً رأسه كأنه يشم الأرض، تأهب الرجل ليدافع عن نفسه، اندفع الكلب ببطء وتمرغ بين قدميه، وجعل يتمسح بساقيه ويضربه بقائمته برفق كأنه يعاتبه، قرفص سرحان بتأثر، أخذ يمسح ظهر كلبه بفرح ويقول هامساً: نعم، هذا أنت! صرت

هزيلاً أيها الشقي! تفرقت الكلاب بذريعة التنقيب عن متطفلٍ آخر، سار وكلبه إلى منزل روضة، طرق الباب وانتظر بخجل وخوف، فالوقت غير مناسب، والمرأة تبدو نائمة، وآذان الجيران تظل مفتوحة، وظنون السوء حاضرة في أذهان القرويين، أراد الانسحاب، لكنه سمع صوت روضة يأتي خافتاً:

ـ من هناك؟

أجاب بصوت خافت:

ـ أنا سرحان.

ـ انتظر لحظة...

فكر أنها بلباس النوم، وسترتدي شيئاً، بعد لحظات فتحت الباب ببطء، كانت تمسك فانوساً طفيف الضوء، لكنه أظهر ثوبها الرقيق وساقيها الأمردين، وابتسامتها الخجول، تطلعت إليه مشجعة لينطق بشيء ما يبرر سبب وجوده أمام دارها في هذا الوقت من الليل، فقال بصوت متذبذب:

ـ جئت لأشعل مشرعتي، هل لديك نار في موقدك؟

ـ أنت تعرف أن موقدي مشتعل دائما، هات المشرعة، وادخل..

ضحكت، أوحى له ذلك بمزاح من نوع خاص، لكنه لم يجد المشرعة..

ـ أوه.. أين هي...؟

تلفت حوله بارتباك، كان يحملها قبل قليل، لكنها مفقودة الآن، ربت على ظهر كلبه وشممه التبغ المربوط في عقدة الإزار، ثم دفعه بعيداً، وهو يقول هامساً:

ـ دغمار، احضر المَشْرَعة أيها الشقي.

ضحكت روضة حين رأت الكلب ينبح ويهرول مبتعداً غائصاً في الظلام، قالت:

ـ الحس كوعك، لن يعود.

ـ يتحتم أن يعود، فطالما كان يجلبها من منزلي بمجرد أن يراني أدعك التبغ عند باب الطاحونة.

سرعان ما ظهر كلبه حاملاً المشرعة بين أسنانه، مسح على رأسه بامتنان، وسلّمها إلى روضة بزهو، طلبت منه هامسة أن ينتظر في الصالة الوسطى، اتجهت بخطوات خفيفة ناحية بيت النار، بعد لحظات عادت كالطيف الهادئ ممسكة المشرعة بحرص، لاحت الجمرتان البرتقاليتان تلمعان بإغراء في الظلام، سألته بصوت خفيض إن كان يرغب في الصعود إلى السطح للتدخين، غمغم موافقاً، سارا ببطء حتى لا يوقظا ابنتها الراعية، ضاقت بهما الدرجات الطينية في المنتصف، والتصقا كمراهقين صغيرين حتى أطلا على فسحة السطح، أرادت أن تنفصل عنه، لكنه أرغمها على البقاء إلى جواره. بدا الجو غائما حالك السواد والنجوم محتجبة. جلسا يتحدثان حتى انطفأت الجمرتان إثر رذاذ متساقط من السماء، أعقب ذلك هطول مفاجئ للمطر، هبطا متلاصقين، تسللا إلى إحدى الحجرات المعتمة، وتحررا من ملابسهما، واندسا تحت اللحاف الصوفي، عند الفجر تسلل إلى الخارج، رأى كلبه رابضاً قرب الباب كحارس أمين، فمضى يعاتبه بصوت خافت:

"لا يجوز أن تجلس قرب منزل الأرملة، لأن ذلك سيلفت أنظار الأهالي".

اتجه للتو إلى بيت الطاحونة، فتحه وانتظر حتى شع ضوء الصبح، حين ذلك تفقد الحجرين المدورين الضخمين والقطب وغرف الحبوب، كان كل شيء في مكانه، لا ينقص إلا الحبوب ليباشر عمله، أقبلت روضة تحمل كيساً من القمح، وفطوراً ساخناً وجمنة قهوة، جلسا يأكلان بصمت، فكر سرحان بما حدث في منزلها، ظن أنه أخطأ واستغل جارته شر استغلال، ما أشأم أن يُنظر إليه كرجل يتصيد جاراته الأرامل، ويعيش في منازلهن، ويأكل أموالهن، ثم يتخلص منهن في النهاية كما حدث مع زكية! أكلت قليلا وقامت لتطحن حبوبها وهي تبدو بغاية النشاط والإشراق، فقال لها بقلق:

ـ سامحيني يا روضة، لقد تصرفت كالحيوان.

قالت متجاهلة كلماته الأسيفة:

ـ هناك قليل من الجمر في الملف عند الباب، بوسعك أن تشعل مشرعتك وتدخن في الخارج ريثما أنتهي من طحن حبوبي.

عاد ليقول باضطراب:

ـ لا أريد أن تظني بي السوء، فأصبح في عينيك رجلاً مُستغِلاً يتصيد الأرامل.

ـ أتريد أن تعكر صفوي؟ لقد كنت ملتصقاً بي كالقرَّاد في أذن الشاة، لا تدّعي النزاهة الآن، دع الأمور تسير كما قدرها الله.

هز رأسه بخجل وفوجئ بها تضحك، وتضيف بجذل:

ـ لعلك تخشى أن تهلكني كما أهلكت امرأتين من قبل، لا أكترث بما سيحدث، لقد كانت عيناي مصوبتين إليك قبلهما، لكنك أعمى.

خرج مذهولاً وأشعل غليونه، نفث الدخان في الهواء، أحس أنها سعيدة وراضية، ومادامت لا تشكو من شيء، فإن ذلك يبعث على

السرور، ولا يتحتم أن يمطرها بمخاوفه. عندما انتهت من طحن حبوبها حملت كيس الطحين فوق رأسها، وودعته بابتسامة خجول أثلجت صدره فرحاً، مكث شاردا مخدراً قرب الباب، إنها امرأة خدومة ومضيافة، تميل إلى السمرة الفاتحة، طويلة ذات جسد ممتلئ، لديها شيء من السحر الخفي، ليس مرده إلى الشكل أو البنية الجسدية، لأنها قد تبدو امرأة بدائية المظهر ريفية التقاطيع، إنما هناك جمال خاص ينبع من داخلها، فهي طيبة وودودة إلى أقصى حد، من ذلك الصنف المفعم بالنشاط والسخاء الذي لا يقول لك لا أقدر أن أفعل كذا أو أعطيك كذا، هذا ما لمسه بنفسه وما أثبتته التجارب.. توقف سرحان عن الشرود، حين بدأت القرويات يتساقطن واحدة تلو الأخرى، بحيث تركن أكياس الحبوب مكومة في الزوايا، وغادرن على غير العادة، ومن ثم صار يطحن وحيداً، حتى أحس بالإنهاك الشديد في آخر النهار، ظل حماسه وجهده يتلاشى كل يوم، عرف أن الأهالي غاضبون منه لأنه جلب ذلك الشيخ الساحر وعائلته إلى القرية، أدرك حينها صعوبة العيش وسط مجتمع صغير غاضب وحاقد، فضلاً عن انقطاعه مدة طويلة عن العمل، كما ظن أن سهره في منزل روضة واستغراقه في معاشرتها أخذ يبدد طاقته، ويتلف جسده، لم ينقذه سوى حمود الذيب الذي جاء إلى الطاحونة يعرض عليه أن يؤجره الطاحونة مقابل القدر نفسه من المال الذي كان يدفعه للكبير عاطف في الشهر، ترك سرحان مكانه لحمود الذيب، وسار في طريقه صوب منزل زكية، برر تأجيره الطاحونة بضرورة البقاء قريباً من بناته وطفله، دار في ذهنه أنه لا يجوز أن يتركهم بين يدي عائلة يهودية غريبة وإن كانوا يتولون رعايتهم كما ينبغي.

وجد المنزل مفتوحاً نظيفاً، رأى طفله يناغي قرب مريمة، وهي تلاعبه بدلال كما لو كان طفلها الحبيب، انكمشت حين رأته على عتبة الباب متسمراً، وعاتبته قائلة بحنق:

ـ لا يجوز أن تدخل متسللا كاللص.

رد قائلا بفتور:

ـ سامحيني، لقد قابلت أياماً مضنية في الطاحونة، ولا أنام إلا قليلاً.

انبرى سعد مرددا اسم روضة:

ـ لوده.. لوده..

ـ ماذا يقول سعد؟ سألت مريمة.

قرصه بخفة، وأجاب مبتسما بارتباك:

ـ لا أفهم ما يقول هذا الشقي.

ـ غط.. غط..

سمع ضجيجاً في الخارج فقال بعجب:

ـ ما هذه الضجة؟

ـ لودة.. لودة..

ـ لا تكن عنيداً يا بني.

قالها وخرج إلى باحة القرية ليرى ما يجري.

3

سُمِعت أصوات طلقات نارية صاخبة قادمة من أطراف القرية، أسرع الصغار واندسوا تحت أثواب أمهاتهم، أتت روضة مسرعة، وراحت تصيح بصوت متهدج:

ـ يا ويلي، ابنتي ترعى في الهضبة.

صعب حالها على سرحان، فسألها بحدب:

ـ ماذا يجري هناك؟

ـ جموع من الرجال يحاصرون القرية، يقال إن فيهم جنود مسلحون بالبنادق، أين رجال القرية الأبطال ليذودوا عن الحريم؟

ثارت الحمية في روح سرحان، وعاد إلى منزل زكية، رأى بنادق عاطف عالقة على المشاجب في جدار المجلس، كانت الهيبة والمخافة تملأ قلبه، مع ذلك تناول إحداها بحذر، ارتداها كما يفعل الجنود، واتجه صوب أطراف القرية، ليس لديه فكرة ما بوسعه أن يفعل، وصل كالطائش إلى ساحة القتال، عثر على الأهالي والشيخ رعدان والأم زكية مختبئين خلف أحد المنازل، اقترب بتهور ليلقي نظرة على الأشخاص الذين يحاصرون الأهالي، فجذبه ناصر حنشات صائحاً بصوت مرتعش:

ـ لا يجب أن تتقدم أكثر، دع هذا الشيخ يفعل شيئاً ويستحضر شياطينه.

دوى صوت رصاصة، وثار الغبار والدخان في الموضع الذي كان واقفاً عليه، أخرج جزءا صغيرا من رأسه مختلسا النظر إلى المهاجمين، هاله وجود عدد كبير من الجنود الخيَّالة، وعدد آخر من رجال القبائل بملابسهم الريفية القذرة وأجسادهم الناحلة المكدودة، لمح عامل القضاء وهو يلقي تعليماته على المحاربين، فسأل من حوله بقلق:

ـ ماذا يريدون؟

أجاب ناصر حنشات قائلا بارتعاش وتوتر:

ـ يريدون الساحر الصغير وأتباعه السحرة، لو نستطيع أن نمسك بكم لفعلنا واسترحنا من شروركم.

ـ حتى أنت يا جاري...!

مال إلى الشيخ رعدان، وجده متكدرًا بحال لم يسبق أن رآه فيه، خاطبه قائلا بعجب:

ـ ماذا دهاك يا شيخ رعدان؟ استحضر خُدَّامك واطرد هؤلاء الجنود.

تقدم الكبير عاطف ناحيته وهو يقول بنزق:

ـ هات بندقيتي أيها اللص.

صاح الشيخ رعدان:

ـ لا تعطه البندقية، إن لم يصمت سوف أحوله إلى قرد.

غادر الكبير عاطف المكان وهو يصرخ مهدداً:

ـ يجب أن نسلمكم إلى صاحب السعادة لتسلم القرية من النحس، ليس هناك حلٌ آخر.

كان الفقيه مرشد ينظر بتشفٍ وفرح، همس الشيخ رعدان قائلاً بأسى:

ـ مخلاتي مفقودة، بدونها لا أستطيع أن أعمل شيئاً.

ـ لا أظنك فقدت تعاويذك الخطيرة أيضا.

ـ لم أفقدها، لقد خالفت وصايا الأسلاف بما يكفي، ناهيك أن هناك سحرة بينهم سيبطلون ما أعمل، أظنهم نجوا من الشياطين، وقد شرعوا بإتلاف الخط السحري.

ـ كم يعوزهم من وقت لإتلافه؟

ـ حتى الظهيرة دون ريب.

نظر سرحان إلى قرص الشمس، وجده يقترب من منتصف السماء، فطن إلى شيء ما فقال:

ـ أتظن الفقيه مرشد أخذ المخلاة، فقد رأيته يضحك باطمئنان؟

ـ لو كانت بحوزته لكان أستحضر الشياطين، لا شك أنها وقعت في كف شخص جاهل.

سمعوا أصوات إطلاق نار داخل القرية، فهبوا مسرعين ليروا ما حدث، خشي الشيخ رعدان أن تصاب ابنته بسوء، صاح سرحان كأنه الوحيد الذي فطن إلى ما يجري:

ـ عاطف وأتباعه يسرقون البنادق.

بدأ الشيخ رعدان يتلو تعويذة الجمود الطارئة، ولما دخل المنزل، رأى ابنته مريمة طريحة على الأرض مثقوبة برصاصات عديدة في بطنها وصدرها، ومازالت تصارع للبقاء على قيد الحياة، سعد بجانبها يلهو بالرصاصات الفارغة التي تجمعت حوله، كان عاطف مجمداً دون حراك، يصيح باندهاش:

ـ أصبت الساحرة وها هي تموت، لكن الساحر الصغير تساقط الرصاص عن جسده كأنه صخرة صماء!

عوى الأب، وسقط قرب جسد ابنته المحتضرة متأوها بتأثر وحزن، لا يدري كيف يفعل لإنقاذها، جاء الفقيه مرشد يدعوه واجبه كطبيب، وحاول إيقاف نزيف الدم، قام سرحان بدور الشرطي، فنزع البنادق من أيدي الرجال الجامدين، ثم صاح في الأهالي أن يجلبوا السيور، وقام بربطهم رغم جمودهم، في تلك الأثناء، جاءت إحدى بنات الكبير عون تستنجد، طالبة الفقيه مرشد دون غيره، لكنه كان مشغولاً، ويخشى من غضب الشيخ رعدان، فسألها أن تفصح عما يجري، قالت بصوت مرتبك:

ـ كانت جدتي "فوز" تعبث بخاتم غريب عثرت عليه في مخلاة جلبها عمي عاطف، وهي الآن تتشنج وتشارف على الموت، البيت يتحرك ويوشك أن يسقط.

أفاق الشيخ رعدان من غيبوبته وحزنه الشديد، وصاح بانفعال:

ـ أنا أعرف ما ألم بها، لقد عبثت بخاتمي السحري، الشياطين الآن غاضبون، لكني أستطيع إنقاذها وإنقاذ أشخاص آخرين بحاجة إلى المساعدة.

أسرع الشيخ رعدان وراء الفتاة، هناك وجد حشداً من النساء يصرخن، كان المنزل ينط مثل كرة مطاطية، وصراخ الجدة

والشياطين يصدر من داخله، أخذ يهدئ من روع النساء، ثم شرع يقرأ تعاويذ غريبة بعض الوقت، متوغلا في المنزل غير مبالٍ باهتزازه ونطاته العجيبة، بعد لحظات خرج ممسكا مخلاته مرتديا خاتمه، ظل يقرأ تعاويذه حتى سكنت ثورة الشياطين، وصاحوا بصوت هادر:

ـ ماذا تريد يا سيدنا؟ هل نسحق الغزاة، أم نردهم إلى بقعة قاصية من الأرض؟

ـ أعيدوا الزمن يوماً واحداً، دعوا كل شيء يعود إلى وضعه السابق بما في ذلك الجرحى، احتفظوا فقط بوضعي الحالي.

ـ لك ذلك.

طار الخاتم من يده إلى داخل المنزل، طار كل شخص من الأهالي والجنود المحاصرين والسحرة إلى أماكنهم التي كانوا فيها البارحة، كذلك اختفت مريمة والفقيه مرشد، وعاطف ورفاقه، كما طارت ماما زكية من موضعها إلى المنزل.

كانت روضة تشاهد ابنتها وبعض الأهالي بأيدي الجنود الذين صاروا يهددون بقتلهم ما لم يُسلِّم الساحر الصغير وأتباعه أنفسهم، فجأة طار الرهائن إلى منازلهم، رأتهم روضة يطيرون، وطارت معهم بلمح البصر، وكاد قلبها يقع في صدرها، لكنها سرعان ما أحست أنها فقدت شعور الحزن الذي كان ينتابها على ابنتها، أخذت تفكر بأمور أخرى سبق أن فكرت فيها البارحة، الوحيد الذي احتفظ بذاكرته هو الشيخ رعدان الذي اقتحم منزل عاطف، وأخذ المخلاة والخاتم، ثم أخفى البنادق في مكان أمين، حتى لا يتكرر ما حدث في اليوم الماضي.

كان حزيناً للغاية، لأنه تدخل بشكل مباشر في عمل الأقدار وأخَّر الزمن، وبهذا خالف وصايا معلميه وكبار السحرة، بل إنها مخالفة جسيمة لا ينجو مرتكبها من العقاب، ظل بقية يومه يقوم بتدابير وابتهالات وتعاويذ معقدة لتجنب عواقب هذا الخطأ الفادح، بدأ بأول تدبير، وهو التوسل إلى إله القدر الذي يعيش في بحر الأقدار، سمعه سرحان يقول مناجياً:

ـ علامة صفحك عني هي هطول المطر في المساء.

بقي ما حدث البارحة مطبوعا في أذهانهم كحلم غريب حتى أن بعضهم لم يعد يتذكر شيئا منه، بحيث تكرر كل شيء حدث في اليوم السابق، ماعدا إطلاق النار على مريمة، وارتعاش منزل الكبير عاطف، في حين حاول الشيخ إضفاء شيء من القدر على الأحداث، فترك عاطف ورفاقه يهجمون على ابنته مريمة والطفل سعد، فضربوها حتى سالت الدماء من جسدها، وبحثوا عن البنادق طويلاً حتى ألقى عليهم الشيخ تعويذة الجمود، واعتقلهم سرحان، لكن إله القدر كان غاضباً، لأن المطر لم يهطل في المساء.

انتظر الشيخ رعدان حتى اقتحم المهاجمون والسحرة الخط السحري، حين ذلك طلب من الشياطين أن يظهروا عليهم بصورهم المخيفة، فانهزموا وولوا هاربين، لكن العقوبة حدثت لعائلة الشيخ رعدان، إذ أتى القدر صوب الأم زكية وجعلها تبرز إلى أمام الجنود، وهي تقرأ إحدى تعاويذها السحرية، لكن أحد السحرة أبطل تعويذتها، فأطلق الجنود عليها النار قبل أن تظهر عليهم الشياطين، صعق الشيخ رعدان، وانكب على جسدها الهامد، وجاء الفقيه مرشد وجثم على الأرض وحاول أن يفعل شيئاً، لم يجرؤ أن ينظر في وجهها الذي كساه الموت بغلالة من الشحوب، بدأت النساء المسلمات يحضرن للعزاء، ويتأهبن للقيام بغسلها وفق الشعائر

الإسلامية، لكنهن فوجئن أن حمامة زوجة العيلوم حاييم تتولى تجهيزها على الشعائر اليهودية.

4

بظروف غامضة اختفى عاطف وأعوانه من القرية، قيل إن الشياطين نقلتهم إلى صحراء قاحلة تصل حرارتها إلى درجة الغليان، والبعض ظنهم محبوسين في مكان سري داخل القرية، جاءت فاطمة تستعطف سرحان أن يكشف لها عن مصير ولدها، لكنه كان متضايقاً وجاهلاً بما يخطط له الشيخ رعدان، وظل متواريا بمنزل جارته روضة، يدخل ويخرج متخفياً كاللص، كذلك كان يدخل منزل زكية لاسيما في النهار، ينظر إلى صغيره، ويتجرأ أحياناً ويحمله ويدور به في أرجاء المنزل، تلاحقه مريمة أينما ذهب، حينا آخر يأخذه إلى أطراف القرية ليزهو به، فتتعقبه إلى هناك، صار الأهالي ينظرون إليه بارتياب، يستغربون حين يرونه يوم الجمعة في المسجد، صار يلومه بعض الأهالي، كشف له جاره ناصر حنشات عن قلق المسلمين من بروز العائلات اليهودية، فقد بدأوا يتجمعون قرب الشيخ رعدان ويسيرون بثقة عالية رافعين أصواتهم بشكل غير مسبوق، كانوا ببساطة يريدون من سرحان أن يحدد هويته، ويفسر لهم ما يجري في منزل زكية، أو على الأقل يوضح لهم رأيه فيما يدور، والطرف الذي يقف إلى جانبه، لكن موقف سرحان بدا ضبابياً، أوضح لهم أكثر من مرة إن ما يشعرون به مجرد أوهام، لا يوجد طرفان في القرية، ليس هناك من شخص متضرر فيها سواه، لأن العائلات اليهودية أمست تزور منزل زكية باستمرار، صار يرى كتباً غريبة على رفوف المجلس الكبير، باتت أغراضه تضيع وتختلط بين أغراض الزوار، في يوم وجد ثوباً غريباً بين ملابسه، واكتشف فقدان ثوبٍ آخر، حتى ظن

أن خُدَّام الشيخ رعدان باتوا يشاركونهم في كل شيء، حين يصعد أو يهبط السلالم المظلمة في النهار يصطدم بأحدهم فيجفل، لا يدري أهو إنسان أم شيطان، في بعض الأوقات تؤلمه بطنه أو تضغط عليه مثانته، فيهرع إلى الحمام، لكنه يجده مشغولاً، ينتظر متألماً محرجاً خلف الباب حتى يخرج أحدهم منه، صارت مريمة تطهو وجبات يهودية مذكورة في التوراة، فيضطر أن يأكل وسط حلقة كبيرة من يهود القرية، ينظرون إليه باستغراب كدخيل، عندما يذبحون ديكاً أو دجاجة في بيت النار، يرى النساء يوجهن جسد الطائر ناحية القدس، وهذا يثير في نفسه بعض الحساسية الدينية، صار العيلوم حاييم يتحدث عن حتمية إنشاء معبد عظيم لليهود في القرية، أما الشيخ رعدان فقد ارتدى قفته اليهودية وأطلق لحيته وزنانيره كحبر من الأحبار، لم يعد ذلك الرجل الذي كان يهزأ بالمؤمنين الفارين من ذنوبهم إلى المساجد، بل أخذ هو الآخر ينادي بإعادة إحياء الشعائر اليهودية، وأعلن عن ضرورة إنشاء معبد ديني ضخم لليهود، ما لبث أن أعاد رسم الخط السحري حول القرية بحيث لا يستطيع دخولها سوى الأهالي، وهؤلاء أضافوا أسماء أقاربهم الساكنين في قاع الحقل إلى قائمة الأشخاص الذين يستطيعون الدخول، قام في وقت مبكر بتسليم البغلة إلى الإقطاعي نجيم، والآن حان ميقات رد العرفان، إذ طلب منه أن يبتاع أرضاً رحبة وسط القرية، وتم البيع بثمن عادل، وشرع اليهود يؤسسون كنيساً ضخماً زاهياً بأيدي الشياطين.

كان أهالي قرية الرباط يفيقون من نومهم فيجدون جدران بديعة وأعمدة مدهشة منمنمة منتصبة على الأرض، في كل يوم يكبر البناء بسرعة مذهلة، ولا يرون عاملاً واحداً يشتغل عليه، لم يمر أسبوع حتى استقام بناء فريد يخلب العقول، وهذا أثار الغيرة في قلوب الأهالي المسلمين، وفي موعظة الجمعة حرضهم إمام

المسجد عثمان على تدميره مدعيا إن آيات القرآن كفيلة بطرد الشياطين إن حاولوا التدخل لإنقاذ البناء، عندما خرج سرحان بعد الصلاة رآهم مجتمعين في الفناء، يناقشون الأمر، سكتوا حين رأوه، وراحوا ينظرون إليه بشكل غريب.

آب صوب منزل زكية متعجبا، جعل ينظر في ملابسه وشكله، كان طبيعياً، لا شيء غريب يجعل المصلين يحدقون فيه على ذلك النحو، دخل المنزل متردداً كعابر سبيل، كان الطعام في بيت النار قد أعد، لم يعد هناك سوى انتظار بعض اليهود المدعوين للغداء كالعيلوم حاييم وامرأته حمامة، لم يُثِر دخوله أي زوبعة ترحيب أو استنكار، فقد اعتاد اليهود على حضوره، لعل الشيخ رعدان المبجل أضفى على مسامعهم عبارات حسنة عنه، وهم أيضاً يعرفون الرجل من قبل في الطاحونة، لم يجدوه في يوم قد حابي مسلماً على حساب أدوارهم أثناء الطحن، انتبه الشيخ رعدان إلى تجهمه فقال مهوناً:

ـ لا تقلق عما قريب سأبني مسكني الخاص.

نظر إليه سرحان ورد بحدة:

ـ وجودكم هنا هو جزء ضئيل من شقائي، ما يقلقني هو كيف بات ينظر إليّ أهالي القرية، أخشى أن تتفاقم المشاكل.

أخيرا جاء العيلوم حاييم وعائلته، مكللاً بدجلة سوداء وثوب أبيض، حياهم بصوت وقور، مضوا يتحدثون عن شئونهم الخاصة حتى يحين موعد الطعام، بعد قليل أقبلت مريمة وعفراء بنت العيلوم حاييم بالأطباق، رُصّت المائدة، فجلسوا جميعاً حولها، ظهرت الوجبات نفسها التي تقدم في ولائم المسلمين، تختلف فقط بمذاقها ومقادير البهارات فيها، طبق العصيدة الحار والمرق والخبز وبنت

الصحن ولحم الدجاج البلدي، وآنية مليئة باللبن قدمت إلى أمام سرحان تحوطاً لعدم تناوله المرق المستخلص من لحم الطائر الذي ذبح وفق الشعائر اليهودية، لكنه لا يحب أن يأكل العصيدة مع اللبن، لذا أجبر نفسه على أكلها بالمرق، لاحظ أنهم كانوا يراقبونه، تجاهلهم وأخذ يأكل بنهم، عرف أن بوسعه أن يغض الطرف عن مشاعره الدينية المتأذية، لأنه متيم بامرأة يهودية يهفو إليها ويخشى منها في آن، وقد تنازل لهم عن بيته من أجلها وحسب، فما المانع أن يتذوق المرق أو حتى السم الزعاف! خطر هذا في ذهنه في تلك اللحظة، نعم، يريد أن يثير إعجابها ويغريها بأي حال من الأحوال، لكن هذه المرأة تبدو بعيدة المنال كنجمة في السماء لا تصل إليها الأيدي، رمقها بنظرة يائسة وهي تأكل دون أن تعيره أي اهتمام، حبذ أن يظل محتفظاً برباطة جأشه حتى النهاية، كان سعد جالسا بالقرب يلعب بخيوط نسيج يهزها ويلفها بعشوائية واهتمام ككل الأطفال، نهض بشكل مباغت وراح يضرب قدمه على الأرض بانزعاج ويقول:

ـ هدل، هدل..

قال الشيخ رعدان وهو يضحك:

ـ هدر، أليس كذلك؟ حقا أيها الصغير، لقد مضت حياتي هدراً.

نظرت مريمة إلى وجه سرحان المكفهر، رمقه اليهود بنظرات مستفهمة، فصاح بغيظ:

ـ خطر، خطر. ألا تفهمون ما يقول؟

قفز الشيخ رعدان من موضعه، واتجه صوب النافذة، قذف نظرات سريعة إلى طرقات القرية متوجساً قدوم خطر منها، لم ير شيئاً خارجاً عن المألوف، فجأة سمعوا أصوات وهتافات ذات طابع

ديني، أبرزها صوت التكبير، إلى جانب ضربات مدوية على شيء ما صلب، حينئذٍ فهم الشيخ رعدان ما يدور، فصرخ بصوت عارم:

ـ الكنيس يُهدم يا بني إسرائيل.

قفز الرجال والنساء اليهود من أماكنهم بهلع، لحقوا بالشيخ رعدان، حتى جدة حاييم "حمدة" المقعدة ذات المئة والعشرة أعوام، زحفت على أطرافها، وتدحرجت خلفهم على السلالم، لم تمنعها الشيخوخة ومتاعبها على الحبو والزحف إن كان ذلك من أجل إنقاذ معبدهم المقدس. كان الأهالي المسلمون قد شوهوا الجدران بالمطارق في المواضع التي تقابل أجسادهم، وتسللوا إلى الداخل، وأحرقوا البسط الثمينة ومخطوطات التوراة القديمة التي كتبها أحد الأحبار في عهد يهوذا، كما أفسدوا كل شيء وصلت إليه أيديهم، سرعان ما قرأ عليهم الشيخ رعدان تعويذة الجمود، فتسمروا في مواضعهم، وظل إمام المسجد عثمان يتلو الآيات تلو الآيات بلا جدوى، فصاح على الأهالي:

ـ هل تشعرون بما أشعر به؟

صاح ربيع البكر:

ـ ادع الله ليخلصنا، نحن جامدون بتأثير السحر.

ـ كيف أدعوه أيها المجانين وهو ينظر إلينا الآن ولا يحرك ساكناً، كأننا من نسل الشياطين! لقد وعدنا بالنصر في القرآن، ماذا يجري؟

ـ لا تفقد إيمانك يا مولانا، نحن خير أمة أخرجت للناس، هيا اطرد الشياطين بالآيات.

ـ لا وقت للسخرية الآن يا قاسم، نادوا الفقيه مرشد لينقذنا، اصرخوا لبقية الأهالي.

ـ الفقيه مرشد مختبئ كعادته، لم نعد نرى في الباحة سوى اليهود، وسرحان هنا أيضاً، لكن نصفه مسلم والنصف الآخر يهودي.

ـ نادوا على النساء والأطفال إذن.

أقبلت نساؤهم ومجاميع كبيرة من الأطفال بلا نداء حين سمعوا الجلبة، توافدت كذلك العائلات اليهودية الأخرى، وتقابلوا أمام الكنيس وجهاً لوجه، ووقف سرحان حائراً في المنتصف، ماداً ذراعيه تحاشياً للصدام، لما رأى الشيخ رعدان ما يجري أمر اليهود أن يغادروا إلى منازلهم، وعاد وضيوفه إلى وجبتهم قبل أن تبرد، تردد سرحان قليلاً، لم يجد قرب الكنيس سوى نظرات الازدراء من الأهالي المسلمين، لذا عاد إلى مائدة الطعام، إذ مازال جائعاً ومتعباً، أكل قليلاً من الزاد، كان الصمت محلقاً فوق رؤوس اليهود كالغمام، كانوا واجمين منتفخي الأوداج، والمرأة المسنة تئن بصوت أقرب إلى مواء القطط، تمنى أن يبادر أحدهم بالكلام حتى باللوم أو الشتائم، أحس أنهم يتحاشون النظر إلى وجهه، أين يذهب بنفسه؟

أخذ طفله وصعد إلى السطح، نظر إلى الكنيس، كان الرجال مازالوا جامدين في مواضعهم كتماثيل لمحاربين رومانيين في وضعيات مختلفة، لا تتحرك سوى ألسنتهم، بدوا معذبين مأسورين، بينما تحاول نساؤهم تحريرهم دون جدوى، سمع صوت غنية تصرخ في وجه زوجها بيأس:

ـ لِمَ أسعى إلى إنقاذك يا ناصر حنشات؟ أنت لا تفعل شيئاً....

ـ بلا فضائح يا غنية، قولي ما تشائين في المنزل.

ـ وهل تظن أنك سوف تنجو؟ بل أحبذ أن تظل جامداً إلى الأبد.

وأبدت بعض الزوجات شجاعة كبيرة ضد بعض الرجال المتسلطين الذين صاروا في حال يرثى له.

ـ اصرخ يا عطاء الآن، انفش شاربيك كما تفعل في المنزل حين تغضب.

ـ أين أذهب وأطفالي يا قاسم؟

ـ تستحق ما يحصل لك يا ثابت، لِمَ لا تصلي وتعود إلى منزلك، وتدع اليهود وشأنهم؟ ألا تدرك أنهم باتوا يملكون نواصي الشياطين؟

ـ كيف تفعل بي هذا يا ربيع؟ لقد أرقت ماء وجهي خجلاً، وكدت بسببك أن أقتتل وصديقتي عفراء! لقد أهدتني البارحة سلة للملابس من صنع يدها.

ـ عثمان، أنت أعمى يقودك ابني محمد إلى المسجد، حري بك أن تداري عجزك بالابتعاد عن مواطن الشر والأذى، لكني أخشى أن يكون الشر مستوطنا في روحك.

صاح الشيخ عثمان باسترحام:

ـ خيرية، لا تدعيني هكذا، لا أود أن أقضي الليل هنا، أنا ضرير، ستنهشني الكلاب الضالة.

ـ فلتنهشك النواهش.

اجتمعت النساء بعد أن هدأ أوار الغضب في نفوسهن، رأين أنه مهما كانت غطرسة وذنوب الرجال، فإنها لا تستحق وهلة من العذاب الذي يمرون به الآن، قررن التفاوض من أجل تحريرهم من الجمود، فما الكنيس سوى بناء جامد يمكن إعادة ترميمه بأيدي الشياطين أو حتى على نفقة الأهالي المذنبين، أخيرا قادت خيرية

النساء في مسيرة احتجاج غريبة هادئة ناكشات شعورهن، وجلسن عند عتبة باب منزل زكية بصبر ومثابرة وصمت.

كان هذا أعظم مراتب التذلل والخضوع، لعل الموت أخف وطأة من رؤية امرأة باكية منكوشة الشعر، لم يحدث هذا من قبل في القرية. هبط سرحان من السطح موجوعاً خجِلاً، وهو يرى نساء قريته في هذا الحال المزري، لا يدري كيف يكون رد فعل الشيخ رعدان، يخشى ألا يفهم ما يجري، لأنه غريب عن الأهالي، نظر اليهود إلى وجه سرحان الممتقع، وتوقعوا أن شيئاً فظيعاً قد حدث، أشار إلى الخارج دون أن يتكلم، خرجوا على الفور، هناك رأوا الأطفال والنساء المنكوشات الشعر، تأثرت حمامة زوج العيلوم حاييم، كذلك بكت ابنتها عفراء وهي ترى صديقتها غالية زوج ربيع بذلك الحال، رمت غطاء رأسها، ونكشت شعرها، وانضمت إلى نساء القرية، سرى الخبر إلى العائلات اليهودية الأخرى، فأقبل الرجال اليهود مندهشين متأثرين بالمشهد المذل، تعاطفت نساؤهم مع الجارات المسلمات، وأخذن يقذفن أغطية رؤوسهن الواحدة تلو الأخرى، وينكشن شعورهن، ويجلسن صامتات، حتى جدة العيلوم حاييم حمدة فعلت ذلك، ووقع اليهود الغاضبون في مأزق شديد. أصبح الوضع لا يحتمل، لذا أشاروا إلى الشيخ رعدان أن ينظر إلى ما آل إليه الأمر، ألقى نظرة إلى ما يجري دون أن يتأثر، أدهشه ما يرى من أحوال غريبة، غمر الذهول مريمة، ونظرت إلى والدها بعجب، كان وجهه جامداً صلباً كصخرة بازلتية، أصر على أن يعاقب الرجال المسلمين على ما فعلوا في بيت الله، أعلن عن قراره الحاسم أن يتركهم عدة أيام جامدين حتى يموتوا من الجوع والعطش والإهمال، كانت روضة منكوشة الرأس أيضاً، تجلس صامتة بين النساء، كان سعد الصغير يقول بلثغته المعهودة:

ـ آل.. آل..

استوحى والده سرحان المعنى، فتقدم نحو الشيخ رعدان وصاح في وجهه بغضب لأول مرة:

ـ عار عليك، ألا ترى رؤوس النساء المنكوشة؟ أليس لك قلب؟

رد الشيخ ببرود مخيف:

ـ لقد أهانوا الكنيس المقدس وأحرقوا مخطوطات التوراة النادرة.

ـ لكن الإنسان أقدس من كل شيء، موت هؤلاء الرجال يعني موت النساء والأطفال، من يعيلهم يا مولانا، أخبرني كيف صرت مؤمناً بشكل مفاجئ! لقد كنت تحذرني من دور العبادة والمحاريب. ماذا جرى لك؟

لم يعرف سرحان من أين خرجت تلك الكلمات حول قداسة الإنسان، هو نفسه، إذ يتشدق بها الآن، مازال يشك في كثير من أفكار الشيخ رعدان الغريبة، مع ذلك افتتن بسعة صدره وهدوئه، لذلك جلبه إلى القرية، يخشى أن يكون ذلك غلالة خادعة انقشعت عن جسده الآن، فأضاف بارتياب:

ـ أنت لست الشيخ رعدان الذي أعرفه.

انفجر الشيخ كبركان يقذف حمماً من أعماقه المجروحة:

ـ اسمع أيها المتحذلق، أنت وهؤلاء الرجال الحمقى الجامدين.

أوضح إنه لا يعنيه أن تنكش جميع نساء الأرض رؤوسهن لإنقاذ حفنة من المتعصبين التعساء، فالأهالي لا يعرفون آلامه وأوجاعه. لقد مكث متحلياً بالحلم والحكمة في كل أرض وطأتها قدماه، حتى في السجن المعتم القاسي بقي صابراً مدة ثلاثين عاماً، ولم يرتكب

زلة واحدة، لكن ما إن سكن في هذه القرية الملعونة حتى خالف وصايا معلميه وأسلافه السحرة القدامى، فأصبح حقيراً ملعوناً، لقد اعترض طريق الأقدار وأخَّر الزمن، وخسر امرأته، وليس الكنيس سوى القشة التي قصمت ظهر الجمل، هو الآن في طريقه نحو الهاوية، وسيسحب إليها كل من يقف في طريقة من التعساء والحمقى، على الأهالي أن يحترسوا من الآن وصاعداً، ويبتعدوا عن طريقه، لأنه أضحى شريراً، ولا يملك أي أمل مشرق في حياته الخاطئة.

ارتعب الأهالي من الشيخ رعدان وهم يسمعون تصريحه الأخير، حتى صديقه العيلوم حاييم الحاقد على المسلمين الذين أهانوا الكنيس المقدس، ذعرت مريمة أيضاً من والدها، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، فقد تغير شكله وشحب لونه وأصبح كشيطان من شياطينه الغاضبين، عند هذه اللحظة، بدأت النساء المحتجات يرتدين أغطية رؤوسهن، رأين أن الأمر قد بلغ نهايته، ولا أمل في نجاة الرجال الجامدين، نظر سرحان إلى مريمة الأثيرة إلى قلب والدها، لكنها أشاحت وجهها بعيداً بيأس، لم يعد هناك ما يمكن فعله، كان سعد في حجر والده، بدأ يجاهد للتملص من بين ذراعيه القويين، لم يكترث سرحان لأمره، ثم صرخ متألماً حين عضه في معصمه، فرماه إلى الأرض، صارخاً بحنق:

ـ ماذا تريد أيها الشقي؟ اذهب حيث شئت.

مشى الصغير بشكل مفاجئ صوب الشيخ رعدان الغاضب الذي مازال مُشيحاً وجهه إلى الأفق متحاشياً النظر في وجوه الأهالي، بدا كأنه بات محملاً بكراهية كل شيء ولا يقبل أي مساومة، وقف الطفل أمامه دون خوف، بينما الشيخ لا يشعر بوجوده، تجمد

سرحان، وهمست الأمهات للصغير، وأغرينه بقطع السكر عله يبتعد عن الخطر، لكنه صرخ بصوت صغير حاد:

ـ غط..

فز الشيخ من غفوته المخيفة، ونظر إلى الصغير شزرا وخاطبه بفتور:

ـ ابتعد عن طريقي أيها الشقي.

ـ غط.. غط.. غط...

كرر سعد إنذاره عدة مرات، بحيث غشي العرق وجوه الأهالي، وتسلل سرحان ببطء لينتزع الولد قبل أن يصاب بسوء، لكن الشيخ رعدان تحرك صوب المنزل، والشرر يقدح من عينيه، ففرّت النساء من طريقه وأخذن الصغار بعيداً كأنه إعصار قادم، وأنذر البعض الفتيان أن يبتعدوا، بات كل شخص يصرخ محذراً هذا وذاك، حتى دخل الشيخ المنزل دون أن يلتفت إلى أحد، تنفس الجميع الصعداء، ورد سرحان بصره إلى حيث كان ولده واقفاً، لكنه لم يجد له أي أثر، فظن إن الرجل المسن قد نال منه بإحدى تعاويذه الرهيبة، لذا قفز بوجه ممتقع غاضب وهو يصيح بثورة:

ـ أعد إليّ طفلي أيها الساحر العجوز.

حاول الرجال اليهود أن يمسكوه قبل أن يقترف حماقة تؤدي إلى هلاك الجميع، لكنهم عجزوا عن اللحاق به، كانت سرعته فائقة عجيبة، توقفوا بمنتصف السلالم لاهثين يائسين، لا يجرؤون على الصعود أكثر من ذلك، فجأة ارتد إليهم سرحان متدحرجاً، قادوه وهو يترنح ويصيح بألم، ساروا في طريقهم صوب الفقيه مرشد ليداوي جروحه، مروا قرب الكنيس، بوغتوا وهم يرون بعض

الرجال الجامدين يركضون بحذر في طريقهم إلى منازلهم، كان سعد هناك يمر عليهم ويلامس أجسادهم بكفه الصغير، فيتحركون، انهار سرحان بين يدي الرجال فرحاً وخوفاً في آن واحد، وارتخت أذرع المسعفين أيضاً، وتركوه يصارع للبقاء ثابتاً على قدميه، وفروا خائفين إلى منازلهم، جاءت مريمة ماشية على رؤوس أصابع قدميها، فمد سرحان يده إليها مستغيثاً، وهو يقول:

ـ أرجوك يا مريمة، أسعفيني إلى الفقيه مرشد.

أمسكت كفه بلا حماس، وراحت تقوده كطفل صغير، وهي تقول بتبرم:

ـ أبي مهتاج للغاية، أخشى أن يستحضر شياطين الخاتم، أرى أن نضحي بحفنة من الرجال المتعصبين، وندع الآخرين يعيشون بسلام.

كان يرتعد من الخوف والألم، لم يجرؤ أن يخبرها عما حدث، لكنها لاحظت ذلك حين نظرت إلى الكنيس، توقفت قائلة بفجيعة:

ـ أين الرجال المجمدون؟

ـ عادوا إلى بيوتهم.

ـ هل حررهم أبي؟

ـ كلا، الساحر الصغير فعل ذلك.

ـ سعد؟

قالتها باستعظام، ثم نظرت باغتمام نحو نقطة بعيدة في الأفق، وتابعت بضيق:

ـ ما أشأم اليوم الذي عرفتكم فيه!

جاء سعد وسار إلى جانبهما وهو يلهو بحصى في يده، كأن شيئاً لم يكن، طرقا باب الفقيه مرشد ملياً، ولا أحد يجيب، اقترب الصبي ولمس الباب فانفتح، عبروا السلالم ببطء، وسرحان يقول بألم:

ـ أفكر أن أفر وصغيري إلى مكان ناءٍ مجهول.

أجابت بامتعاض:

ـ لا جدوى الآن.

كان الفقيه مرشد وأولاده منزوين في الصالة الوسطى مكومين قرب بعضهم في صمت، كأنهم يتوقعون حدوث كارثة، استقام الفقيه بفزع حين رآهم وقال بارتباك:

ـ كيف دخلتم؟ كان الباب موصداً.

مضى الصغير يقول بشقاوة:

ـ أنا "آحل أديل".

ـ فتح لنا "الساحر الخطير" سعد.

ضحك الفقيه مرشد لكلام مريمة وهو يظنها مزحة، اقترب من سرحان وراح يمسح الندوب بدهان لزج، ويقول:

ـ انظر، أنا الآن بدون امرأة، ولا أحقد عليك بسبب ما فعلت، هاأنذا أداوي جروحك ثانية.

ـ أنت رجل طيب يا مرشد.

ـ لا تبالغ، أنا شخص شرير حين أشعر بالخطر، لكني أدرك أنك رجل ساذج وغير عدواني، لولا ذلك لجعلتك في غيبوبة دائمة بواسطة أدويتي المبتكرة.

ضحك الفقيه مرشد ليوحي أنه يمزح، خطرت في رأس مريمة فكرة ملحة، فخاطبته قائلة:

ـ أحياناً يثقل الماضي على حياة شخص ما، ويجعله معذباً، حتى يوشك أن يؤذي من حوله، لا أدري هل لديك دواء يمحو ماضيه الأليم. أتمنى ألا يكون خطيراً على الجسد، وأن يكون له علاج يبطل مفعوله.

ـ بل أستطيع أن أمحو اسمه من رأسه، وأدعه ينسى كل شيء، ثم أداويه بعلاج من عندي.

جلب من الرف قنينة صغيرة مختومة بسدادة سوداء محكمة، يفوح عبق غريب منها، احتفظ بها بين راحتيه بضع لحظات موحيا إلى أهميتها وخطرها، ثم قال بمكر وهو يتبسم:

ـ سأضيف إليها بضع قطرات تخفف من مفعولها القوي.

تناول من رف قنينة صغيرة، حين فك سدادتها تصاعدت منها رائحة نفاذة جعلته يسعل بشدة، أضاف قطرتين منها إلى الدواء، ثم أقفلها قائلا:

ـ هذا السائل سام لكنه حين يمتزج مع الآخر يصبح غير مضر.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ الطبيب لا يخون مهنته، هكذا كان يقول معلمي دوماً.

سلمها إليها مترددا وهو يمسح عرقاً غزيراً تجمع على جبينه، بدا مرهقا كما لو انتهى من عمل شاق، رفض المال الذي عرضت عليه مريمة ثمناً للدواء، راح يتملقها بمكر وينظر إليها بود ولهفة، ما أثار غيرة سرحان الذي شرع يلمس منها بعض اللطف، الآن يبرز الفقيه مرشد ليغازلها ويتقرب منها، كما فعل ذلك سابقا مع

مساعدته زكية! لا يعرف كم بذل من جهد ليروض هاتين المرأتين، دائماً يخرج هذا البغيض من العدم ليحاول أن يأكل اللقمة التي طبخها غيره، فكر سرحان بحنق.

أتى الفقيه مرشد بضمادات شدها على جروحه، وطلب منه ألا يتحرك من موضعه بعض الوقت، دعا مريمة إلى شرب الشاي في زاوية المجلس، فقبلت الدعوة، انزويا يتحدثان بخفوت ويضحكان، وهو ينظر إليهما بغيرة وألم، في تلك اللحظات السقيمة قُبيل الغروب أتت روضة تبحث عنه، بدت مصفرة وشاحبة ومتأففة، ظن سرحان أن ما جرى له هو السبب، لكنها همست له أن الوحم ظهر عليها، وتلك هي علاماته، وهي تخشى أن يظهر حملها دون وجود زوج في منزلها، عرضت عليه حتمية الزواج السريع، أخرجت خاتم الخطوبة، وأكدت له بحدة إن الزفاف لا ينبغي أن يتأخر عن يوم الخميس القادم، ازداد ألم سرحان وكدره، رأى أن يومين لا يكفيان لإقامة عُرس، وهو فضلاً عن ذلك في وضع سيء، لكن روضة نادت الفقيه مرشد، انتزعته قسراً من جوار فاتنته الجديدة التي انسجم معها أيما انسجام، أتى بخطوات متثاقلة والانزعاج بادٍ على ملامحه، عندما طرحت عليه الأمر شع وجهه بالفرح، تمنى أن يتم كل شيء في تلك اللحظة، حتى يضمن ابتعاد خصمه اللدود الذي يزاحمه على مريمة، لن يكون هناك سوى مشكلة أنها يهودية وهو مسلم، ولن يعدم من وجود دليل في القرآن وأحاديث النبي يجيز هذا الزواج، نظر إلى وجه مريضه الملبد وجسده المنهك وضحك في أعماقه بتشفٍ، انعكس ما يجول بذهنه في عينيه، قرأه سرحان بوضوح: "وقعت أيها الخبيث في شر أعمالك، سينتصر مرشد في النهاية" رغم فرحه تظاهر بخوفه أن يكون في الزواج ضررا على مريضه، وطلب التأجيل أسبوعاً، فجاء جواب روضة الحاسم محققاً ما تمناه:

ـ ولا حتى يوماً واحداً، ستتم الخطوبة والعقد الآن.

نفحته بقشتين لتكسر حاجز اعتراضه ومخاوفه، فرفض أن يتناولها على غير عادته، جعل من نفسه شهماً وخدوماً في عينيها، ما لبث أن بعث أحد أبنائه ليجلب شاهدين من الأهالي، ثم نظر إلى روضة المتصلبة بامتنان، وقال لنفسه كأنه يخاطبها:

"بوركت يا روضة، خذي ها الرجل من طريقي، وأنا أدفع تكاليف الزفاف".

ظل سرحان يراقب ما يجري شاردا عاجزاً عن الكلام، دار في ذهنه إن التوقيت سيئ، والمشاكل والأخطار تحيط بهم من كل الجهات، بينما الفقيه مرشد مسرور متشفٍ، يلف خيوطه حول مريمة، أخيراً وجد شيئاً يقوله بتلطف:

ـ أوافق على الخطوبة، لكني أود أن نؤجل العقد حتى يزول غضب الشيخ رعدان.

صرخت روضة بعصبية:

ـ لن يؤجل شيء.

أثناء ذلك نهضت مريمة من موضعها ونظرت إليهما بذهول، أشار الفقيه مرشد إليها أن تقترب، قائلاً بابتهاج:

ـ تعالي يا مريمة، لتحظي ببركة العقد، لدينا عروسان جديدان، سيتم عقد قرانهما الآن، وها هي العروس تصرخ بلوعة وشوق.

دنت مريمة مندهشة مما يجري، رنت إلى وجوههم بارتياب، ثم ثبتت بصرها على سرحان، رأته متجهماً متألما، أحست ناحيته بالشفقة، ثم بالغضب، كرهت استسلامه وعجزه، في تلك اللحظة جاء الشاهدان، فغمزها الفقيه مرشد هامساً:

ـ راقبي كيف أفعل، خطوبة وعقد في آن، هذا لا يحدث دائماً، لعلك لم تحضري عقداً للمسلمين ولم تتذوقي زبيب العقد، سأذيقك من زبيبي الخاص.

ثم صاح على أولاده:

ـ اجلبوا الزبيب واللوز في الطبق الفضي.

أخرجت روضة طبقها المليء بالزبيب وهي تقول:

ـ لا تجهد نفسك يا فقيه مرشد، زبيب ولوز العقد في حوزتي، عليك فقط أن تسرع بإجراء العقد قبل حلول المغرب، فهي ساعة مشؤومة.

سطع الضجر في وجه سرحان، لاحت في عينيه عبارة هازئة: وهل هناك شيء غير الشؤم؟ لم تصبر مريمة على هذا الحال، فأبدت عجبها واستنكارها قائلة:

ـ لقد جئت بالرجل إلى هنا ليتداوى من آلامه، وليس ليعقد قرانه وهو منبطح يتوجع.

قال الفقيه مرشد هاتفاً بجذل:

ـ أحياناً يجتمع الفرح والألم، ليس هذا غريباً، ذات يوم كنت مجبرا على عقد قران سرحان وزكية، كانت العروس مكسورة الذراع، وكنت مثلكِ أحتج واستنكر، لكن العروسين حظيا بالسعادة.

لمعت عينا سرحان بالنفي: "عن أي سعادة تتحدث أيها الخبيث! لقد أفسدت حياتنا بأسحارك الطيارة".

صاح بألم:

ـ هيا أسرع يا فقيه مرشد، لا تستمتع في تعذيبي.

ألقت روضة في وجه مريمة نظرة باردة كالثلج غير آبهة باحتجاجها، سرعان ما تمت الخطوبة والعقد في آن، التفت الفقيه مرشد إلى مريمة، حاملاً طبق الزبيب واللوز الخولاني، ذابت ابتسامته من وجهه حين رأى مكانها خالياً، مضى يجول بعينيه هنا وهناك، ثم سرعان ما تبسم بخبث، وعيناه تقولان: ستعودين إليّ قريباً أيتها الفاتنة اليهودية. تفرق الجميع وآبت روضة باطمئنان وهي تسند زوجها بإخلاص، الآن بوسعهما أن يمكثا في منزلها على مرأى ومسمع من الأهالي، وبوسع الجنين أن يأتي إلى هذا العالم دون مشاكل.

5

كست الشمس الشارقة منازل القرية بأشعتها الذهبية، وانعكست بلمعان قوي على فسيفساء جدران الكنيس المحطم، خرج الشيخ رعدان من منزل زكية، وراح يجول في ممرات القرية بلا هدف، كان الأهالي يراقبون خروجه وسكونه العجيب، في البداية لم يجرؤ أحد على مواجهته، حتى تشجع العيلوم حاييم ودنا منه بحذر ملقيا عليه تحية الصباح، ثم مد كفه ليصافحه مبدياً أعلى درجات الاحترام وهو يخاطبه:

ـ كيف حالك اليوم يا صاحبي؟

أشاح الشيخ رعدان وجهه عنه وابتعد وهو يقول:

ـ أنا لا أعرفك.

تبعه العيلوم وهو يظنه ما زال غاضباً كما كان البارحة، أو لعله اكتشف فرار الرجال الجامدين، اقترب منه إلى مسافة لا تليق بالأصحاب، وراح يقول بأسف:

ـ الصفح يا مولانا المجلل، لقد أفلت الصغير سعد خلسة منا وحرر الرهائن، ولم نستطع فعل شيء...

تحاشاه الشيخ وسلك طريقاً أخرى، أصاب العيلوم حاييم الإحباط، ووقف مكانه يتابع خطواته المبتعدة بحزن، وأيقن الأهالي باقتراب نهايتهم، راحوا يتعانقون ويودعون بعضهم، فجأة خرجت مريمة تمشي بتبختر وهي تحمل عصا والدها في كفها موحية إلى مكانتها

الجديدة، أشارت إلى الأهالي فهرعوا إليها متهافتين، شخصوا إلى وجهها بخضوع وصمت، فقالت بصوت آمر حاد النبرات:

ـ لا تزعجوا الشيخ أو تقتربوا منه فهو مريض.

هز الأهالي رؤوسهم بإذعان، فرحوا أن ينجوا من المصير الذي كان ينتظرهم، عرفوا أن لديهم مهيمن جديد، بدا واضحاً أنها باتت تسيطر على كل شيء، قلقوا من فكرة سيطرتها على كتب والدها الخطيرة وكذلك الخاتم، استاءوا أكثر حين جاء الفقيه مرشد، ووقف إلى جوارها كصديقين حميمين، حدس العيلوم حاييم بما يملك من فراسة مستمدة من إيمانه بالله أن هذا اللقاء سيجر إلى أمور لن تحمد عواقبها، عواقب وخيمة لا يحبذ أن يفكر فيها الآن، لأنه وغيره من اليهود لا يتصورون حدوثها، فالفقيه مرشد رجل أرمل مسلم خمسيني العمر، وهي في الثلاثين على الأرجح، وهو يبدو مولعاً بالنساء الفاتنات الأصغر سناً، علاوة على ذلك يجيد فنون السحر، ويسمعون أن لديه عقار سحري يمزج في الماء أو القهوة، حين يشرب منه الأشخاص المتباغضون يصبحون لا يطيقون فراق بعضهم.

وهكذا أيقن الأهالي خاصة اليهود أن مريمة مسحورة أو مجنونة، فقد اعتدل مزاجها ورقت ملامحها واحمرت وجنتاها بمجرد قدوم الفقيه مرشد، أخذت تضحك لأتفه مزحة يتفوه بها، ثم ما لبثت أن أمسكت كفه بشغف ولهفة في النهاية، حتى بات اليهود يخشون أن تطلب منه النوم إلى جانبها في تلك الليلة، حين ينظرون إلى وجهه المليء بالتجاعيد وآثار مرض الجدري الذي غزاه في طفولته، لا يجدون محفزاً يبعث على حبه، لكن المسحور يرى صاحبه بصورة بهية لا أجمل منها، مضوا يسألون بعضهم، هل زارت مريمة الفقيه مرشد وذاقت في بيته شيئاً من المشروب؟ ساور الأهالي المسلمون

شعور سيء أيضا لظهور الفقيه مرشد إلى جانب مريمة اليهودية، لم يجدوا أحداً يستنجدون به ويلقون عليه همومهم، كان هناك سرحان يستأنسون به على ما به من عِلّات، لكنه مشغول بعروسه المرتقبة روضة فضلاً عن آلامه الجسدية، لذا قرروا أن ينتخبوا كبيراً، يأخذ عنهم حمولة المشاكل ويهديهم إلى جادة الصواب، انزووا جانباً في الباحة، وأخذوا يتهامسون حول هذا الأمر، باحثين عن شخص مناسب جدير بتحمل المسئولية والقرارات الحاسمة، أخذ كل شخص يرفع رأسه ويشمخ بأنفه موحياً إلى نفسه، لم يجدوا أحداً زاهداً عن المنصب، حتى ناصر حنشات الرعديد المرتعش استقام وروج لنفسه قائلاً بغضب:

ـ أستطيع أن أدير شئون القرية وأعرف كل كبيرة وصغيرة من مهام الكبير.

علق ربيع البكر ساخراً:

ـ أنت لا تستطيع أن تدير شئون امرأتك غنية، فكيف تستطيع أن تدير شؤون قرية كاملة!

ضحك البعض، فيما أمسك الجزء الآخر ناصر حنشات الذي اندفع للعراك ذوداً عن كرامته.

ـ سأريك من يكون ناصر.

قال حمود الذيب لائماً:

ـ كلاكما غير جدير، فالكبير لا ينبغي أن يسخر أو يعارك رفاقه.

هز الرجال رؤوسهم بيقين، واستبعد ناصر وربيع من المنافسة، ما رفع من فرص الآخرين بالفوز، رأت مريمة والفقيه مرشد الجلبة،

فأقبلا سعياً لمشاهدة ما يجري، وأعلنت مريمة عن حضورها قائلة باهتمام:

ـ ماذا يجري هنا؟

هتف حمود الذيب قائلاً بضيق:

ـ لا شيء، مجرد شجار بين رجلين وليس هناك ما يدعو للقلق.

ـ أنتم الآن كالأغنام بلا راعٍ، لن تظلوا هكذا دون كبير، سأرى إن كان الفقيه مرشد سيقبل أن يكون كبيراً، فهو راجح العقل ويملك مهارات عديدة.

التفتت صوبه وجعلت تحاوره بود وتستجديه ليقبل، فأخذ يتقهقر إلى الخلف متظاهرا بالزهد، ما لبث غير قليل حتى هز رأسه مطأطئً إلى الأرض كفتاة خجول تقف أمام غرباء، تنفست مريمة الصعداء، وقالت كأنها تزف إليهم البشرى:

ـ أخيراً، وافق الكبير مرشد.

كانت وجوه الأهالي مقطبة واجمة، وهم يسمعون كلام مريمة الخادع، ويرون حركات الفقيه مرشد الماكرة، فجأة برزت مجموعة من اليهود، جاءوا بتحفز واضح كأنهم يعرفون ما يجري، ويودون إثبات وجودهم في القرية، قال العيلوم حاييم بلهجة هادئة روحانية:

ـ أظننا نعيش سوياً في هذه القرية تحت رعاية الرب، لا أرى مسبباً يدعوكم للانزواء في الباحة بعيداً عن أبناء إسرائيل.

لم يفهم الأهالي المسلمين ما يريد قوله، وتعقدت الأمور أكثر بحضور العيلوم، مع ذلك حمدوا دخوله المفاجئ، وتمنوا أن يمارس

تأثيره وسطوته الدينية على مريمة، ويثني عزمها، فأجابت باضطراب:

ـ لا شيء يدعو إلى قلقك أيها الحبر الأعظم، كل ما في الأمر أن الأهالي يفكرون في اختيار كبير القرية، وقد وافق الكبير مرشد أن يدير شئونهم على مضض.

ـ أفيقي يا بنيتي، أنت مسحورة ووالدك مسحور، هذا الرجل الذي تقفين إلى جواره يبلغ الستين من العمر، وأظنه يسعى للسيطرة على إرث والدك وكتبه وخُدّامه، ولن يسلم بعد ذلك من شره أحد.

نظرت مريمة إلى الفقيه مرشد الذي تغضن وجهه وأبدى انكساره وحزنه، وأجاب:

ـ لا أريد أن أكون كبيراً، لن يقبل بهذا المنصب الآن سوى مجنون أو طفل.

تنحى الفقيه مرشد جانباً بحيث بعث تصرفه هذا بعض التعاطف والشفقة، فصاحت مريمة بحزن:

ـ انظر ماذا فعلت أيها الحبر، أنت تفرق الأهالي من حولي، لأنك غيور ومتسلط وتسيء الظن بالآخرين.

نظرت بحنق إلى الأهالي وأضافت:

ـ وأنتم اختاروا طفلاً أو شيخاً، لا شأن لي بكم.

انصرفت بحنق، فعادوا يتشاورون بلا جدوى، فجأة انبثق من مكان ما الطفل الصغير سعد، هرع صوب المجتمعين، كانت أخته صفية تلاحقه لتعيده إلى منزل روضة، لفت حضوره الأهالي الذين غدوا يحترمونه ويحبونه بعد أن أنقذهم من الجمود، سمعوه يقول بصوت غير مكتمل المعنى:

ـ أنا قبيل قية.

رغم ذلك فهم الأهالي عبارته الناقصة، وضحكوا بتحبُب، حاولت أخته أن تحمله لكنها عجزت، نظرت إلى الرجال باستعطاف، فانحنى قاسم عوض لكي يرفعه إلى حجرها، وهو يخاطبه هازئاً:

ـ مازلت تغوط في سروالك يا كبير القرية.

أمسكه ليرفعه من الأرض، لكنه لم يستطع، فأحس بالخجل والعار أمام الأهالي، وظل يحاول مرارا، باذلا جهداً جباراً حتى غمره العرق وتمنى أن تبتلعه الأرض قبل أن يفشل، ما لبث أن ضحك متظاهرا بالمزاح، ثم انحنى أكثر وشدّ بأقصى قوة يملكها، فأنطلق منه ضراط متقطع مزعج، وفاحت في الجو رائحة كريهة، وأحس قاسم بشيء يسيل من مؤخرته فانطلق هارباً. لم يتوقع الأهالي أن يكونوا في موقف صعب كهذا، صاروا الآن وجهاً لوجه أمام الصبي الذي أنقذهم من الجمود قرب الكنيس، لكنهم حين ينظرون إلى وجهه وجسده يرون ملامح طفل صغير غارق في السذاجة والحمق مثل غيره من أطفالهم الصغار، وإن التفكير في انتخابه ليكون كبيراً لقرية الرباط لهو أمر في غاية الجنون والطيش، أمر كهذا سينتشر خبره ويبلغ القرى والأرياف المجاورة، ثم يطير إلى أرجاء البلاد، حتى يصبحون أضحوكة ومثلاً سائراً تتوارثه الأجيال المتلاحقة، ويخشون أن يأتي يوم من الأيام يعبر فيه المسافرون أو المتسوقون من قاع الحقل في طريقهم صوب يريم فيشيرون لرفاقهم قائلين:

" انظروا، كبير هذه القرية طفل رضيع، هل تصدقون ذلك؟".

نظر الأهالي إلى بعضهم وانفجروا ضاحكين، ثم حبسوا ضحكهم وراحوا يفكرون بجدية في عواقب رفضهم، فإما يضحون بسمعتهم

أو بحياتهم أو بعقولهم، لا يدركون ما سيحدث لهم في حال رفضوا طلبه، مازال في موضعه يحاصرهم بنظراته البلهاء، وينتظر قرارهم النهائي متنمراً كشخص بالغ، جمعوا رؤوسهم وجعلوا يتشاورون، همس ربيع البكر لائماً:

ـ انظروا عاقبة التلكؤ، في النهاية، يصير كبير قريتنا طفلا مازال يرضع حليب الأبقار والماعز.

ـ العتاب مقبرة الوقت، ماذا نصنع الآن؟

رد ربيع بعصبية مخاطباً حمود الذيب:

ـ اذهب يا أخي لتجلب والده بدلاً من حِكَمَك العبثية.

استحسنوا هذا الرأي، وشكلوا جداراً ساتراً ريثما أفلت حمود الذيب من نظر الصغير، وراح يعدو نحو منزل روضة، وهناك اقتحم خلوة سرحان وأخبره بما يجري، فصاح سرحان بغضب:

ـ ليركله أحدكم في مؤخرته، أعجزتم عن طرده؟

نظر إليه حمود باستنكار وأجاب:

ـ كأنك لا تعلم بأحواله العجيبة!

ـ في هذه الحال، يجب أن تساعدني على السير.

أسنده حمود واتجها صوب الباحة، كان الأهالي في وضع حرج، يرتعدون ويتملقون الصبي، يتسللون تباعاً إلى منازلهم ويعودون محملين بالهدايا الصغيرة التي يحبها الأطفال، فصوص السكر، قرون الفول الخضراء، حبيبات العتر المقلية المملحة، قصب الذرة الحلوة، وبعض المكسرات التي يحتفظون بها للمناسبات، ارتجل ناصر حنشات بعض الحركات المضحكة، ساعده ارتعاشه الفطري

على إلهائه وإضحاكه، وقلد عطاء صوت الحمار ونهق بصوت مزعج نافر، ثم غنى ربيع أغنية ممطوطة محزنة، وسرعان ما ضجر الصبي وتجهم ورمى الهدايا التي جلبت له، لأن تلك الحركات لم تصدر من قلوب مخلصة ونوايا سليمة، كل شيء يفعلونه يبدو مصطنعاً، وهذا لا ينطلي على طفل حاذق مميز عن الأطفال، وكما يقول المثل: "لا يعرف ما في القلب إلا الجاهل والكلب"، والجاهل باللهجة المحلية هو الطفل، لذا ما لبث أن كرر الصبي مطلبه الوحيد.

ـ أنا قبيل القية.

حينها يئسوا، وتوقفوا عن مداراته، استنفدوا جميع حيلهم ومكسراتهم بلا فائدة، أمسوا يتمنون نزول بعض الكرامات المدمرة على رؤوسهم، فيرتاحون من عذاب الانتظار، كالوا لسرحان الشتائم لعدم استجابته السريعة لندائهم، وطالما حمود الذيب لم يأتِ بعد، فهذا يعني أنهما في الطريق، صاروا ينظرون إلى الطريق الخاوية بقلق، لا شيء يبرر غيابهما الطويل، النملة لن تأخذ كل هذا الوقت في السير، كان حمود وسرحان يسيران بدأب، الأخير يستند على الأول لكي لا يسقط، لكن الوقت يمر بطيئاً على المنتظرين والمتعجلين، ظهرا أخيراً، كانت الأرواح توشك على الخروج من الأجساد، رأى سرحان المكسرات والهدايا الأخرى مبعثرة بفوضى حول الصبي الثائر، فانفجر في وجوه الأهالي قائلاً بغضب:

ـ ها أنتم تزرعون التسلط في روح الصبي.

نفخ ربيع كالثور الهائج قائلا بنزق:

ـ أرنا كيف تربي ولدك وتزجره عن مزاحمة الكبار على منصب كبير القرية، لكنك تبالغ في تدليله، أو تنشغل عن تربيته بأمور تافهة، وتقضي وقتك في مطاردة الأرامل.

اكتسى وجه سرحان بحمرة الخجل، قرأ في عيون ووجوه الأهالي كثيراً من الكلمات الجارحة، تقدم صوب الصغير وتردد قليلاً وهو يشاور نفسه، ثم رفع كفه في الهواء ليضرب سعد، لكن يده يبست في الهواء، أحس أن هيبته سوف تضيع، لذا انفجر ضاحكاً وهز رأسه مستنكراً فعله، ثم حرك يده الأخرى بطريقة توحي أن شيئاً سطع في ذهنه، ومضى يقول باستخفاف:

ـ أتظنون قلبي قطعة من حجر لأضرب ولدي سعد، لا لن أفعل ذلك.

أبدى مرونة عالية في التعامل مع ابنه المميز، نظر إليه بإشفاق، ثم تراجع بضع خطوات في اتجاههم، حتى لانت عضلات ذراعه وتحررت، راح يشير إليهم بود أن يقتربوا منه، بدا من حركاته وسكناته أنه يقف إلى جانبهم، لذا أذعنوا حين طلب منهم تجميع رؤوسهم والاستماع لما يقول، فهمس باهتمام:

ـ اسمعوا نصيحتي، ينبغي أن نجاري الصبي قليلاً، ونتظاهر أنه كبير القرية، بينما نختار رجلاً من الأهالي سراً.

رد ناصر حنشات بصوته الراجف:

ـ هذا مرهق جداً، إلى متى سنظل نجاري رغبات ولدك المدلل، بحيث نصير نناديه بالكبير سعد كلما رأيناه يلهو بين الصغار، وفي حال نسي أحدنا أن يتملقه سوف يحاصره كما يفعل الآن.

انصرف ربيع البكر وتبعه الأهالي حانقين، وعذرهم سرحان على تصرفهم، هو نفسه سيفعل ذلك لو طلب منه أن يقبل بولاية أحد الأطفال.

6

فكر في الأمر من جميع جوانبه، هو الآن يعيش في منزل روضة بهدوء تام، ولا داعي لأن يزف إلى منزلها كما حدث في عرسه وزكية، هنا سيدرك الضيوف أنه لا يملك منزلاً، في المرة السابقة كان انفجار منزله ذريعة كافية، أما اليوم فلا يملك أي عذر ليزف إلى منزل العروس. لا بد أن يفعل شيئاً وإلا تمرغت سمعته في الوحل، ويصبح أضحوكة في منطقة قاع الحقل، فطن إلى حيلة مرضه الذي برأ منه، ظن أن التمارض سوف يعفيه من هذه الحفلة البغيضة، أخذ يومها يتوكأ على جسد حمود الذيب عائداً إلى منزل روضة، كان ولده سعد يمشي إلى جواره وهو يبكي بحرارة، كأن أحد الأطفال سرق دميته أو أبرحه ضرباً.

أخذ يخاطبه بصوت ساخر طافح بالغضب:

ـ لا تبكِ على منصب كبير قرية الرباط، حري بك أن تكون الأمير الأكبر للبلاد.

قال حمود الذيب مستنكراً ذلك:

ـ لا تغرس هذه الفكرة الخبيثة في رأسه، ستراه في يوم ما يسمي نفسه أميراً، ويوقعك هذا في حرج عظيم.

ـ أتظنه يعي ذلك! أنت حقاً مجنون.

ـ وأنت كذلك.

ضحكا سوياً، فجأة توقف سرحان حين رأى روضة متسمرة قرب الباب، عرف من طريقة وقوفها ونظرها إليه أنها تريد أن تحدثه بشأن الزفاف، سألها بفتور:

ـ ماذا هناك يا روضة؟

ردت بصوت جاد:

ـ ها قد جاء رسول من الكبير مرشد يوصي أن يتم إشهار الزواج بحفل لا مثيل له، وقد شرعت ببعض التدابير، ودعوت النساء للحضور لإحياء المناسبة.

ـ انظري إليّ جيداً، لا أستطيع الوقوف والسير دون مساعدة، ولا أظن الفقيه مرشد ناصحاً أميناً.

ـ اطمئن، لن تزف إلى منزلي، فقد جُهزت لنا الغرفة العلوية في منزل زكية، لن يكون عليك إلا أن تمسك بيدي عند عتبة الدار وتصعد بي على السلالم.

ـ لا يجوز أن أستند على جسدك لأصعد السلالم، هذا مخجل ومهين.

ـ سرحان ألا يحق لي أن أفرح مرة واحدة بعد أن نسيت طعم الفرح ورائحته؟ أنت الرجل الوحيد الذي أحببت في عمري، لكنك يا للأسف لم تدرك ذلك بعد!

ـ ماذا جرى لك يا روضة؟ لا أظن هذا الزفاف سيؤدي إلى إسعادنا، نحن الآن بحال أفضل.

ـ سرحان، لقد سحرتني وأعدت لي الأحلام والأشواق الصغيرة التي كانت تراودني في أيام عزوبيتي، كأني حقا صرت فتاة يافعة، ألا يحق لي أن أحلم بزفاف وزغاريد وطبول؟

ـ هل أنت بخير يا روضة؟ سأل باستياء.

ـ لا تخش شيئاً، لست شبقة وحيوانية مثل زكية، أنت محطم الآن، أعرف ذلك، يكفي أن أشم رائحتك لأكون سعيدة.

التفت سرحان إلى حمود الذيب وسأله:

ـ أتسمع هذا الكلام المجنون من امرأتك؟

هربت روضة بخجل حين انتبهت إلى وجود حمود الذيب، صارت تضحك وتلوم نفسها على إفراطها في التعبير عن شغفها أمام أحد الأهالي، أمست تؤمن أن سرحان سحرها بالفعل، بحيث أمست تعجز عن رؤية شخص آخر غيره، تنهد حمود الذيب بحسرة، وظل صامتاً يبحث عن كلمات مناسبة يعبر فيها عن حاله وامرأته سيسبان، أخيراً زفر قائلا بضجر:

ـ لا أدري حقاً يا سرحان، لم اكتشف بعد ما تكنه لي سيسبان من مشاعر، هل تحبني أم تكرهني؟ لأن لا حديث لها إلا عن البقرة وعجلها الوليد، وأحسبها لو خيرت بيني وعجلها ستختار العجل دون شك.

حسده سرحان في سره، فهو يريد امرأة لا تبالغ كثيراً في مشاعرها نحوه، ولا تحدب أو تغار عليه، يا حبذا لو تدعه وشأنه، لكن في أي ركن من الأرض يمكن العثور على امرأة بهذه المواصفات، وتعجب من حنق حمود الذيب، هذا حال الدنيا، من يكون في السهل يتمنى أن يكون على الجبل، وساكن الجبل يحلم بالعيش في السهل! تمنى أن يظل حمود إلى جواره، لكنه ودعه وذهب، جلس مجبراً قرب روضة، محاصراً بلطفها وتوسلها وحديثها الممل عن شكل الزفاف ومتطلباته، راح يئن ويتوجع موحياً بمرضه، متمنياً أن تعيد النظر في الأمر، أو على الأقل تصمت، لكنها ذهبت بنفسها لتعد

وتجهز لاحتفال كبير، فقام بمفرده وتمشى بنشاط في أرجاء المنزل، حتى سمع وقع خطواتها صار يتعرج ويستند على الجدران، أخبرته عما فعلت وهي تضحك وتحتضنه بفرح، لقد بعثت الدعوات إلى عائلات كثيرة معروفة في القرى المجاورة، وتعاون الأهالي معها لاسيما الكبير مرشد، وكل هذا من أجل زفاف لا يفارق ذاكرة القرية، قالت له إن ذلك من أجل الرجل الوحيد الذي أحبت أن تعيش إلى جانبه، تريد أن يعرف الناس قاطبة أنها زفت له في آخر المطاف، يئس سرحان، ومع ذلك لم يجد بداً من مواصلة السير على الجدران أو الاستناد على شخص ما.

7

حل يوم الخميس، ذُبحت الكباش وغص منزل روضة بالضيفات، أقبلت الناقشة والغاسلة للاهتمام بجسد العروس، وفي الوقت المناسب جاء الرجال يتقدمهم الكبير مرشد الذي صار كبيراً فرضته الحاجة وسطوة مريمة اليهودية، حملوا سرحان إلى منزل زكية غير عابئين بصراخه وأنينه الزائف، أغضبه ابتهاج الكبير مرشد وقهقهاته المتشفية، شاركه السخط والعجز العيلوم حاييم وأبناء جلدته من اليهود الذين مازالوا يشعرون أن ابنتهم مسحورة ومختطفة، لاحظ سرحان أن الكبير مرشد بات يدخل منزل زكية ويخرج بحرية تامة، صار يسمع صوته الزاعق ينبع من عتبات الدار كأنه رب المنزل، أحياناً أخرى يسمعه يصرخ في وجه مريمة نفسها، مع ذلك تأتي إليه وتتمسح به حتى يهدأ، أما الشيخ رعدان فلم يعد أحد يتحدث عنه أو يسأل عن حاله، من حين إلى آخر يظهر في أطراف القرية بحال مزرٍ، وقد فتك به المرض والضعف، صار يتحاشى الأهالي ويفر منهم، وأصبحوا يتوقعون أن يتعثروا بجثته أو يشموا رائحتها بمكان ما، لا يدركون كيف يعيش ويتقوت، وما هو الشيء الذي مازال يربطه بالحياة! في ذلك اليوم، تذكر سرحان أمره، أمسى حزيناً على الحال الذي وصل إليه، تخيل مريمة وهي تسقيه ذلك السائل الخطير الذي أخذته من الفقيه مرشد، لقد وافق يومئذٍ على تصرفها، لكنه الآن يحس بالندم، لأن الكبير مرشد غدا أخطر من الشياطين، أضحى متغطرساً ثائراً كإله الأعاصير في شواطئ المدن اليونانية القديمة، وها هو يجبره على إقامة هذا الحفل بتواطؤ من روضة.

كان بعض الأهالي يغسلونه ويدعكون جسده بالكربة البيضاء، رغم ذلك سمع شتائم الكبير مرشد تصب على ابنته صفيه، بدا حزيناً متشائماً، كفتاة مجبرة على الزواج من رجل لا تحبه، أخذ الرجال يساعدونه على ارتداء الملابس اللائقة، في تلك الأثناء، دخل الكبير مرشد يحف به المتملقون المعتادون الذين يحيطون بأي كبير للقرية، نظر إلى حاله المشين ولم يتأثر، لكنه أراد أن يثبت قدرته على تغيير مجريات الأمور في القرية، فقال بصوت صارم ذي بحة مفتعلة:

ـ يؤجل العرس إلى الغد، حال العريس يبدو سيئاً، ينبغي أن يكون قادراً على السير بمفرده لاستقبال عروسه.

أعطى كلامه مفعولاً شديداً، بحيث كف الرجال عن الاهتمام بالعريس، ووقفوا ببلاهة ينتظرون ما يؤول إليه الأمر، حتى نبع صوت خافت كالمواء من خلف الكبير مرشد:

ـ لكن الكباش ذبحت والوليمة تُعد والضيوف في الطريق.

ـ أيها الحمقى، أتظنون أحداً يستطيع عبور الخط السحري المحيط بالقرية، من منكم يدعي إنه رأى عابر سبيل أو طائراً قرب منزله؟

اتسعت عيونهم، وصمتوا كالمذنبين، كيف غفلوا عن أمر الخط السحري الذي أقامه الشيخ رعدان حول القرية قبل أن يفقد الإحساس؟ لا شك أن الضيوف عالقين أمام الخط، من العار إرجاء ضيافتهم وصرفهم عن الوليمة بعد أن تكبدوا عناء الوصول إلى مشارف القرية، لهذا السبب أحسوا بالأسف والخجل الشديدين، كذلك أحس الكبير بما يجول في أذهانهم، فأضاف بلا مبالاة:

ـ الوليمة من نصيبنا اليوم، فالعروس ميسورة لا تكترث بإنفاق المزيد من المال في سبيل أن يتعافى عريسها لكي يقوم بواجبه كما يجب ليلة الدخلة.

ضحك الرجال، وهللوا لانفراج مشكلة الوليمة، وسأل قاسم عوض:

ـ والضيوف بأي عذرٍ نصرفهم؟

ـ الضيوف سنعيدهم إلى منازلهم مسرورين غير لائمين أو ساخطين.

ارتفع التهليل في تلك الحجرة الضيقة، وانقشع كل شعور باللوم، حل البِشْر والحبور في الوجوه، وضاق سرحان ذرعاً بطيشهم وفرحهم وقال بصوت حانق:

ـ ألا تفكرون بحالي المشين؟ أيكفي يوم واحد لأتعافى من آلامي.

عاد الوجوم إلى الوجوه، وتلبد الجو ثانية بغيوم الإحباط، مرض العريس مشكلة عويصة أيضاً، وحاله السيئة لا تقبل الجدال، نظروا باستجداء إلى وجه كبير القرية، فدَقَّ صدره وأبرم حلاً شافياً:

ـ أنت يا سرحان في عوز شديد إلى دواء سيجعلك كالريال الذي لم تلمسه يد، عليك فقط أن تصبر حتى أبعثه إليك في المساء.

خرج الكبير مرشد وسط موجة من الرضا، وعبَّر الأهالي عن امتنانهم من الكبير، وأسفوا على شكوكهم السابقة ومعارضتهم له، ولمَّا وصلوا إلى مشارف القرية، كان الضيوف خارج الخط يصرخون بغيظ:

ـ يا أهالي قرية الرباط، كيف توجهون لنا الدعوات ثم تعيقون عبورنا بشيء غريب كهذا؟ أنتم سحرة أنجاس، دعونا ندخل أو اسحبوا دعوتكم ليلحقكم العار إلى الأبد.

ـ هذا خط سحري، أين كبير القرية ليفسر لنا ما يجري في قريته؟

برز الكبير مرشد قليلاً إلى الأمام، وهو يفكر في الذريعة المناسبة لصرف الضيوف والاعتذار لهم، بدت فكرة مرض العريس أنسب الذرائع، بدا الأهالي ناكسين رؤوسهم بخجل، ويأملون أن يتفهم المدعوون الظرف الحرج الذي يمر به العريس، وابتدأ كبير قريتهم يقول معرفاً عن نفسه:

ـ اسمعوا يا رجال، أنا الكبير مرشد...

ـ هاه، ماذا أسمع؟ أصبحت كبيراً يا مرشد!

نظر بغضب إلى المتكلم الذي قاطعه، ما لبث وجهه أن تلبد بالسواد والدهشة، زيارة غير متوقعة من معلم قدير رفيع الشأن، إنه الرجل نفسه الذي أفضى إليه بأسرار الطب والأدوية النافعة، طبيب ذائع الصيت كانت تجمعه ووالده صداقة وثيقة، لهذا السبب قذف إليه الفتى المراهق مرشد ليزوده بالعلم، لم يبخل الفقيه عايض عليه بعلمه، ولقنه دروس الطب الشعبي مدة عامين في قريته نجد حازب، لم يفعل ذلك مع أي طالب آخر، لكن الفتى الشقي مرشد طمع بالعلوم السحرية والتنبؤ، كالضرب بالرمل وقراءة الكف والجبين والتعاويذ الخطيرة، وتحت إلحاحه وضغطه زوده بالنزر اليسير مدة شهرين، وكان يقول له على الدوام:

ـ لا تركن يا مرشد إلى هذه العلوم البغيضة لأنها تجلب الأذى، كُن معالجاً ومداوياً مثل معلمك.

في آخر يوم للتعليم سمعه يقول وهو يودعه:

ـ آمل أن أزورك يا مرشد ذات يوم لأرى كيف تبلي بالطب.

وأضاف وهو يعانقه:

ـ احذر أن تستخدم السموم أو دواء فقدان الإحساس أو الكي بالنار على مؤخرة العنق.

افترقا منذ زمن طويل، ربما نسي كل منهما شكل الآخر، الآن فقط تحققت هذه الزيارة المفاجئة، لقد تغيرت قسمات وجه معلمه كثيراً، بقيت ملابسه وطريقة كلامه، ونظراته المستهترة العابثة. غمر الحنق نفس الكبير مرشد، وأخرس بعض الوقت، راح يوازن بين قراراته، حتى أرجأ البت في أي منها، مضى يعاتب معلمه في أعماقه: هل أتيت لتفسد عليّ خططي؟ كيف حشرت نفسك بين أشخاص غير مرغوب حضورهم في هذا اليوم؟ ماذا أقول للأهالي والعريس المريض؟

ـ مرشد يا بني، هل تعجز عن استقبالي أم لا تستطيع أن تفك الخط السحري؟

ـ معلمي، أهلاً بك، هذا صحيح، لا أستطيع فك الخط، لأن الرجل الذي يستطيع ذلك أصيب بالجنون.

صاح أحد الضيوف بحنق:

ـ بل أنتم عاجزون عن إقامة وليمة الزفاف يا أهالي الرباط، لن نبارح المكان حتى نعرف ما يجري.

انتفض الأهالي بحمية نافضين عن وجوههم هذه التهمة المخجلة، فصاح الكبير مرشد بضجر:

ـ اسكتوا جميعا، دعوني أتكلم، الوليمة داخل القدور، لكن الخط يعوق المرور، ونحن لأجل ذلك نشعر بالخجل الشديد.

ـ أنا أمحو هذا الخط يا بني، لا أريد أن أراك تعيساً حزيناً ملطخاً بالعار.

تمنى الكبير مرشد لمعلمه الهلاك قبل أن يفعل ذلك، ظل يحاكمه في أعماقه بحقد شديد، لا شأن لك أيها الشيخ البغيض، ها أنت اليوم تفصح عن مهاراتك، لا تحسب أني أعجز عن فتح هذا الخط اللعين، لقد صرت أحفظ كثيراً من التعاويذ التي بخلت بها عليّ، كذلك أملك ذخيرة الشيخ رعدان وكتبه السحرية الرهيبة وخاتمه، لن أستدعي خُدَّام الخاتم إلا في الوقت المناسب، ما هذا اليوم المشئوم! بالكاد تخلصت من ذلك الشيخ الخبيث حتى تظهر لي أنت! بعد ساعة مضنية من تلاوة التعاويذ الغريبة استطاع الضيوف أن يعبروا، كاد قلب الكبير مرشد أن يتمزق في أعماقه، امتلأ بالحقد والغضب على معلمه، لكنه كبح غضبه وتمكن من الابتسام، عانق معلمه ضاغطاً عليه بشدة حتى أطلق الشيخ أنيناً، فأرخى قبضتيه قليلاً، وهو يقول بتصنع:

ـ آه، بعد أعوام طويلة نلتقي.

ـ نعم يا بني، لقد هفت نفسي إلى زيارتك.

ـ أهلاً. أهلاً...

قالها بنبرات مضغوطة أقرب إلى الغضب، اكتظت باحة القرية بالضيوف، ونظر الأهالي إلى وجه الكبير مرشد، سرعان ما انفجر في وجوههم بصوت صاعق:

ـ دقوا طبول العُرس وجهزوا الوليمة واحضروا العريس.

تفرق الأهالي مذعنين، كل واحد منهم ذهب للعمل الذي هو مؤهل له.

8

دقت الطبول وارتفعت أصوات المزامير، وتنافس الراقصون على رقصة ياسمين الشهيرة، فاجأ الأهالي الضيوف بأنواع مسلية ومضحكة من الألعاب لتعويضهم عن لحظات المعاناة والانتظار خارج الخط السحري، دخل رجلان إلى ملعب الرقص يرتديان جلدي ثورين وقناعين عليهما قرون، إضافة إلى ذيلان مشرئبان، راحا يتناوشان كثورين هائجين ويتناطحان على وقع قرعات الطبول، ضحك الضيوف حتى دمعت عيونهم، وظهر المرح والامتنان على وجوههم، ثم أدى شيخان من الأهالي رقصة (الثَّعَيْلِية)[2]، وهما أبرع راقصين يجيدان هذه الرقصة في قاع الحقل، وربما في قضاء يريم كله، الدليل على ذلك أن الأهالي جلبوا العريس مستنداً على جسدي رجلين حتى جلس على مقعده في الباحة دون أن يشعر به أحد من الضيوف، كان هذا يعد نصراً للأهالي الذين حرصوا أن يظل كل شيء طبيعياً، فإخفاء العيوب في مثل هذه المناسبات أمر شائع ومستحب، لكن إلى متى سيظل هذا الأمر خافياً على الضيوف، سيلاحظون مرض العريس حين تنتهي الرقصات، إلى هذه اللحظة يفعل الله ما يشاء، هكذا فكر الأهالي وعيونهم ترصد كل شاردة وواردة في الباحة، ثم دخل الراقصون الديوك، وقفزوا وتبارزوا بالمناقير المصنوعة من لحاء

[2] رقصة تدور بين شخصين يمسك أحدهما بشيء ما بين أسنانه، ويطارده الآخر بحركات راقصة وينتزعه منه بواسطة الفم بخفة ثعلب ينتزع دجاجة من ثعلب آخر.

الصبار الجاف، توالى عدد آخر من الراقصين صالوا وجالوا في حلقة الرقص، لكن الملل من التسلية والمرح بدأ يتسلل إلى نفوس الضيوف، لاحظ الأهالي ذلك على وجوههم، غدوا ينظرون إلى هنا وهناك بضجر، ثم استووا يتأملون العريس، أخذوا يتسللون ويقتربون منه لكي يصافحوه، لكنه لن يستطيع الوقوف واستقبال التهاني دون مساعدة! أحس الكبير مرشد بدنو افتضاح سر مرض العريس، لكن فجأة صرخ المشاهدون بخوف واستغراب حين دخل حلبة الرقص شخصان عاريان، طفقا يقفزان قفزات مجنونة غير منتظمة على وقع قرعات الطبول، أحدهما امرأة لها ثديان متهدلان يرتفعان ويهبطان، والآخر يبدو رجلا طويلا كبير السن لا عضو له، واستغرب الأهالي في البداية أهما رجل وامرأة أم امرأتان! كان فرجاهما متشابهين غائصين وسط غابة كثة من الشعر، خصلات رأس الأنثى كثة مكومة على شكل شجرة دم الأخوين، لكن ملامح الرجولة ظهرت في وجه الشخص الطويل الأشيب الناحل الجسد ذي اللحية الملبدة القذرة، الجسدان عموماً مغطيان بطبقة من الأوساخ والزغب، لكن صاحبة الثديين كانت تتسم بقدر من الطراوة والأنوثة، لم يشك أحد بهذا في الباحة، وظلا يتحركان بجنون حتى نهرهما الأهالي المرتبكون ففرا من الباحة. ظن الضيوف إن هذه الرقصة ضمن مخطط الأهالي لإمتاعهم، فانفجروا من الضحك، ولاح الإعجاب ممتزجاً بالذهول في عيونهم، وسألوا عن اسم هذه الرقصة الغريبة، فأجاب الكبير مرشد مدارياً خجله ودهشته:

ـ إنها رقصة المجانين.

ما لبث الأخير أن همس في أذن ربيع البكر قائلاً بنزق:

ـ اقبضوا على هذين الراقصين، لا شك أنهما غريبان تسللا بعد فتح الخط السحري، حاذروا أن يشعر الضيوف بشيء مما يدور.

انطلق ربيع البكر وعدد من الرجال، وبحثوا في أرجاء القرية، ثم عادوا خائبين، همس ربيع في أذن الكبير مرشد وهو يلهث:

ـ لا أثر لهما في القرية.

ـ سيعودان لا ريب، راقبوا الطرق جيداً.

وسار الجميع إلى مجلس الوليمة، رأوا العريس جالساً في موضعه المخصص، لقد استفاد الأهالي من انشغال الضيوف بالراقصين العاريين، واستطاعوا تهريب العريس إلى هناك دون أن يشعر بذلك أحد، كان سرحان أثناء الأكل دائخاً يوشك أن يسقط على الأطباق، فاستأذن بالعودة إلى منزله، فامتدت الأيادي إليه لمساعدته على المرور بفعل الزحام، ولم يلحظ الضيوف شيئاً غريباً، كان يفكر بالرجل الراقص فاقد العضو والمرأة العارية، أحس أنه يعرف من يكونان، رغم ذلك لم يجرؤ أن يبوح بما يجول في نفسه، لأنه لم يكن واثقاً تماماً، أو بالأحرى، لا يريد أن يصدق ما يدور في ذهنه، عاد إلى المنزل الذي يحمل قدراً كبيراً من ذكرياته وتلك المرأة العارية، فهو الوحيد الذي يعرف تفاصيل جسدها من قبل، لماذا عادت في مثل هذا اليوم؟ كيف تلمست طريقها إلى هنا وهي معدمة العقل؟ قطع أفكاره حضور بناته الأربع، أتين راكضات وحففن به من كل جانب، كان الهلع يكسو وجوههن، اقتربت الفتاتان الصغيرتان سلوى وحليمة والتصقتا به، فطواهن بذراعيه وهو يقول:

ـ هاه، ماذا يجري؟

نظر إلى صفية منتظراً الجواب، لكنها ظلت صامتة تسترد أنفاسها اللاهثة فأضاف:

ـ أين شقيقك؟

ـ يلعب وامرأة عارية في الطبقة السفلية.

فز سرحان بفجيعة وصاح بأعلى صوته:

ـ دعي الولد وشأنه أيتها المجنونة.

سمع حركة أقدام قوية تصدر من الأسفل، بعد لحظات دخل سعد وهو يقول قافزاً بانتشاء:

ـ اكيه.. اون.. اكيه.. اون..

ـ هل عدمنا المشاكل حتى تظهر زكية والكبير عون في مثل هذا اليوم!

بعد وهلة تناهى إلى سمعه صوت امرأة تنادي الكبير مرشد صارخة بصوت عالٍ، عرف سريعا من صوتها المميز أنها فاطمة امرأة الكبير عون، ما لبث أن سمع صراخها على السلالم، أدرك أن ثمة شيء أفقدها عقلها، حين دخلت الحجرة لم تجد أمامها إلا العريس العاجز عن مساعدتها، رغم ذلك، مضت تشكو عثورها على رجل عارٍ داخل منزلها، وهي تريد أن تقابل الكبير مرشد ليقوم بواجبه في التحري عن هذا الرجل المتشرد المجنون، ومنعه من اقتحام المنازل وإخافة أهلها بجسده العاري البشع الخالي من.... استغفر الله، هكذا عبرت عن رأيها في ذلك المنظر الغريب الذي رأته في غرفة نومها بشيء من الحياء والتحفظ، جزمت أنه ليس رجلاً من الأهالي، ولا يمكن أن يكون من الضيوف المدعوين للعرس أيضاً، لم تعد شابة لعوب حتى يغزو الرجال غرفتها، ناهيك

أن هذا الرجل لا يحمل من صفات الرجال سوى الاسم، هل تفهم يا سرحان ما أقصد؟ اعذرني على مخاطبتك بدون لقب "عريس"، فالأمر أقسى مما تظن.. يا لها من مسكينة! لقد ظنته أحد بقايا شياطين الشيخ المعتوه رعدان، شيطان غاوٍ ظل طريقه وتقمص شكل رجل غير مكتمل التكوين، حكت ما جرى بالتفصيل.

دخلت غرفتها، رأته فجأة يقف فوق منامتها يتنشق أرديتها المعلقة على المشجب، رنا إليها بألفة وحب غير موارب، استغل جمودها ودهشتها، واقترب منها إلى مسافة لا يجرؤ شخص آخر أن يبلغها، أخذ يشمها كحيوان أليف، أو كعاشق غاب طويلاً عن عشيقته، ما لبث أن واجهها ونظر في عينيها مباشرة، لم يقل شيئاً، ولو نطق بأي كلمة كانت سترد عليه وتبادله الحديث بلا ريب، لأنه سيطر على أعماقها وأوقعها في حالة خدر واسترخاء عجيبين، لم يبد لها غريباً، لكن طول صمته ونظراته العميقة الفاحصة أيقظتها من خدرها، فارتعبت من عريه، وأغثتها أبخرة فمه ورائحة جسده الكريهة التي تبدو مثل رائحة حيوان بري نافق.

كان الشعر يكسو جسده كله، ويشبه الشيطان كما كان يصوره الإمام عثمان في بعض مواعظه، لم يؤذها البتة، لكن صمته الطويل ورائحته جعلاها تصرخ، صرخت.. صرخت.. صرخت... فأجفل وفر إلى السطح وصراخها يطارده، لحقت به إلى الأعلى يسبقها صوتها الزاعق المستنجد، ظنت أنه سيلقي نفسه على الأرض ويتهشم، يا للعجب! رأته بأم عينيها ينزل من الجدار كسحلية حتى وصل إلى الأرض بسلام، وهناك وقف على قدميه، وراح يعدو بسرعة تعجز عن بلوغها الكلاب والأرانب، ماذا أقول... أعياها الشرح، فجلست ممسكة رأسها بين يديها كأنها

تخشى أن يسقط، أقبل سعد منتشياً قافزاً حتى وقف عند رأسها ومضى يقول:

- اون.. اون..

- ماذا يقول ولدك يا سرحان؟

- إنه يهذي كالعادة.

صاحت في وجهه بسخط:

- سعد لا يهذي.

تردد قليلاً ثم أجاب بسخط:

- يقول إن الكبير عون في القرية، ألم تفهموا لغته بعد؟

فزت فاطمة مذعورة كأن شيئاً ما قرصها في أعماقها، راحت تذرع المكان جيئة وذهاباً باغتمام، قائلة باستبعاد:

- هذا محال، عون لا يملك تلك الخفة، لا يستطيع أن ينزل من الجدار كالحردون، ذلك الرجل شيطان، لا يجب أن نصمت، أين الكبير مرشد؟

هبطت بسرعة نحو الأسفل، وصوتها يتردد عمق المنزل، كان الكبير مرشد وعدداً من الأهالي يناقشون المشكلة في زاوية مواربة من الباحة، بدت تحركات الرجل والمرأة العاريين تثير مخاوف الجميع، أضحت الكلاب تنبح باستمرار، وكف الأطفال عن اللعب في شوارع القرية، فيما تشبث الصغار منهم بملابس أمهاتهم مذعورين، فأعاقوهن عن العمل.. أثناء ذلك، ظهرت فاطمة صارخة حتى تعلقت بثياب الكبير مرشد وهي تقول باكية:

- افعل شيئاً يا كبير مرشد، أنا امرأة وحيدة، ولم يعد لي أحد.

ـ ماذا جرى لك يا فاطمة أنتِ أيضاً؟

ـ شيء لا يصدق، لقد اقتحم رجل عارٍ غرفتي وتشممني ككلب أليف، لحسن الحظ أنه لا يملك عضواً، لا أدري ما كان يريد مني هذا الرجل! لم يعد لي أمان في منزلي بعد اليوم.

صعدت الحمية

إلى رأس الكبير مرشد، ونظر إلى الأهالي الحاضرين وصاح آمراً:

ـ تناوبوا على حراسة منزل فاطمة هذا المساء، اقبضوا على هذين الكائنين اللعينين، أريد أن أراهما مساء الغد مربوطين بالحبال.

مضت فاطمة نحو منزلها يرافقها ربيع البكر، وأضاف الكبير مرشد بنزق مفاجئ:

ـ حانت ساعة الزفاف الميمون، دقوا الطبول واجلبوا العروس، دعونا ننتهي من هذا الأمر لنقوم بمعالجة مشكلة الدخيلين.

تفرق البعض هنا وهناك بمثابرة ودأب، صعد البعض إلى الدار، وجلبوا سرحان ليستقبل عروسه عند باب المنزل، في حين انطلق معظم الأهالي وكذلك الضيوف الذين ألح عليهم كبير القرية أن يبقوا لاسيما معلمه، ووعدهم بحدوث مفاجأة مسلية أثناء الزفاف، لهذا السبب ظلوا يسيرون بحماس ويتلفتون هنا وهناك بفضول، انطلقت زغاريد النساء في الهواء على وقع أصوات الطبول، وأتى الموكب تحف به فتيات صغيرات يحملن شموعاً ومشاقر ريحان،

أخذوا يقتربون من باب المنزل، كانت خيرية المغنية تهزج للعروس بصوت عذب وهي تدق الدف بكفها الأيمن وتكرر:

يا عروس يا نجمة الدار العريس في الانتظار

يا عريس افرح والعب يا أمير أرض العرب

مضى سرحان يتابع موكب العروس، رأى روضة فوق بغلة الإقطاعي نجيم تتمايل كعروس السلطان، يتدلى على رأسها وشاح ملون، وهي خافضة رأسها بخفر فتاة بكر في الثامنة عشر من العمر، حين وقفت البغلة أمام منزل زكية، امتدت أيدي النساء، فمدت لهن كفاً بضاً منقوشاً بالحناء، سكتت المغنية في الحال احتراما للطقوس الأخرى، أسرع شعنون الحجَّام، وذبح كبشاً مبخراً، وطلب من العروس أن تدوس على الدم لكي تتقي شر نظرات الحسد الخبيثة، تقدمت العروس بجرأة صوب عريسها، فمد كفه ليتناول يدها، لكن الكبير مرشد أمسك يده طالبا منه أن ينتظر، فمازال هناك تقليد المسح على رأس العروس، ثم الدعاء بأن يكون دخولها طالع سعد على العريس، كان الماسح على رؤوس العرائس من قبل هو الفقيه مرشد، لكنه الآن صار كبير القرية، وقد كلّف الإمام عثمان ليقوم بالمسح والدعاء، تقدم الأخير يقوده ولده محمد وساعده أحد الأهالي موجهاً ذراعه بشكل صحيح حتى تمكن أن يضع راحته على جبين العروس، مضى يدعو ويدعو ويدعو، حتى أحس سرحان بالسأم، وتظاهر بالارتعاش، كان يسنده الرجال ويحفون حوله، كلفهم الكبير مرشد بمساعدته على الوقوف، لكنهم فجأة تخلوا عنه في تلك اللحظات الحرجة، كأن مهمتهم انتهت، أراد أن يسند جسده على جدار المنزل حتى ينتهي إمام المسجد من دعائه الطويل، لكن الأهالي عضوا على شفاههم هامسين له إن ذلك لا يليق مادامت العروس واقفة، كما لا يجوز أن يظهر ضعيفاً أمام

النساء والضيوف، وجد نفسه أمام امتحان قاسٍ لضبط الأعصاب، لكنه فشل في الاحتفاظ بهدوئه، وصرخ بضجر: "كفى يا عم عثمان، لقد أجاب الله دعاءك"

ختم الإمام دعاءه ب"آمين"، قالها بسخط، وردد الأهالي الآمين بخشوع لا يتناسب مع أجواء الفرح، ثم مضوا يقرؤون الفاتحة بتمهل، ظن سرحان أن كل شيء انتهى، ومد يده ليأخذ عروسه، لكن صوت خيرية المغنية تردد عالياً على إيقاع الدفوف:

احمل عروسك يا عريس احمل الدر النفيس

أنت قوي أنت سعيد وساعدك مثل الحديد

كرر الأهالي الأهزوجة ضاحكين راقصين ناظرين إليه بعشم، ماذا يريد هؤلاء المعتوهون؟ يا له من تقليد سخيف! يصير فيه محتوماً على العريس أن يحمل عروسه عندما تطلب منه المغنية ذلك، ومن العار ألا يفعل! لعل الغرض من هذا التقليد هو الحصول على بعض التسلية والمرح أو الشماتة أيضاً، لأجل هذا يخشى كل عريس أن يقع في هذا المأزق، والكثير منهم لا يقترنون بنساء سمينات يفقنهم في الوزن، كما إن كل فتاة في تلك المناطق غدت تحرص على أن يكون جسدها خفيف الوزن، وحتى إن بعض الفتيات اللاتي وجدن أنفسهن ممتلئات بفعل الوراثة صرن يأكلن وجبتين في اليوم، ولا يقربن اللحم والوجبات الدسمة، أما الأرامل اللواتي فقدن الأمل في الزواج فكن يتركن أجسادهن تنمو دون رقيب، لعل روضة ممن تركن أجسادهن وشأنها، بيد أن طولها جعل ذلك الامتلاء يبدو اكتنازا محببا، لكن رغم ذلك لا يبدو أن هناك عريس يتمنى أن يحملها، كانت مريمة تقهقه وتصفق بجذل، في حين بدا الكبير مرشد متبسماً بتشفٍ يراقب العريس متظاهرا بالشفقة، لكنه في الواقع يتمنى أن يسقط العريس على السلالم تحت

ثقل عروسه المتخمة، لا شيء سيجنيه المتفرجون سوى التسلية والضحك، وأما الضيوف فلا يعنيهم العار الذي سيصيب العريس، بل يريدون المفاجأة التي وعدوا برؤيتها، سوف يضحكون بكل طاقتهم، أما سرحان فقد حاول أن ينجو من فخ هذا التقليد الممتع دون جدوى، حدّث نفسه بحيرة: "هذا الرجل الماكر يود الإيقاع بي في فخ العجز، لا يدرك أنني أكثر مكرا منه، لن أدعه يسخر مني، لأني ببساطة قضيت معظم عمري في تنمية عضلاتي بتحريك قطب المطحن وحمل أكياس الحبوب".

نظر إلى روضة بعينين فاحصتين ليقيس حجمها والطريقة التي بوسعه حملها، كانت ممتلئة وطويلة، ويتعذر احتضانها بالذراعين، وليس هناك سوى طريقة واحدة، تقدم سرحان منها بلا تردد، وأدار جسدها بشكل سريع، ثم رفع ثيابها إلى جذعها وسط دهشة النساء والرجال الذين خشوا أن يفعل شيئا فاضحا أمام عيونهم، لكنه أدخل رأسه بين ساقيها، ورفعها بقوة جعلتها تطلق صرخة خوف مكتومة، أضحت مؤخرتها الثقيلة رابضة فوق كتفيه القويين، وساقاها متدليين أمامه، صعد على مهل متشبثا بفخذيها، وهي تضحك بدلال طفلة، سار صاعدا السلالم بخطوات متزنة هادئة، لا يلوح عليه أي إرهاق أو مرض، صعق الأهالي ونظروا إلى الكبير مرشد الذي تلبد وجهه بالسواد وشرع يقول بنبرات حادة بعد أن أفاق من ذهوله:

ـ انظروا، إنه بخير! لقد استغفلنا وادعى المرض لكي يعيق الزفاف.

كانت الفتيات الصغيرات حاملات الشموع أمام سرحان وعروسه، والمغنية تترنم خلف العروسين بحماس، أحس الضيوف أن الكبير مرشد كذب عليهم ليستبقيهم، ليس هناك أي مفاجأة كما وعد، فقد

أوشك الزفاف على الانتهاء، والعريس صعد حاملاً عروسه نحو غرفته، لم يعد هناك سوى بضع درجات على السلالم حتى يصل العروسان إلى الغرفة، انسحبوا غاضبين متضايقين، لم يعد هناك سوى القليل من الأهالي ينتظرون دخول العروسين إلى غرفتهما ليغادروا هم أيضاً، فقد كانوا مرهقين ساخطين، كان الكبير مرشد أكثر غضباً من الجميع، مازال هو الآخر منتظراً انتهاء الزفاف، ها هما العروسان يصعدان على الدرجات الأخيرة، ويوشكان على الوصول، كانت الفتيات يقفن في صفين متوازيين على أرضية الطابق الثالث الذي غمره ضوء أصفر بهيج، تركن ممرا واسعا للعروسين ينتهي بغرفتهما المزينة، في تلك الأثناء، خرجت امرأة عارية من غرفة جانبية مسرعة نحو قمة السلالم، اندفعت فجأة نحو العروسين اللذين ظهرا متحدين على شكل برج سعيد، ودفعتهما إلى الوراء بقوة، وهربت صاعدة إلى السطح عبر السلالم، صرخت الفتيات الصغيرات وأسقطن صحون الشموع، وتسارعت الأقدام وسط ظلمة حالكة في فرار جماعي نحو الأسفل، داست الأقدام جسدي العروسين المتدحرجين، وخدشت النعال المصنوعة من العَرَصْ وجه العروس، وعوى العريس بألم إثر قدم وقعت أسفل بطنه وصل تأثيرها المؤلم إلى خصيتيه، رجع الرجال حين سمعوا الصراخ والجلبة، وصعدوا وسط العتمة وداسوهما أيضاً، تأذيا من الدهس أكثر من أذى السقوط، لم ينقذهما من الأقدام الصاعدة والهابطة إلا ناصر حنشات الذي جاء أخيراً من منزله بسراج مشتعل، رآهما ممددين عند منتصف السلالم بحال يرثى لها، فصاح بصوته المرتعش:

ـ وا مصيبتاه، العروسان مصابان.

هرع الرجال وحملوهما إلى غرفتهما المزينة بطنافس العرس ومشاقر الريحان والكاذي، صرخ أحد الأهالي من عتبة الدار:

ـ استدعوا الطبيب.

كان الكبير مرشد والأهالي قادمين بعد أن يئسوا من الإمساك بالمرأة العارية السريعة التي هبطت كسحلية على جدار الدار، وفرّت كأرنب بين جموع الأهالي، حين سمع الكبير مرشد النداء، صاح بعصبية:

ـ الطبيب يا رجال.

لم ينفذ أحد من الأهالي أمره، لأن لا طبيب في القرية سواه كما يظنون، لكنه الآن صار كبيراً، ولم يعد بوسعه أن يمارس المداواة، لم يفطن أحد إلى معلمه الفقيه عايض، كيف نسوا ذلك؟ لم ينتبهوا حتى رأوه قادما بسرعة حاملاً مخلاته، كان في مكان ما مهملاً على الأرجح، إذ انشغل الأهالي عنه بالزفاف، لكنه على ما يبدو سمع النداء والصراخ، فجاء من دون استدعاء يحدوه واجبه كطبيب..

مضى الفقيه مرشد يخاطب مرافقيه إن ما حدث هو جزاء عادل للعريس المخادع، لقد فعلت تلك العاهرة الصواب، رغم ذلك ينبغي القبض عليها ورفيقها بأي حال، فلا يُستبعد أن تدفع رجلاً آخر أو تطعنه بسكين، يتحتم أن يعرفوا من أي أرض جاء هذان المتطفلان؟ وأي أمة في الأرض مازالت تعيش عارية كالحيوانات؟ هل سمعتم بشيء غريب كهذا؟

هتف ربيع البكر قائلاً:

ـ سمعنا هذا في رواية سرحان يوم جاء من رحلته الماضية، ألا تذكرون؟

ـ لم أعد أذكر شيئاً، سرحان مخادع كبير، بوسعه أن يزيف الأشياء كما يحلو له.

قال حمود الذيب بحسرة:

ـ هجرت عملي في الطاحونة لكي أسنده.

ـ أخذت نصيبك من الخداع يا حمود، بعد قليل سترونه يئن من الألم، وينظر إليكم بذل وخضوع حتى ترق قلوبكم.

رد حمود بغضب:

ـ أتظننا مغفلين حتى نسامحه؟

صعدوا إلى الأعلى وعيونهم تقدح شرراً وقلوبهم متحجرة كالصخور، كان الفقيه عايض يضمد ذراع روضة المكسور، ثم أخذ يعالج قدمها الشمال الملتوية، كما ربط رأسها المجروح، رغم ذلك لم تبارح السعادة محياها، كانت ترنو إلى وجه طبيبها مبتسمة بخجل، وتقلب عينيها في وجوه الأهالي بصمت، وحينا ترد بصرها إلى سرحان المدد جوارها وهو في حال من الإعياء والتذمر، حين فحصه الطبيب من الخارج، لم يجد في جسده خدشاً واحداً، لكنه ظل يشكو من آلام شديدة أسفل بطنه، صاح بتوجع حين لمس الفقيه عايض تلك المنطقة، ووقعت عيناه على وجوه الأهالي عفو المصادفة، كانوا متجهمين شامتين، لم يجد في عيونهم ذرة تعاطف أو رحمة، فأصابه العجب، راح يفكر بعمق، ماذا جنيت؟ فطن إلى خداعه وتمارضه، ألهذا السبب هم غاضبون؟ ها هو مريض الآن، لا جدال في ذلك ولا خداع، لِمَ لا يشفقون عليه أو يدعونه وشأنه

على الأقل؟ ما الفرق بين الشخص اللئيم والمخادع؟ سأل نفسه بغيظ.

صار الجو خانقاً بسبب الزحام، كان الكثير من الرجال يقفون فوق رأسي العروسين الجريحين، لا هدف لهم سوى التحديق والوجوم، في لحظة خاطفة قرر الطبيب أن يفحص جسد مريضه من الداخل، لأجل ذلك وجد نفسه مضطراً لتنبيه الحاضرين إلى ضرورة المغادرة، أشار إلى الكبير مرشد إشارة يعرفها الأطباء وحدهم، والأخير طلب من الأهالي الانصراف وغادر معهم، وهكذا تسنى للفقيه عايض أن يرفع إزار مريضه ويخلع سرواله الداخلي دون خجل، صرفت روضة بصرها بحركة تمثيلية بارعة عن عضو سرحان المكشوف، لاحظ الطبيب ذلك، وقال باهتمام:

ـ اطمئني يا ابنتي، لن يطول وجعه أكثر من يومين.

صمتت روضة كما يليق بعروس ريفية، كان في عينيها جواب حاضر قرأه سرحان وحده: "ماذا سنفعل الليلة إذاً؟" بعث إليها رسالة غاضبة من عينيه: "سوف نتشاجر" كان غاضباً منها، لأنها ساقته نحو هذه المواقف المخجلة، إنها كريمة وودودة، لكنها لجوج وثرثارة، تغلبه بإصرارها وتدفعه نحو القرارات الخاطئة، ما إن غابت قدما الفقيه عايض خلف عتبة الباب، حتى نظر إليها متجهماً وقال:

ـ أرأيت عاقبة إلحاحك؟

ردت بدلال محض:

ـ ويلك يا سرحان، لا تقسو على عروسك ليلة دخلتها.

ـ وهل تنتظرين مني الشكر؟ نعم، إنها ليلة فريدة داستنا فيها أقدام الرجال والنساء، رغم ذلك، مازال الأهالي واجمين كأنما لم يطب لهم أن يرونا على قيد الحياة.

ـ انظر إلي، أنا أكثر ضرراً منك، لقد فقدت جنيني، ومع ذلك لا أتبرم مثلك، حتى الطبيب لا يعرف ذلك.

ـ هذا ما يحيرني من أمرك، لا تبالين بأي شيء، لا أدري من أي معدن صنعتِ، ألست من لحم ودم؟

ـ أرجوك، انس ما حدث، لا تدع هذه الليلة البهيجة تذهب هباء، اقترب من عروسك، لنتعانق وحسب.

ـ أنت مجنونة، لا ريب في ذلك! هاأنذا أراك متجمدة مشلولة مثل فزاعة العصافير.

ـ لا عليك، عانقني برفق.

ـ لا أستطيع الحركة، اقتربي إن استطعتِ.

ـ سأحاول و...

زحفت حثيثاً حتى وضعت رأسها على صدره، إذ ذاك سمعا صوت ارتطام على سطح الغرفة، ثم تناهى إليهما صوت قدمين تسيران، نحى سرحان عروسه ونهض بجهد بالغ، سار منكمشاً مباعداً ساقيه حتى أوصد باب الغرفة بالمزلاج، كان قلبه يدق بشدة وعضلات وجهه مشدودة، وجميع حواسه مصوبة ناحية الباب الموصد، همست روضة باهتمام:

ـ من تظنه يمشي على السطح؟

ـ أششش، أظنها المرأة العارية.

ـ ماذا تريد منا هذه المرأة؟

ـ أششش..

سمع القدمين تقتربان من الباب، ثم ساد الصمت، كما لو كان هناك من يتنصت على ما يجري في الداخل، اهتز الباب بشدة، لم يحتمل سرحان، فصرخ بملء الصوت:

ـ ماذا تريدين أيتها المجنونة؟ ابتعدي عني، أنا متعب، لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً.

ابتعدت الأقدام بسرعة، لكنها صعدت ودقت السطح بقوة، ما ينم على أنها مهتاجة ومتحدية، سمع سرحان ضحكات الرجال خارج الدار، فغضب من أولئك الأغبياء، لا شك أنهم يظنون أنه يخاطب عروسه، لا يعلمون ما يدور، هبطت الأقدام إلى الطبقة الثانية، خشي سرحان على بناته، وسمع بعد ذلك صوت سعد وهو يقول:

ـ أكية.. أكية..

قال سرحان بقلق:

ـ أخشى أن تؤذي ولدي وبناتي، إنها غاضبة الآن.

ظل متوتراً مشدوهاً، وهمست روضة بارتياب:

ـ تتكلم عن هذه المرأة كأنك تعرفها من قبل.

ـ إنها صاحبة هذا الدار.

ـ زكية؟ هذا مُحال! إن هذه المرأة تبدو قبيحة جدا.

ـ ألا تفكرين قليلا! لقد هاجمتنا دون غيرنا من الناس، أظنها تدرك ما يجري رغم أنها تتصرف كالحيوان.

ظلت الأقدام تصعد وتهبط بسرعة، بين فينة وأخرى يتحرك الباب بقوة، ثم يسمعان أقدامها تسير على السطح، كأن هناك أكثر من امرأة عارية، رغم ذلك مازال الرجال في الخارج يتحدثون ويضحكون بلا مبالاة، حتى نفد صبر سرحان، فسار بحذر وفتح خطاف النافذة، وأخرج رأسه، وصاح عليهم:

ـ المرأة العارية في الدار أيها الحمقى، هيه أنتم، إنها هنا في...

توقف حين وقع حجر على رأسه فصرخ ألماً وسقط في قاع الغرفة، سالت الدماء على عارضه الأيسر، وصرخت روضة بفجيعة، هذا ما استطاعت أن تفعل، بعد قليل سُمِعت أقدام الرجال تدق سلالم الدار، مضوا يفتشون الغرف والسطوح، ثم قرعوا الباب، زحف سرحان وفتح المزلاج، فصرخوا في طلب الطبيب، عاد الفقيه عايض وضمد الجرح، وسقاه دواءً مخدراً لينام، وعاد الرجال إلى قرب المنزل للتشاور، ولكن بحذر أكبر وإجراءات أشد.

9

أخرج الكبير مرشد بنادق عاطف التي عثر عليها سابقاً في موضع ما داخل الدار، رأى أن الوقت المناسب لاستخدامها قد حان، فرّقها على بعض الرجال المختارين، وأرسلهم إلى سطوح بعض المنازل للمراقبة، أحدهم على سطح منزل زكية، وآخر يحرس منزل فاطمة، وثلاث بنادق في حوزة الرجال المرافقين له، أما أصحاب البنادق الخمس الأخرى فتفرقوا لحراسة مداخل وطرقات القرية، كانوا في معظم ساعات النهار يتشاورون حول الطريقة المناسبة للامساك بالكائنين العاريين، البنادق تستطيع أن تفتك بهما، لكن ليس هناك ما هو أجمل من القبض عليهما أحياء، وإذلالهما بالقيود، ينبغي أن يراهما الأطفال الخائفون والنساء الوجلات، يتحتم أن يسمع الأهالي كلامهما عن الشعب العاري الذي ينتميان إليه، والبرية النائية التي عاشا فيها.

في هذه الليلة، اجتمع الرجال خلسة لإنشاء خطة بديلة لأن الخطط السابقة أخفقت، سرعان ما اتفقوا على الخطة المنشودة، ورأى الفقيه مرشد أن يعطيهم خطابا مؤثرا ليشجعهم على التصدي للكائنين الدخيلين، حذَّرهم من الخوف وفتور الهمم، وأتحفهم بعِبَر ومعلومات تاريخية ركدت في رأسه، قرأها أو سمعها عن الأبطال القدامى الجسورين والفاتحين الشجعان وصحابة النبي، تحدث عن شخصيات مسجوعة غريبة، ياجوج وماجوج، طالوت وجالوت، هابيل وقابيل، وهاروت وماروت، معظم هؤلاء وردت أسمائهم في الكتب المقدسة بسبب شجاعتهم أو خبثهم، ثم ذهب بهم إلى

الأساطير الشعبية فروى قصة الرجل العملاق عاج بن عُنُق الذي كان يشوي الحيتان الضخمة على قرص الشمس الملتهب، أو يبول على القرى المتمردة حتى يغرق أهلها، أخبرهم عن الفيضان المدمر الذي ضرب الأرض في عهد النبي نوح، وعن الناس الذين ركبوا السفينة، ونجوا من الغرق، وعن أولئك الملوك الجبابرة الذين بسطوا هيمنتهم على البر والبحر حتى استطاعوا أن يقهروا ويتفوقوا على جميع الكائنات الحية الظاهرة والخفية، حدثهم عن الأشخاص الذين عاشوا وسط البراري مع الحيوانات المفترسة، والسحرة الذين نازلوا الشياطين والعفاريت، والموتى الذين انبعثوا من المقابر أحياء قبل الأوان..

كان الرجال مستمتعين وخائفين في الوقت عينه، ذلك أنهم يؤمنون بوجود كثير من الأرواح الخفية الغامضة في القرية، ولا يحبذون الحديث عنها في الظلام، يظنون أنها تنتشر في كل الأماكن والباحات، لكنهم تعهدوا للكبير مرشد بمقاطعة الخوف والتحلي بالعزيمة والثبات، أقسموا أن يكونوا كالأبطال الشجعان الذين تحدث عنهم، صاروا يرفعون قبضاتهم في الهواء بحماس مؤكدين على شدة بأسهم وشجاعتهم، في تلك اللحظة أقبلت قطة سوداء صغيرة مهرولة خلف فراشة، وانسلت خلسة بين أقدامهم، لكنهم لم يأبهوا بمرورها أو بالأحرى لم يشعروا، حتى وقع ذيلها في ساق ناصر حنشات الذي أجفل هاربا مطلقا صوته المرعوش متطلعا إلى الأرض، فصرخوا بفزع، وفروا في جميع الاتجاهات خائفين من شيء لم يعرفوا ماهيته بعد، عندما اكتشفوا أنها قطة انفجروا ضاحكين، لكن الكبير مرشد رأى أن حديثه وقصصه ذهبت سدى، لقد جفت شفتاه ونشف ريقه وتصدع رأسه لفرط تركيزه واهتمامه، ثم في نهاية المطاف يفرون من حيوان صغير أليف، وبالرغم أنه هرب مع الهاربين من أول وهلة، لكنه سرعان ما استعاد ثباته

وشجاعته، وأوحى إليهم أن الهزل في مثل هذه المواقف لا يليق بالرجال، وأخذ يصيح بصوت محتد مشيراً إلى رأس سبابته للتصغير والاستهانة:

ـ قطة، قطة صغيرة ترعبكم أيها الجبناء! كيف لو جاء كلب يجري وراء هذه القطة، حتماً لن تقوم لكم قائمة، إن ما حدث يقودنا إلى أن الاستهانة بالعدو مهما كان حجمه هو أقصر الطرق التي تؤدي إلى الهزيمة، هذا ليس قولي، بل هو قول حكيم الزمان.

بعث قول "حكيم الزمان" القشعريرة في أبدانهم، مازالت أقواله وأمثاله السائرة متداولة مخزونة في أذهان الجدات وكبار السن، رضعوها منذ الصغر عن أسلافهم كحليب الأمهات، لا يعنيهم اسم هذا الحكيم، فهو لا يقول الهراء، ولا يجرؤ أحد أن يشك في قوله، لهذا السبب قرروا ألا يستخفوا بالذباب أو البراغيث باعتبارها عدو يكدر راحتهم في فصل الصيف، في النهاية ساروا إلى منازلهم ليأخذوا قسطاً من الراحة قبل المعركة القادمة.

أفاقوا عند الفجر، وانقسموا إلى عشر مجموعات، في كل مجموعة خمسة رجال متفاوتي الأعمار، لهم قائد يحمل بندقية، والبقية مسلحون بالفؤوس والخناجر، ما لبثوا أن انتشروا في مداخل القرية ومخارجها، شارك اليهود بقيادة الشاب المتحمس مائير، رأى الأخير الرجل العاري، فأطلق على إثره بعض الطلقات النارية، وطاردوه ملياً، حتى استتر عنهم بين أحراش الهضبة، فوجئت فاطمة بنت روضة حين رأت أمامها ذلك الرجل العاري المشعر كالقرد، صرخت بخوف، ثم توقفت حين أدركت إن صراخها بلا معنى، فالهضبة كبيرة وبعيدة عن القرية، وهي وحدها والقطيع، لكن ذلك الرجل العاري سلك الاتجاه الآخر مبتعداً عنها منكمشاً كشخص ذي أدب جم صادف امرأة عارية في طريقه، سُمِع في

ذلك النهار دوي الطلقات في أجزاء متفرقة من القرية، أفلت الهدف الآخر منهم أيضاً، وعاد الرجال عند الغروب خائرين ومنكسرين، وراح الكبير مرشد يحصي عدد الرصاصات التي أطلقت بلا جدوى، وغضب بشدة، لأن أقل مجموعة أهدرت خمس رصاصات على هدفين وحيدين، وادعت كل مجموعة أنها رأت الرجل العاري ورفيقته، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إن كان هناك عدد كبير من تلك الكائنات العارية، ساوره الظن أن كل مجموعة راق لها إطلاق النار في الفراغ، كل فرد طلب السماح له أن يجرب إطلاق النار، لهذا السبب أمسى الكبير مرشد في كرب شديد، هذا يعني أن ذخيرة الرصاص المتوفرة لديه ستنفد بعد ثلاثة أيام، ما دفعه أن يجمعهم أمامه، ويوبخهم على ما فعلوا، بل وصوب البندقية إلى وجوههم، محذراً من إهدار الرصاص على أهداف عشوائية، فالأشجار والأحجار لا تؤذيهم ولا تقتحم منازلهم، وليسوا بصدد التدريب على مهارة الرماية، بل إنهم في خضم معركة حقيقية، إن لم يحترسوا ليس بعيداً أن ينتزع الخصمان البنادق من أيديهم، ويصطاداهم واحداً تلو الآخر كما يلتقط الديك الحبوب، قضوا ليلة سيئة أحسوا فيها بالخزي لإخفاقهم.

في اليوم التالي أخفقوا في إصابة أي من الهدفين، عادوا أيضاً بفشل مرير وشعور ساحق بالمهانة، وصار ناصر حنشات يسأل عن طرق الانتحار الممكنة، ليختار أسهل وأسرع سبيل يقوده إلى الموت، لكنه وجد أن كل الطرق مؤلمة، سيخلف وراءه أطفالاً وامرأة بلا عائل، وسينتهي به المطاف إلى نار جهنم كما حذره إمام المسجد عثمان، في صبيحة اليوم الثالث، جلسوا يتدارسون الموقف برمته، باحثين في خطط بديلة، اقترح بعض كبار السن أن ينصبوا للكائنين مصائد حجرية كمصائد الضباع، غير أن هذه الفكرة لاقت استهجاناً وسخرية من معظم الرجال، لأنهم يتعاملون مع كائنين

بشريين بوسعهما ـ على خلاف الضباع ـ تحرير أنفسهما بواسطة اليدين.

أوصى أحد الأهالي بوضع حفر مموهة على مداخل القرية، سرعان ما قوبل هذا الرأي أيضا بالاعتراض، لأن ضحيتها الأولى ستكون الأطفال والمواشي، فكروا في الكمائن والفخاخ المتنوعة، لكنهم لم يستقروا على شيء منها، فجأة طلع عليهم سرحان صحيحاً معافى، كأنما لم يحصل له شيء على السلالم، أشاحوا رؤوسهم بعيداً، وقال الكبير مرشد هذا المثل الذي ينم عن الضيق:

ـ آخر الليل تأتي الدواهي.

كان دواء الفقيه عايض قد أغرقه في السبات مدة يومين كاملين، في هذا اليوم، أفاق ليجد إلى جواره عروسه روضة، مازالت على حالها الأولى كفزاعة العصافير، لكن لسانها مازال يتحرك في رأسها مثل لسان الأفعى، سرعان ما سألته متبسمة عن حال عضوه الجريح، غضب، لأنها في حال لا تحسد عليه، ولا يتحتم أن تستفزه بهذا السؤال، في صبيحة اليوم الثالث، أحس نفسه خفيفاً وجائعاً، قام يبحث عن شيء يأكله، في تلك اللحظات، دخلت فاطمة لتلقي على أمها نظرة قبل أن تغادر إلى الهضبة وقطيعها، سمعت نصيحة أمها المألوفة بالحذر وعدم الابتعاد عن القرية، فأفصحت إنها لا تخاف من الكائنين العاريين، لأنهما لا يؤذيان أحداً، لكن الأهالي لاسيما الكبير مرشد مصرون على مطاردتهما في كل مكان، ذكرت لسرحان ما جرى لها مع الرجل العاري أثناء غيبوبته، فاغتاظ وهو يسمع الفتاة المراهقة تمتدح المرأة العارية، قال لها وهو يلوك الطعام:

ـ انظري إلى أمك، ما جرى لها بفعل المرأة العارية.

ردت فاطمة بحدة وهي تستعد للانصراف:

ـ لا أظنها تفعل ذلك دون سبب، انظرا في ماضيكما، لعلكما أسأتما إليها في يوم ما، إلى اللقاء.

أخرس سرحان، وخرج على الفور مدارياً خجله عن الفتاة الفطنة، بدا مرتبكاً لا يدري كيف يتصرف، أصبح يخشى المرأة العارية ويشفق عليها، يتمنى موتها وشفائها، إنها امرأته السابقة لا شك في ذلك، لكن ماذا تريد منه؟ لماذا تطارده؟ هل تدرك إنه يعيش بلا خجل في منزلها مع امرأة أخرى؟ هل تعرف معنى ضِرة؟ هل هناك أمل في شفائها من الجنون؟ وقف أمام الرجال ليدلي بدلوه حول هذا الموضوع، لم يحبطه ما رآه من إعراضهم وجفائهم، بل قال في ثقة عمياء:

ـ لدي خطة مجنونة، وهي أن نسير عراة في الشارع، وعندما يركنون إلينا نقبض عليهم بيسر.

فتحوا أفواههم بدهشة واستنكار، وأخذ الكبير مرشد نفسه وغادر وهو يقول بتذمر:

ـ لقد أهملت معلمي بلا جدوى، لا شأن لي بما يحدث في القرية، من أراد أن يتبعني فليفعل، ومن أراد أن يتعرى مع سرحان، فهذا شأنه.

10

وجد معلمه يداوي بعض المرضى، رأى أنه بات يصنع لنفسه مكانة في القرية، كان يريده أن يغادر بأي حال من الأحوال، لكنه لا يملك الجرأة لإخطاره بذلك، حين فرغ الفقيه عايض من عمله، مال إلى تلميذه القديم الذي يجلس بخيلاء كالطاووس، وقال يخاطبه بلا كلفة:

ـ قريتك يا مرشد تعج بالمرضى والمشاكل.

أجاب الكبير مرشد بمكر:

ـ هذا صحيح، إنها قرية رهيبة لا تشجع على العيش.

ـ أظنني البارحة سمعت أصوات طلقات نارية وصراخاً كأن حرباً تدور في الخارج.

ـ ألم يخبرك المرضى بعد؟

ـ كلا، لقد بدوا متحفظين، أظنهم طلبوا مني أن أسألك، ثم خطر في ذهني أنني دخيل ولا شأن لي بما يجري.

حملق الكبير مرشد بعينيه وهمس بصوت ذي صدى مخيف:

ـ لست دخيلا يا معلمي، لكني حقا طلبت من الأهالي أن يكتموا الأمر، حتى لا يتفشى الخبر إلى القرى الأخرى..

وسكت زافرا بغيظ وتابع:

ـ الحقيقة، هناك دخيلان عاريان مجنونان يقتحمان منازل الأهالي، ويتصرفان كالحيوانات البرية، يأكلان أوراق الشجر، ويتسلقان الجدران ويسيران بسرعة عالية حتى أننا عجزنا عن القبض عليهما أو إصابتهما بالبنادق.

اتسعت عينا الفقيه عايض بدهشة، أطرق متفكرا، ثم رفع رأسه قائلا باهتمام:

ـ أظنني قبل مدة طويلة جدا، حين كنت يافعا، سمعت معلمي يتحدث عن طريقة يعود فيها الناس إلى رحم الطبيعة، يأكلون أوراق الشجر، ويعيشون في العراء..

وتابع بصوت طافح بالرضا:

ـ بدا كلامه غريبا يشبه ما كنا نسمعه في حكايات جداتنا العجائز، رغم ذلك لم يسعني إلا أن أؤمن بكل كلمة من كلماته، لأنه كان معلما ذائع الصيت وساحرا لا نظير له في الأرض.

ـ أف، ها أنت ذا يا معلمي شيخ كبير، ولا شك أن معلمك ميت الآن، هذا أمر واضح...

ـ أتحسبني لا أسأل عن معلمي، لقد زرته كثيرا، ثم سمعت أن الجنود اختطفوه، وقادوه إلى السجن في صنعاء، ثم لم يبلغني خبر موته بعد، لكني مع ذلك لا أظن أنه حي، أظن أن بوسع السجانين إخفاء موت أي شخص مهما كان شهيرا.

وشرد بضع لحظات، وأضاف باهتمام:

ـ أه، تذكرت شيئاً، هل بوسعي أن أرى الشيخ المعتوه الذي صنع ذلك الخط السحري حول القرية؟

ـ إنه شيخ سقيم يا معلمي وفي حال مزرٍ، لم نعد نراه إلا لماماً.

ـ لا يهم، أود أن أراه بأي حال...

ـ لا أدري هل مازال حياً أم نفق كحيوان عجوز، على كل حال، لا أحد يفكر في رؤيته، لقد صار طاعناً في السن، وفي حال ميؤوس منه.

ـ لا ترفض طلب معلمك يا مرشد. قالها الفقيه عايض بحزم.

ـ لا بأس، نظرة واحدة من بعيد، فهذا الشيخ المشئوم نتن الرائحة، أخشى أن يفقدك النظر إليه شهيتك للطعام الذي سيقام اليوم على شرف قدومك الميمون، أخيراً هاأنذا أتفرغ لك.

ثم خاطب الأهالي بصوت حاسم:

ـ هذا ما يجب أن يكون، أعدوا الوليمة، اذبحوا كبشاً على نفقتي، وادعوا جميع الأهالي إليها ماعدا سرحان الطحان.

هلل الأهالي، وانصرفوا مستبشرين وفرحين بأي شيء ينسيهم مرارة الإخفاق الذي أصابهم في اليومين السابقين، إثر ذلك خرج ومعلمه ليقوما بجولة في القرية، أخذا يتتبعان آثار الرجل العجوز، ويسألان عنه النساء والأطفال، قادتهما الأجوبة نحو بئر الماء على مشارف القرية، هناك ظهرت نسوة يغسلن الملابس، والبعض يملأن القِرَب المطاطية الطويلة ليحملنها على ظهور الحمير المنتظرة عند الرابية الصغيرة المجاورة، كانت البلابل والشحارير والقُبَّرات وأنواع أخرى من الطيور تحلق فوق الأشجار المحيطة بالبئر، سلكا طريقا محفوفا بالشجيرات والنباتات البرية التي تتغذى مما يفيض من المياه أو يهدره الواردون، هناك رأوا حيّة رقطاء قصيرة وثخينة تزحف ببطء قرب شجيرة صفراء الأوراق، بدا أنها مثقلة بشيء ما ابتلعته للتو، لاحت منتفخة أكثر تحت الرأس، انحنى الكبير مرشد وأخذ حجراً، وأوشك أن يهشم رأسها الأرقط ذي

العينين الصغيرتين المدورتين، لكن إشارة واحدة من معلمه ونظرة تحذيرية جعلته يرمي الحجر من يده بخجل، أثناء ذلك، تذكر دروس معلمه ذي الأم الهندية التي كانت تقدس الزواحف، كان يردد أن معظم الممالك القديمة المشهورة عاشت مع الزواحف والكائنات الأخرى الأليفة أو المتوحشة، جاعلة منها رموزاً دينية نقشت على جدران معابدها، مازالت هناك تماثيل مقدسة للحيوانات منحوتة في كثير من بقاع الأرض، أما الأمم ذات الديانات التوحيدية كاليهودية والمسيحية والإسلامية فلا تعبأ بأي شيء آخر عدا إلهها الوحيد الغامض المالك لكل شيء.

مرة أخرى، التقط الكبير مرشد حجراً كأنما عز عليه أن يترك تلك الحية الرقطاء تنجو، فقد اعتاد الرجال قتلها، وإشهار جثتها للتفاخر بشجاعتهم، أصبح هذا العمل مظهراً عاماً للفت أنظار النساء وإبهار الأطفال، تمنى بحرارة أن يغفل معلمه ويلهو بشيء ما، لكنه لسوء الحظ يقظ ونبيه، يلازمه خطوة خطوة، حتى شعر أنه يراقبه ويكبت حريته، لماذا يحترمه؟ لِمَ جُبِل المعلمون بهيبة الآباء؟! سأل الكبير مرشد نفسه بضجر متخليا عن الحجر، في تلك اللحظة، سمع معلمه يقول بانشراح:

ـ أحسنت يا مرشد، طالما كنت متعلماً نبيلاً، لا شك أن هذه الهضبة تغص بالأفاعي، وعندما يطاردها الناس في العراء ستنتشر حتى تتغلغل وسط أساسات منازلهم.

هز رأسه بلا اهتمام، مال نحو البئر وسأل عن الرجل العجوز، فأشارت النساء الواردات باتجاه الرابية ومحيطها حيث الصخور والتجاويف والأشجار غير المثمرة المتناثرة، تسلقا الرابية الصغيرة وفحصا المكان بنظرات ثاقبة، فجأة شاهدا الرجل العاري والمرأة العارية جاثمين بأمان على صخرتين متقابلتين، اقتربا منهما بحذر،

حتى لم يعد يفصل بينهم سوى أمتار قلائل، مع ذلك لم يفرا من القادمين، لكن حواسهما بدت متيقظة، واتخذا وضعية الفرار، أحس الكبير مرشد بحسرة شديدة، وعض شفته السفلى قائلاً بحنق:

ـ آه، كان يجب أن نأخذ البندقية يا معلمي، انظر، ها هما الكائنان البغيضان أمامنا، كما ترى، بوسعي أن أصيبهما بواسطة حجر.

رد الفقيه عايض بانشداه:

ـ هذا لا يليق بك يا مرشد، الطبيب الماهر يضع الدواء على الجروح، ولا يتمنى أن يصنع الآلام، كما ترى، إنهما بشريان، أحسبني رأيتهما يرقصان في عرس سرحان.

ـ نعم، اقتحما ساحة الرقص، إنهما مجنونان، هذا الحيوان اقتحم غرفة نوم امرأة، وتلك المخلوقة الشرسة هاجمت العروسين كما رأيت، أنا الآن كبير القرية، ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ فهمت، لنتأمل الأمر ثانية، هذه المرأة أفسدت زفاف سرحان، ورفيقها أفزع إحدى النساء، هذا كل ما فعلاه، ألا تظن أنهما يسطوان على منزلين فقط؟ أليس ذلك غريبا؟

ـ ماذا تقصد يا معلمي؟

ـ لا أدري، يبدو أن هذين المخلوقين لسبب ما يقصدان استهداف هذين المنزلين دون غيرهما، أو يريدان أن يوصلا رسالة ما لأصحابها، لا ريب أنهما يعيان ما يقومان به.

تحرك الكائنان، ومشيا بروية سائرين دون وجل في الاتجاه الآخر، كان في حركاتهما كثير من الاطمئنان والهدوء، أضاف المعلم:

ـ انظر إليهما يبدوان غير مؤذيين وغير عدوانيين، أظن أن مواجهتهما بالبنادق يزيد من هياجهما.

شرد الكبير مرشد قليلا، ثم مضى يقول بنبرات واثقة:

ـ اتضح الأمر الآن، المرأة العارية تلاحق سرحان لسبب ما، والرجل العاري يلاحق فاطمة، في هذا الحال لا شأن لنا بالأمر.

ـ هذا لا يعني أن تتوقفوا عن حمايتهم إن لزم الأمر..

ـ لا تهتم يا معلمي، هيا نعود إلى وليمتنا.. لا أثر للشيخ المريض، لقد تبخر.

هز الفقيه عايض رأسه بتسليم، نزلا من الرابية بتأنٍ وحذر، سلكا دربا هابطا كث الأشجار، يشقه مجرى جاف صنعته مياه السيول القادمة من الهضبة الكبيرة، أخيراً اقتنع معلمه أن يعود إلى القرية لتناول طعام الوليمة، لقد أثمر بحثهما عن العثور على الكائنين العاريين، انتبه إلى أنهما يطاردان رجلا وامرأة وحسب، ويحومان حول منزلين وحسب، بقي هناك أمر غامض يجب أن يعرفه، لا يتحتم أن يظل غافلا عنه، التفت إلى معلمه قائلا باهتمام:

ـ معلمي، لازلت أجهل ما يدعوك للإلحاح في البحث عن هذا الشيخ العجوز؟

انكمش المعلم المسن متهيبا كقنفذ قبل أن يقول في عجل:

ـ ويلك يا مرشد، ذلك الخط السحري المعقد لا يصنعه سوى ساحر ماهر، لا أعرف كيف ساورني شك أن يكون صانع ذلك الخط هو معلمي.

ـ معلمك، لا أظن...

في تلك اللحظة، صدرت حركة مفاجئة وراء شجيرة كثيفة الوريقات، ثم تناهت إليهما حشرجة ضعيفة تشبه صوت اجترار حيوان، التفا حول الشجيرة وهما يتوقعا أن يجدا حيوانا أليفا يجتر

طعامه، فوجئا بالشيخ المريض، متكور الجسد في وضع جنيني، عيناه شاخصتان ببلاهة، أنفاسه تبدو ساكنة، لاحظا مقدار هزاله وضعفه وشحوبه الرهيب، بدا جليا أنه يحتضر، رغم ذلك مازال يتحرك ويقاوم بأعجوبة، بين لحظة وأخرى، تصعد من صدره الوئيد أصوات متقطعة تشبه الفواق تكاد تخرج معها روحه المعذبة، دنا الكبير مرشد منه سادا أنفه المطاطي الضخم، مد ذراعه اليمنى ليحول بين معلمه والشيخ الضرير، كأنه يخشى عليه من ذلك المنظر الصادم، لكن معلمه الفقيه عايض دفعه جانبا بقوة غريبة انبعثت من موضع ما في جسده الخائر، اقترب محدقاً في الرجل العجوز مخالفاً هدوءه ورصانته، مكث وهلة يفحص جسد الرجل المريض بعينيه الذاهلتين، كان يبدو هرماً ومتهالكا على نحو لا يصدق، ملابسة المهلهلة متسخة وممزقة، بحيث لم يعد يغطي جسده سوى بضع أسمال وخيوط، ظهرت أجزاء كبيرة من أعضائه محروقة وقاتمة بفعل حرارة الشمس والبرد، تفوح منه رائحة شخص ميت، انحنى الفقيه عايض بخفة طبيب بارع، ولمس بشرة الرجل العجوز، ليتأكد من درجة استجابته للمؤثرات الخارجية، رفع جفني عينيه، فارتفعا بسهولة، ثم ارتخيا ببطء شديد، كانت تلك علامة سيئة من علامات الهلاك، أمسك يده بشجن، تأملها، عرف ذلك الإصبع المفرطح المميز الذي يخص معلمه، على نحو مباغت اندفع الفقيه عايض منتحباً منكبا عند قدمي الشيخ المريض قائلاً بحرقة:

ـ معلمي الفاضل، ماذا جرى لك؟ أي جرم اقترفت حتى يحل بك هذا الوبال؟

تحرك الشيخ رعدان ببطء كحشرة مسحوقة، ثم تهاوى على الأرض، أسرع الفقيه عايض ورفعه، وهو يقول بفجيعة:

ـ انهض معلمي، لن أدعك تموت، سأطوع من أجلك كل علومي ومعارفي.

جذبه الكبير مرشد قائلا بجزع:

ـ معلمي العزيز، أهو معلمك حقا؟ كما ترى، لا جدوى من علاجه، لم تعد الأدوية تؤثر في جسده، لقد فعلت كل ما بوسعي...

كشَّر في وجهه صائحا بسخط:

ـ لا يليق بطبيب أن يُحبط أو يقول لا جدوى، لن أبارح مكاني حتى تجلب الرجال ليحملوه إلى القرية.

ـ الجميع منشغلون بالوليمة، دعه هنا حتى نلتهم الوجبة.

صرخ معلمه قائلا:

ـ اجلب الرجال يا مرشد، لن أدع معلمي وحيداً في العراء، هيا، اذهب حالا، لن آكل من وليمتك ولن أفخر بك ما حييت إن لم تفعل.

ارتجف جسد الكبير مرشد إثر هذه الكلمات، راح يجري مكرهاً صوب القرية، ما لبث أن جلب الأشخاص الذين يثق بهم لكي يحملوا الشيخ رعدان بلا رفق إلى القرية، كان يعلم أن العجوز في لحظاته الأخيرة، وسيعجل المسعفون الخشنون من موته، سيحملونه بغلظة وقسوة، ثم يتعثرون ويلقون به أرضاً أثناء السير كما لو كان حادثا عرضيا، أتى أولئك الرجال لينفذوا عملهم اللئيم، وضعوه على محفة يدوية مصنوعة من قصب اليراع، حملوه بخشونة، صاح الكبير مرشد مبدياً اهتمامه الزائف:

ـ أسرعوا، إنه يحتضر.

جعل الفقيه عايض يصرخ عليهم بوجل:

ـ برفق يا رجال، ما هكذا يُحْمَل المرضى.

ـ أسرعوا أكثر، الوقت ينفد.

كانت المحفة مرفوعة عاليا على أكتافهم رغم خفتها، كان بمقدورهم أن يجعلوها منخفضة بمحاذاة خصورهم، ساروا على هذا النحو السريع والمريب، باتوا ينتظرون إشارة كبير القرية لإسقاط المحفة أرضا، حتى يتهشم الرجل الهرم ويتفكك مثل صندوق خشبي متهالك، مازالوا مرعوبين منه ومن شياطينه الأفظاظ، يظنون أن نجاته تعني هلاك الأهالي، هذا ما أكده الكبير مرشد حين استدعاهم، كان المريض خفيفاً مثل ريشة طائر، مجرد جلد جاف فوق عظام ناحلة، أنفاسٌ خافتة واهية، وروحٌ على وشك الخروج، بدت علامات نجاته معدومة، رغم هذا مازال الكبير مرشد ينتظر موضعاً وعراً من الأرض، صخرة ملساء أو فجوة قاسية، حتى يبدو تعثرهم هناك مبرراً، كانوا يمرون بمواضع خشنة قاسية، والكبير مرشد يقول لنفسه: "ليس بعد، مازال هناك موضع أخشن وأقسى قرب القرية، حيث يكون الرجال قد تعرقوا وتعبوا، ليس بعد، ليس بعد، هذا هو.."

فعلا ظهر منعطف ضيق هابط تستوطنه أحجار قاسية مدببة، انتظر بلهفة حتى اقتربوا منه، في تلك الأثناء، وقبل وصولهم إلى المنعطف، ظهر سرحان مهرولا، وحمود الذيب وناصر حنشات، وعتيق الأهبل، وماشا اليهودي، أتوا راكضين من هنا وهناك، جميعهم عرفوا أن هناك خطبا، رأوا الكبير مرشد يتسلل وأتباعه المخلصين مسرعين باتجاه البئر، فانتظروا قليلا ثم تبعوهم، لحسن الحظ وصلوا في الوقت المناسب حين أوشكت المحفة أن تهوي، فأمسكوها من جوانبها الأربع، وأعادوها كما كانت، حاول كبير القرية أن يصرفهم قائلاً بتبرم:

ـ دعوا الرجال يكملون مهمتهم، لم يبق إلا القليل للوصول، لقد أتيتم متأخرين لتشكلوا عبئاً ثقيلا.

رد حمود الذيب باحترام:

ـ لا يجوز أيها الكبير، التعاون أمر جيد.

سكت الكبير مرشد على مضض، في موضعٍ قاسٍ آخر بعد المنعطف الخطير، صاح بصوت حاد رافعا ذراعه في الهواء بشكل غريب:

ـ حاذروا، هنا، حاذروا.

تعثر رجاله ثانية باستماته دافعين المحفة صوب الصخور القاسية الجاثمة على الأرض، لكن الرجال الخمسة القادمين للتو أمسكوا المحفة بقوة، وأعادوها إلى وضعها الصحيح، وصاح ماشا بنزق:

ـ ما بالكم تتعثرون كالعميْ؟ استريحوا إن كنتم متعبين، المحفة خفيفة للغاية.

صاح سرحان مخاطبا الفقيه عائض بنفاد صبر:

ـ أيها الطبيب، أخْبِرنا، بما حدث! من هذا المريض الذي نحمله؟

أجاب الفقيه بصوت مشفق:

ـ هذا معلمي، الشيخ رعدان، إنه يوشك على الهلاك، أسرعوا الآن..

ذعروا جميعا حين سمعوا اسمه، ثم لاذوا بالصمت، لكنهم ظلوا مخلصين لواجبهم في حمله بسلام، صارت الأرض مستوية، سرحان ورفاقه مسيطرين على المحفة، يتبعهم الكبير مرشد مكفهر الوجه، كذلك معلمه المسن بدا مغتما، أخذ يجري خلفهم دون توقف

أو كلل، هرول المسعفون الخمسة حاملين المريض إلى الغرفة التي خصصت للعروسين في منزل زكية، لكن سرحان حبذ أن يغادرها بعد أن سمع عن الوليمة التي استثني من حضورها، خرج منها منفعلا حاملا امرأته الجريحة على محفة من الخشب بمساعدة بعض النسوة حتى أدخلوها منزلها بسلام.

وهكذا استقر العجوز المحتضر في تلك الغرفة العلوية التي مازال جوها معطرا برائحة طيبة خلفتها العروس وراءها رغم ما حدث، لم يكترث الطبيب بالرائحة أو الزينة، مضى يفحص جسد معلمه بتأنٍ وصبر، كان الشق الأيمن أسفل بطنه منتفخا بشكل ملحوظ ما يدل على إصابته بالتسمم، لاحظ بعض الأعراض الجانبية مثل فقدان الشعور والإحساس ونوبات من التشنج والفواق والاختناق، حين ذلك اكتشف أن الشيخ رعدان سقي بمركب خطير من أدويته، وهو دواء فقدان الإحساس، إضافة إلى خليط معلوم من سموم مميتة تسبب الانتفاخ والوفاة السريعة، تعجب من بقاء معلمه العجوز على قيد الحياة حتى تلك اللحظة، لا ريب أنه يملك سبعة أرواح في جسده، أو عله حصن نفسه بنوع من التعاويذ الحامية من المرض قبل أن يداهمه التسمم، أو لعل مركب دواء فقدان الإحساس أبطأ من تأثير السم الذي لا يحبذ أن يمتزج بمركب آخر، على كل حال، إن حياة معلمه صارت معلقة بخيط رهيف يوشك أن ينقطع، وهناك احتمال واهن أن ينجو بمساعدة أدويته، لمعت في عينيه أمارات الأمل، قرر أولا أن يعطه شرابا فعالا مضادا للسم المهلك حتى يستعيد بعض عافيته، ثم يمنحه الدواء الجديد المبتكر لمعالجة أضرار فقدان الإحساس، لم يكشف سر تركيبة دواء فقدان الإحساس سوى لتلاميذه، نصحهم باستخدام مقادير صغيرة جدا منه في بعض الحالات والأمراض، وحذرهم من تقديم كمية كبيرة من العقار للمرضى لأن ذلك سيذهب عقولهم أو يقتلهم للتو، يبدو أن

معلمه أخذ جرعة كبيرة من هذا الدواء الخطير عن قصد، لا شك أن الكبير مرشد فعلها. فكر الفقيه عائض بألم.

وقعت نظرة خارقة منه على وجه تلميذه القديم الذي تجاهلها، ظهرت مريمة جواره ليس في ملامحها أي تأثر أو حزن على والدها كأنها عابر سبيل، وقعت نظرة ثانية غاضبة على وجه الكبير مرشد، بحيث بدت كإصبع اتهام، لا يتغابى معناها على أشد الناس حمقاً، ثم التفت إليه للمرة الثالثة قائلا بصوت حاد:

ـ سقيت معلمي جرعة كبيرة من ذلك الدواء الخطير والسم، أليس كذلك؟ أنت مُخالف لقواعد المهنة يا مرشد، أنت مُخاااااالف.

لم يستطع أن ينكر ما اقترفه أو يجادل، بل هرول خارج الغرفة هارباً من نظرات معلمه السامة.

11

وليمة شهية دسمة حضرها الجميع ماعدا سرحان، اختلق منظموها ذريعة تقيهم من التعرض للعتب، قالوا لمن سأل عن سبب غيابه إن عروسه روضة مازالت مريضة، وبقاؤه إلى جانبها أمر محمود، حتى لا تصبح فريسة سهلة للمرأة العارية، كان هذا الرأي خلَّاقاً لا يقبل الجدل، رغم ذلك شعر الأهالي بفجوة في وليمتهم، شيء ما ناقص، تساءلوا سراً بعد أن شبعوا وجففوا أيديهم من الودك وآثار الطعام، ماذا يعني أن يتغيب فرد من الأهالي عن الوليمة!

أثناء المقيل صار الكبير مرشد يبش في وجه معلمه، ويحدثه بتملق وتقدير عظيمين، أقعده في صدر المجلس الوثير، وراح يزوده بالوسائد المريحة، سرعان ما قدم له بنفسه مشروباً ساخناً، استغرب الفقيه عايض من تلك الحفاوة المفاجئة، فقد مكث أياما عديدة في القرية دون أن يوليه هذا القدر من الاهتمام، لاح في عيني المعلم بعض التفاؤل وقال في سره: "لعل مرشد صحا من غفوته، وتأثر بحبي لمعلمي، فالعرفان غريزة جبل بها الإنسان منذ القدم.."

ارتشف رشفة صغيرة ساخنة من المشروب تلمظها قليلاً، ثم بصقها في الكأس النحاسي المزخرف مكشرا متأففا، ثم قال بصوت خفيض ليداري إحساسه البغيض تجاه تلميذه غير النجيب:

ـ اجلبوا لي بعض الماء والملح.

جلبوا له بعض الماء والملح، فأخذ يعالج نفسه من تأثير المشروب باصقا في وعاء معدني، تلبد وجه الكبير مرشد بالسواد وخاطبه قائلا بتلبك:

ـ ألم يعجبك المشروب يا معلمي؟

ـ كيف لا يعجبني وقد اجتهدت في صنعه لكي تفاجئ معلمك بمذاقه الفريد!

ـ حقاً؟

ـ لا أظن التلميذ يستطيع تضليل معلمه في علوم أخذها منه.

صاح الكبير مرشد على الأهالي بارتباك:

ـ اصنعوا لمعلمي مشروبا يعجبه حتى أعود.

انسحب مدارياً هلعه الشديد من افتضاح أمره، لقد انتبه معلمه لمكره، فالشراب الذي قُدِّم له مغشوش، يحوي سُمّاً سيطفئه كالفانوس لو شربه، لا يبدو معلمه غافلا كما يخال له، لن يدع الأمور تفلت من يده، ينبغي أن يتصرف بسرعة، فالساحر الخطير في طريقه للشفاء، يتحتم أن يطلب من الشياطين أن يتخلصوا منه، ويجعلهم يطردوا الفقيه عايض الجاثم فوق صدره كالصخرة، إنه معلمه على كل حال، سار بخطى ثابتة صوب مجلسه، وفتح الصندوق الخشبي بسرعة، ونظر إلى الزاوية المنشودة، عندئذٍ أحس بالهلع، أرسل أنامله إلى هناك باحثا بين كتبه وأدويته، لكنه لم يجد شيئاً، دفع سقف الصندوق للوراء بعنف، ونبش كل محتوياته مذعوراً، ثم رفع صوته المتحشرج:

ـ مريمة.. مريمة...

أقبلت المرأة مهرولة ملبية النداء، وقلبها يرجف كطائر مذبوح، أسرع إليها كذئب مفترس، وقبض على عنقها بقوة وهو يصرخ:

ـ أين الخاتم؟

انهارت على الأرض بخضوع، مضى يخنقها حتى رأى في عينيها الغائرتين شبح الموت، تركها وشأنها، موقنا أنها لن تجرؤ على اقتراف ما يغضبه، من يكون الفاعل؟ فكر الكبير مرشد، ليس هناك سوى شخص واحد، هرع صوب منزل روضة راكضاً كالمجنون، ودخل دون إذن، سرعان ما وثب فوق صدر سرحان كالقدر المستعجل، صارخا بثورة:

ـ أعد إليّ خاتمي أيها اللص؟

دفعه سرحان عن جسده قائلا بدهشة:

ـ ماذا دهاك يا رجل؟

رد الكبير مرشد بحدة:

ـ أرجوك يا سرحان، أعِد إليّ الخاتم لأنه خطير جداً.

انهار على الأرض شاخصا إليه بضراعة، لكن وجه سرحان بدا كصفحة نقية خالية من الخداع.

ـ لست لصاً أو محتالاً مثلك، أنت تدرك أني لن أفعل شيئاً رهيباً كهذا. ولو فعلت أظنني كنت سأطلبهم ليقبضوا على المرأة العارية التي كادت أن تقتلنا ليلة الزفاف.

ـ هذا صحيح، من يكون الفاعل إذاً؟

ـ لا أدري.

حبذ الكبير مرشد أن يصمت، ويتحرى عن خاتمه المفقود بلا ضجيج، لن يصغي إليه الأهالي بعد اليوم لو أدركوا بفقدان الخاتم، أخيراً قال أمام سرحان بمكر:

ـ أووه، اللعنة على النسيان، أظن أني أخفيته بمكان ما في المنزل، نعم، تذكرت، إنه بمكان أمين، سامحاني.

رنا إلى روضة وسرحان بأسف، وخرج وهو يضحك مداريا جزعه، موقنا أنه مسروق أو بمكان ما، وأن كلفة البحث عنه قد تكون غالية بسبب ضيق الوقت ووفرة المتاعب، ولا يود أيضا أن يشيع أمر اختفائه، لقد خسر دون شك بعضا من نفوذه وثقته بنفسه، ولعن نفسه إذ لم يستخدم هذا الخاتم من قبل، كان بوسعه أن يجعل الشياطين يحرسونه، أو حتى يحيط الصندوق بدائرة سحرية حامية، لكنه حبذ أن يلجأ إليه عند العوز الشديد، تفاديا للوقوع في المخالفات التي حذر منها أسلافهم السحرة، يا له من هراء فارغ! يتحتم الآن ألا يضيّع كثيرا من الوقت، وأن ينجز كثيرا من أهدافه قبل فوات الأوان، في المجلس أعلن عن زواجه الميمون، حدد صبيحة يوم الخميس القادم موعداً للزفاف، سيفعل شيئاً مفرحاً قبل قدوم المفاجآت غير السارة، في ذلك النهار أتى ناصر حنشات إلى المجلس وفجّر خبراً مدوياً، ادعى أنه كان يغتسل عند البئر بعد الظهيرة، مستغلاً خلو المكان من النساء والأطفال، كان عارياً كما ولدته أمه، يصب الماء الدافئ فوق رأسه متلذذاً بانسيابه الرقيق الناعم على جسده المتعب إثر نصف نهار من العمل المرهق في الحقل، فجأة انتبه إلى كائنين عاريين يهبطان من الرابية، ويقفان قربه وهما يصدران صفيراً ملحناً يشبه نِغَاء الأطفال المدللين، أجفل فَزِعَا، سار صوب ثيابه ليلبسها، لكنهما قطعا عليه الطريق، وجعلا يقفزان حوله وهما يصدران الأصوات الملحنة كبلبلين

نشوانين، هزا رأسيهما وأشارا إليه أن يتبعهما، قطعا بضع خطوات باتجاه الرابية القريبة، ما أتاح له فرصة الوصول إلى ملابسه، أخذها وارتداها على عجل، حين شاهداه بتلك الهيئة الجديدة انطلقا هاربين...

ظهر الشك على ملامح بعض الرجال، وأفصح البعض إن ما سمعوا من الرجل يبدو حقيقياً، علّق الكبير مرشد قائلاً بانفعال:

ـ كان بمقدورك يا ناصر القبض على الدخيلين بيسر.

رد ناصر حنشات بصوته المرعوش:

ـ لم أفكر في ذلك، ما كان يدور في ذهني ساعتها هو كيف سأنجو منهما.

ـ أوافق معلمي الرأي، لا أظنهما مؤذيين، إنهما فقط يبحثان عن شيء ما.

رد الفقيه عايض قائلاً ببرود:

ـ آن الأوان للقبض عليهما قبل أن يفسدا الزفاف.

ـ هذا صحيح، لكن فكرة التعري مخجلة، لا أظن أن بوسعي كشف جسدي أمام شخص آخر عدا امرأتي مريمة، سأفعل ذلك يوم الخميس القادم.

قهقه الرجال، بدت هذه مزحة نادرة تخرج من بين شفتي كبيرهم الجاد الصارم، ها هو يتحول إلى رجل يلقي الدعابات ويشيع جواً من المرح في المجلس، شجعه اهتمام الحاضرين بكلامه، فأعقب بصوت جاد هذه المرة:

ـ بوسع سرحان وناصر حنشات ومن يحبذ هذه الفكرة أن ينفذوها عند البئر.

نظر إلى الرجال المحيطين به منتظراً رأيهم، أعلن البعض استعدادهم لخوض التجربة بشرط ألا ينظر المتعرّون إلى بعضهم البعض، لاسيما إلى الجزء الأوسط الذي يصيبهم بالخجل. ضحكوا، واتفقوا أن ينفذوا خطة التعري قريبا، لذا طلب الكبير مرشد استدعاء سرحان لكي يشترك معهم في هذه الجلسة الودية، فهو أول من اقترح فكرة التعري، حين دخل سرحان بش له الكبير مرشد وتنازل له عن موضعه، كما بشَّ الأهالي في وجهه أيضا، أوشك أن يفتح فاه مندهشاً من الحفاوة، طالما كان الكبير مرشد شخصاً متقلب الأحوال، يُمسي صديقاً ويصبح عدواً خلال لحظات قلائل أو العكس، وافق سرحان على خطة التعري، لا يجد في نفسه أي خجل، هذا أفضل من المطاردة وإرهاق الرجال بلا جدوى، كان هذا هو رأيه منذ البداية، تعجب عند عودته إلى منزله، كيف ينقلب سلوك الأهالي تبعاً لتقلب أمزجة الكبير مرشد وكأنهم متصلون معه بخيط غير مرئي!

12

في آخر النهار، مع تلطف الجو ونعومة أشعة الشمس ودفئها، قام سرحان باتخاذ بعض إجراءات السلامة في منزل روضة، في المساء السابق نثر طبقة من الرماد حول المنزل ليتأكد من مخاوفه، وفي الصباح وجد آثار أقدام عارية طابعة عليها، لذا شرع بتبطين النوافذ بألواح إضافية من الخشب، تفقد جهات وأركان المنزل الأربعة، عزز من متانة الأبواب بقطع من الصفائح المتينة، دق المسامير فوق الأجزاء الضعيفة من النوافذ والأبواب، وأولى باب السطح الجزء الأكبر من اهتمامه، ولمزيد من الحرص والاطمئنان سمح لكلبه دغمار أن يمكث داخل الدهليز، فرحت روضه لوجود الحيوان الضاري إلى جانبهم، وفي وقت من الليل نبح الكلب بشدة، وراح يركض في الدهليز ويصعد السلالم، نبح ناحية الباب العلوي، ثم انتقل إلى الباب الأمامي للمنزل، صار يقتحم الغرف المفتوحة، مطلقا صوته صوب الخارج، أيقظ نباحه الأم وابنتها من السبات العميق، وسرى في جسديهما الذعر، طلبت روضة من زوجها أن يبيت إلى جوارها، مكث عندها قليلاً، ثم شعر بالفضول الذي يلازمه في أغلب الأوقات، أراد أن يعرف ما ركب كلبه من شيطان، حاول أن يجعله يكف عن النباح ليرهص السمع، لكن الكلب لم يتنازل عن كبريائه، فأمسك شدقيه وأطبقهما بعنف، أصغى قليلا، سمع صوت مواء قطة في الخارج، قال لنفسه ألا شيء يثير القلق، هناك فئران وقطط في المنزل، والكلب يشم

رائحتها ويسمع وقع أقدامها الصغيرة، حدَّث روضه بما جال في نفسه، ونصحها ألا تقلق، لأن الأبواب مغلقة وحصينة، ما لبث أن رمى الكلب إلى الخارج، وذهب إلى حجرته ونام.

في وقت مبكر من الصباح، نهضت فاطمة بنت روضة، وأشعلت التنور الطيني وطهت الفطور، وصنعت بعض القهوة للزوجين، كان من عادتها حين تصحو من نومها أن تصاب بانسداد في أغشيتها الأنفية، تنتابها في المساء نزلة خفيفة من الزكام، على إثرها تفقد حاسة الشم، هذا جعلها لا تشم تلك الرائحة المقززة التي تنتشر في جو المنزل، لكن بعد أن أحست بالدفء في بيت النار تفتحت جيوبها الأنفية، فاشتمت رائحة مقززة، اكتشفت أن الفضلات الآدمية تلطخ أرضية الدهليز وجزءً من السلالم التي تقود إلى السطح، من صنع هذا الأمر المقزز؟ تساءلت في سرها، اتجهت مهرولة إلى حجرة أمها لتخبرها بما حدث، وهناك رأت مشهداً فظيعاً، فصرخت بملء الصوت، وهب سرحان من سباته مذعورا، وتضوع الرائحة، ورأى امرأته هامدة شاخصة العينين إلى السقف، فصار يصرخ بغضب، ويركض في أرجاء المنزل، باحثاً عن الفاعل، صعد السلالم، وجد عمود باب السطح محطماً من الأعلى والأسفل، بدت ألواحه مجدولة جانباً، أتى الأهالي مرتاعين، وفحص الفقيه عايض جسد المرأة، كانت أصابع القاتل عالمة على صفحة عنقها بوضوح، فأكد أنها تعرضت للخنق.

أخذ جزءٌ من الأهالي يتأهبون للدفن والعزاء، والجزء الآخر ساروا وراء الكبير مرشد ومعلمه وسرحان في أرجاء المنزل، راحوا يحققون حول الحادث، سمعوا من الزوج المحزون ما دار في المساء، رأوا الباب المحطم، وبقايا البراز المتناثر في المكان، راح ربيع البكر يسأل سرحان أسئلة مركزة مكررة أحياناً، أبدى

استغرابه أن يقوم القاتل بتحطيم باب السطح، وينشر القذارة في أرجاء المنزل دون أن يشعر به أحد، لاسيما الرجل الوحيد في الدار، صرخ سرحان في وجهه بغيظ:

ـ ماذا تقصد يا ربيع؟

ـ لا تغضب، أنا مأمور بالتحقيق في الحادث، لقد كلفني كبير القرية بهذه المهمة.

أعقب بعد وهلة:

ـ من تظنه فعل ذلك؟

ـ إنها تلك المرأة التي حاولت أن تقتلنا في ليلة الزفاف، إنها تطاردني بلا هوادة.

ـ لِمَ تطاردك دون غيرك من الأهالي؟

ـ لأنها تود أن تقتلني، ما هذا السؤال الغريب يا ربيع!

ـ لكنها لم تؤذك هذه المرة، بل خنقت روضة! كيف تفسر ذلك؟

ـ لأنها ضرتها، يا الله ماذا قلت للتو، هذا جنون.

ـ ضرتها؟

انهار سرحان وصاح:

ـ إنها زكية، لقد أخبرتكم من قبل عما حدث في صنعاء، لم يصدقني يومها أحد، ولن تصدقوا الآن، فأنا أعرفكم جيدا أيها الحمقى.

ـ تقصد امرأتك السابقة؟

ـ نعم، إنها هي.

قال الكبير مرشد باستخفاف:

ـ والرجل العاري هو الكب... أقصد عون.

ـ حقا، إنه الكبير عون.

ـ مهما يكن، ينبغي الحذر، سوف نحرسكم خلال المساء، لا شك أنك والأشخاص الذين نجوا من مشقات الرحلة في خطر داهم، فاحترس على نفسك وولدك سعد.

ـ يسعدني اهتمامك أيها الكبير.

طلب الكبير مرشد بصوت حازم أن يخرج الجميع رجالا ونساءً لتشييع المرأة الميتة إلى مقبرة القرية، لأنها كانت امرأة فاضلة حسب وصفه، فانكسرت عينا سرحان إلى الأرض بحزن واضح، وهكذا خرج النساء والرجال وحتى الأطفال خلف الجنازة، بدوا حزينين ومتأثرين للغاية، وقبل أن يصلوا إلى المقبرة، أمسك الكبير مرشد رأسه بذراعيه متظاهراً بالصداع، واستأذن معلمه بالعودة، رافضا أن يرافقه أحد، مضى مترنحا حتى غاب عن أعينهم، ثم وسّع خطواته متجها صوب منزل زكية، هناك قرب المنزل وجد سعد يقفز ويلعب وحيداً، جال ببصره في جميع الجهات، لم ير أحداً، بدت القرية خاوية كالمهجورة، أخرج من جيبه قطعة سكر مغرية، ونادي الصغير، سار سعد وراءه للحصول عليها، توقف الكبير مرشد وسط السلالم، وأعطاه القطعة، تردد قليلاً، ثم أزمع أن يقوم بأول عملية قتل في حياته، سيبدأ بأول الأشخاص الذين شاركوا في تلك الرحلة، وهو الطفل الصغير، العملية سهلة جداً، والفاعل هي المرأة العارية، راح يحفز روحه على إنجاز الأمر بسرعة، هيا قُم بذلك الآن قبل أن يعودوا، مازال هنالك شخص آخر في الأعلى، سوف يكون حصيلة هذا اليوم طفل ضعيف وشيخ

هرم، هجم على الصغير وسط السلالم المظلمة، لكنه أمسك الهواء، وسمع صوت الطفل عند الباب الخارجي للمنزل، أصابه الهلع، كيف استطاع الشقي اجتياز تلك المسافة دون أن يشعر؟ تجاهل الإجابة على سؤاله متوعدا أن ينال منه في أقرب فرصة، صعد متوتراً إلى الطبقة الثالثة، مقتحما غرفة الشيخ رعدان.

رأى عينيه الوانيتين تتحركان بضعف شديد، تأمله بشماتة وتشفٍ، أخذ يفكر.. مازال واهناً، لكن شفاءه بات حتمياً، ها هي أمارات العافية واضحة على وجهه الأشيب، لكن الفرصة مواتية للتخلص منه الآن، لا أحد في المنزل، لأول مرة يخلو من السكان والزوار، أمامك شيخ عاجز عن المقاومة، اقضِ عليه قبل أن يتعافى ويستعيد تعاويذه وكتبه، ومن ثم ينتقم منك شر انتقام.

مد الكبير مرشد يديه فارداً أصابعه المتوترة بأقصى قوة يملكها، تقدم مصوباً عينيه إلى عنق الرجل العجوز، لكن خطواته تسمرت بمكان ما قرب الجسد الممدد العاجز، ظن أن هذا يعود إلى توتره وخوفه، حاول أن يتقدم مرة أخرى، لكن قدماه ظلتا مسمرتين على الأرض، تراجع إلى الخلف بيسر، دار حول العجوز، وهجم عليه من الزاوية الأخرى فتسمرت قدماه أيضاً، لحظتها أدرك أن معلمه قد أحاط الرجل العجوز بدائرة سحرية، استغرق فك الدائرة السحرية مدة من الوقت، رغم ذلك لم يستطع التقدم، كانت هناك دائرة أخرى، بل من المحتمل أنه محاط بعددٍ من الدوائر السحرية، ويعوزه وقت طويل لفكها، فكر أن يهشم رأسه بحجر، ذهب يبحث عن شيء ما صلب، لكنه سمع أصوات الأهالي تهدر في الخارج، أسرع بالخروج، وهو يلعن معلمه عدد شعيرات جسده، دخل إلى مجلسه متجهما، جاء الرجال ليقرروا ما يجب عليهم فعله، فأفصح دون مواربة أنه يشك في أن تكون المرأة العارية هي زكية،

والرجل الآخر هو عون، لقد رآهما في الرابية عن كثب، ليس هناك وجهٌ للتشابه، لا يمكن أن يجهل زكية، لا.. لا، ليست هي، لكن هل يتغير شكل المرأة كُليّا حين تكون مجردة من ثيابها؟ كان سرحان حاضراً في المجلس، وهو الوحيد الذي يدَّعي أنه يعرف زكية عارية وغير عارية، أكد أن هناك خالاً أسود على فخذها الأيمن، ضحك الحاضرون رغم تجهمهم، أيقنوا أن سرحان يمزح أو يسخر منهم، من هذا الذي يستطيع أن يدقق النظر في مثل هذه العلامة الصغيرة! لاسيما وهذه المرأة الخطرة أمست مغلفة بطبقات من الأوساخ غطّت جسدها وغمرته تماماً، بل وأحالت حرارة الشمس بشرتها إلى لون مفرط في سمرته يشبه بعض طبقات الأرض المكشوفة للأجواء وتقلبات السنين الغابرة، لهذا لا أحد يستطيع أن يثبت أو ينفي هويتها قبل أن يتم القبض عليها ورفيقها، سينفذون خطة التعري في الصباح الباكر، ينبغي على الرجال عدم البوح بهذا السر إلى نسائهم، فالنساء ثرثارات بالفطرة لاسيما في مثل هذه الأسرار، لا يستبعد أن تلتقط المرأة العارية الخبر من خلف إحدى النوافذ، أو من حديث عابر بين امرأتين تتحدثان قرب البئر، ولتجنب الحرج، على الرجال تنبيه أهاليهم بعدم الاقتراب من البئر في الغد، عليهم اختلاق ذريعة ما، بل يجب توحيد الذرائع، فالرجال غداً سوف يستحمون عند البئر ويعرضون أجسادهم لأشعة الشمس، لا داعي لمزيد من التوضيح، إنها أوامر كبير القرية، وهو معروف بأفكاره وأوامره الغريبة التي تعود بالنفع على الأهالي، ناهيك أن لديه ضيف عزيز وهو معلمه الفقيه عايض، إنه الآن طبيب القرية، وينبغي أن يستحم لأول مرة قرب البئر ليحيي في نفوس الرجال سمة النظافة التي تعود على صحتهم بالفائدة.

عاد سرحان إلى منزله حزيناً، كان ضميره يؤلمه بشدة، لأنه أهمل امرأته وتركها وحيدة في غرفتها، فكر في أنه لن يحس بطعم

الراحة حتى يقبض على تلك المرأة الملعونة، وهي لا ريب لن تدعه يرتاح أو يهنأ بشيء، ستظل تتعقبه في كل مكان لتُرْدِيه قتيلاً، لكن في هذا المساء وافق بعض الأهالي أن يحرسوا منزله تكريماً لحزنه ومواساة له، كما تفضل النجار اليهودي حليم بإصلاح باب السطح المحطم، وعززه بأعمدة متينة، وغرس على حواف سطح المنزل شفرات حادة، بحيث يتعذر على أي شخص الصعود أو الإمساك بالحافة دون حدوث أضرار بالغة باليدين، هذه المرة ترك كلبه دغمار في الداخل، وجمع أفراد عائلته في غرفة واحدة، بما في ذلك فاطمة الباكية التي بات يناديها بابنته، وضع فراش نومه عند مدخل الغرفة، وأمسك فأساً حاداً بيده، واستلقى فاتحاً أذنيه وعينيه منصتاً إلى أي حركة تصدر من الداخل أو الخارج، صار يفكر كيف سيفعل فيما لو أمسك بتلك المرأة العارية، سيبرحها ضرباً ورفساً حتى تلفظ أنفاسها، لم يعلم أن خطة القبض عليها قد أُجلت إلى بعد الغد، إذ أثار ربيع البكر معضلة بشأن الغد، وهي أن الكائنين سيفطنان إلى الحيلة لاسيما المرأة العارية، لا ريب أنها ستكون على حذر، لأنها شبه بشرية، ولعلها تمتلك بعض الإحساس والذكاء، بل إنها حقا ذكية للغاية لأن الأهالي عجزوا عن الإمساك بها ورفيقها حتى الآن، لكن في حال تأخرت الخطة تكون المرأة قد فقدت جزءاً كبيراً من حذرها.

في الغد انتظر سرحان طويلاً، ثم جاء إليه نبأ التأجيل والمبررات، ساوره الغضب قليلا، ثم انطفأت سورة غضبه، شعر أن الأهالي على حق، انتظار يوم واحد لا يضيره، وعقب الصبر يأتي الفرج كما يقال، نام طوال النهار، لكي يسهر الليل في الحراسة، في تلك الليلة ظل الكلب ينبح بشدة، وأحس بشيء ما يتحرك في الخارج، وبالكاد طلع الفجر، ذهب خلسة إلى مقلب الرماد خلف منزل روضة، ولوث جسده ورأسه حتى يبدو قذراً مثل الكائنين العاريين،

كان الرجال المشاركون في هذه الخطة قد اتفقوا جميعاً على تلويث أجسادهم بالتراب أو الرماد حتى تنطلي الحيلة على الكائنين، انتظر قدوم الأهالي، لكن لم يأت إليه أحد، ولا أي نبأ منهم بالتأجيل أو بغيره، بعث من طرفه حمود الذيب ليتقصى سبب غيابهم، فجاء في آخر النهار معتذرا عن نسيانه الخبر الذي أرسل من أجله، وسبب غفلته هو أنه أنشغل بعمل ما في منزل الكبير مرشد الذي بات يتهيأ لإحياء عرسه الميمون يوم الخميس، أي بعد يوم غد، انفجر سخطه، ولعن هذا الزفاف الذي سيعيق الخطة، سار محتداً إلى هناك ليتحقق مما يجري.

كان الأهالي في آخر النهار مجتمعين قرب منزل كبير القرية كالذباب، بدوا مشمري السواعد والأقدام، وفي حركة دائبة، ينقلون أشياء ويجلبون أخرى، أو حتى يتحركون دون هدف، يصرخون في بعضهم البعض طالبين المساعدة، يعلو صراخهم مع مرور الوقت، يحملون أشياء مهما كانت صغيرة كجالون متوسط الحجم ممتلئ بالماء، أو حتى سلة فارغة، بوسع القليل منهم أن ينجزوا هذه الأعمال، كان الكبير مرشد يراقبهم عن كثب من نافذة مجلسه، بين يديه كتابٌ رثٌ يقلب صفحاته من حين لآخر، يلوح على وسطى كفه الشمال خاتمٌ أسود، عندما لمح سرحان قادماً، أشاح بصره عنه كأنه لم يره، راح يحدق في كتابه، قال الأخير لنفسه بغضب: "الفقيه مرشد يخيفهم بالكتب الخطيرة وبهذا الخاتم الأسود اللعين، لا أظن أنه خاتم الشياطين، لأنه لو كان في حوزته لقام باستدعائهم والاستعانة بهم للقبض على الكائنين العاريين، لقد جاء سابقاً يشكو ضياعه، لم أعد أخاف منه ومن كتبه وخاتمه، لأني الآن صرت في أعماق الخوف.."

راح يتأمل الأهالي بنفاد صبر، لا يدري ماذا يعملون غير الصراخ ونقل توافه الأشياء والأغراض، مازال هناك متسع في الغد للعمل والمساعدة، سيقوم بذلك عدد قليل من الأهالي، شعر إن هذا لعب على الذقون وازدحام للازدحام فقط، يهتمون بكبير القرية ويودون إبهاجه وجذب انتباهه، فيما جارهم غارق في الحزن ينتظر مساعدتهم للقبض على الكائنين الخطرين، هنا عقد الغضب لسانه برهة من الزمن، ثم انفجر في وجوههم كبركان مكبوت، شتمهم بألفاظ قبيحة وتفل في وجوههم، تمنى أن يتدخل الكبير مرشد لكي يصب عليه قدرا كبيرا من غضبه، لكن الخبيث ظل صامتاً تغشى ملامحه وداعة الحكماء وسكينة الصالحين، لم يتأثر الأهالي أو يردوا على هياجه وسِبابه، كأنهم كانوا يتوقعون ردة فعله، أو اتفقوا أن يستقبلوه بهدوء وصبر، رددوا بعض العبارات اللينة على مسمعه، قالوا لبعضهم إن الرجل عنده حق ليغضب، مازال حزيناً إثر فقدانه امرأته، وهم مشغولون بالترتيب للزفاف، لا يكترثون بأي شيء آخر، ولا حتى بمشاغلهم ومشاكلهم الخاصة، لكنهم أضافوا لوعودهم السابقة وعوداً أخرى، ليمتصوا بعض غضبه، لذلك انصرف حانقاً.

اقتنع أن الخطة ألغيت، لن تناقش على أقل تقدير حتى تضع العروس مولوداً، وإلى أن يأتي هذا الزمن تكون المرأة العارية قد أبادت عائلته، وحين يقبضون عليها ـ إن حالفهم الحظ ـ يكون السوس قد نخر عظامه، أحس بالعزلة كما لم يشعر بها في حياته الماضية، أمسى يغلي مثل مرجل على نار مضطرمة، في المساء سمح لكلبه دغمار بالدخول إلى الدهليز، أغفى غير مبال بما سيحدث، بل دفعه اليأس أن ينام عارياً ملبداً بالرماد والأوساخ مسلماً أمر حمايته إلى كلبه الوفي.

في جزء من الليل، قام وأشعل السراج، خرج عاريا من المنزل، سار بشكل طبيعي في ليلة معتمة باردة، تبعه كلبه دغمار بخطى متثاقلة بطيئة. كان ينظر إلى سيده العاري الملطخ بالرماد بارتياب، كأنه يشك في شخصه، أو يستغرب من حاله المزري، سار خلفه وسط القرية وضوء السراج يعكس شكله المخيف، نبحت بعض الكلاب على الرجل العاري، ثم صمتت تقديراً لصديقها الجسور المرافق له، كانت المنازل هامدة صامتة، لم يكن هناك أي حس للأهالي، كان الوقت قريباً من الفجر، والجميع غارقين في النوم بعد يوم مضنٍ من العمل والتأهب لإقامة زفاف كبير القرية.

اقترب سرحان من مخزن أعلاف وحشائش يقع في الطبقة السفلى لمنزل الكبير مرشد، توقف عند بابه الخشبي المتهالك، تأمله للحظات، ثم دفعه فانفتح مصدراً صريراً واهياً، تسمر على العتبة محدقا في الداخل، عكس الضوء حزم الحشائش الجافة المكدسة فوق بعضها، لا شيء آخر، ظل واقفاً عند المدخل يحدق ببلاهة، كأن شيئا ما بالداخل أثار اهتمامه، فجأة اقتربت قطة سوداء بحذر صوب باب المخزن، فانقض عليها الكلب، واصطدم بصاحبه، فأوقع السراج من كفه على أرضية المخزن، ساح الزيت فوق بقايا متناثرة من الحشيش والقش الجاف المهمل، أخذ يحدق في النار وهي تنتشر ببطء، حتى ارتفعت ألسنتها، ولفحت جسده العاري بحومها الشديد، خرجت القطة السوداء بسرعة مذهلة لتنجو بنفسها، فأسرع خلفها الكلب الغاضب، ثم ارتد يائساً، رأى سيده يبتعد عن المكان فتبعه، سائرين في الطريق التي جاءا منها.

13

فز ناصر حنشات من نومه إثر كابوس مرعب، جعل يتقلب على فراشه محاولاً النوم ثانية بلا جدوى، بات مؤخراً يرى أحلاماً مخيفة، ويرد السبب دوماً إلى إرهاق العمل وشجاراته وامرأته، لم يبارح كابوس تلك الليلة ذهنه، فقد رأى غنية تضربه بفأس حاد وسط رأسه، وأنه يمشي في شوارع القرية صارخا والفأس عالق على جمجمته، كان الأهالي يتفرجون ولا يحركون ساكناً، فجأة يظهر سرحان وغنية جنباً إلى جنب يتداعبان فوق سطح منزله، ويشيران إليه بتهكم. ظلت الصورة الأخيرة عالقة في ذهنه، حملت له انطباعاً سيئاً عن جاره وامرأته، ثم لام نفسه كثيراً على ارتيابه، تعجب كيف يؤرقه حلم غبي ويجعله يضمر الضغينة على جاره سرحان الطحَّان! أما امرأته فقد غدت كابوساً حقيقياً مرعباً طوال النهار، كانت علاقتهما تسوء كل يوم، آخر الشجارات حدثت في المساء بعدما قضيا لحظات وجيزة في معاشرة سيئة غير متكافئة، بعد أن انتهى هرب من لسانها السليط إلى حجرته الصغيرة الباردة، هناك نام نوماً متقطعاً انتهى بذلك الكابوس المزعج الذي جعله يستيقظ، قام متسللا بحذر، وفتح باب حجرته المطلة على سطح بيت تقليدي مفتوح، تصفح السماء المعتمة بعينين واهنتين، لمح عددا من النجوم لازلت مبعثرة في السماء، ما يعني أن الوقت قريباً من الفجر، لاحظ فجأة وهج ضوءٍ أصفر يتهادى في الأجواء، وسمع صراخاً يأتي من مكان ما في القرية، عاد بفزع إلى الحجرة، أخذ السراج، وأسرع وهو بملابسه الداخلية إلى الطريق، مكث مترددا منصتا، مازال الصراخ يتردد عاليا، والوهج الأصفر يملأ

سماء القرية، استطاع تحديد الجهة التي يأتي منها الصوت، من الحي اليهودي، عرف صوت شالوم الصاخب المميز، كما سمع أصوات الناس وهم يركضون للنجدة، تأهب هو الآخر ليلحق بهم، انتبه إلى أنه يرتدي ملابس غير لائقة، لا يجوز أن يلبي نداء الاستغاثة بسروال أبيض يكشف ما تحته، قرر أن يعود ليرتدي شيئا لائقا، فجأة سمع حركة في الجوار، ورأى عينين لامعتين في الظلام، بعد برهة لاح شبح شخص يسير إلى جواره كلب مميز، حين اقترب منه كان عاريا بوضوح، مضى من أمامه دون أن يعيره أي انتباه، فأخذ يناديه:

ـ هيه، سرحان، ماذا يجري؟

لم يرد عليه الرجل العاري، ظل يفكر، هل هذا الرجل هو سرحان أم الرجل الدخيل؟ أغمض عينيه مراراً، ليتأكد أنه غير نائمٍ، وأن بصره لم ينخدع، لمح بين فخذي الرجل عضوا كبيرا، إنه سرحان لا محالة، سبق أن تبولا سويا يوم أصيب بذلك المرض الغريب، ناهيكم أن الكلب الذي يتبعه هو دغمار دون شك، لا يوجد كلب آخر في القرية يشبهه، كيف يجرؤ على الخروج عارياً؟ إنه مجنون لا محالة، لكني لن أكون مثله وأذهب للمساعدة بهذه الملابس الشفافة.

عاد ناصر حنشات إلى غرفته، وأيقظ امرأته، أخبرها عن حصول حادث ما في القرية، لا يدري بالضبط ما حدث. كان يريد أن يقطع عليها السبيل إلى مشاجرته في اليوم التالي على عدم إيقاظها، مضى يلبس رداءه بعجل ليلحق بالمغيثين من الأهالي، صرخت غنية بصوت غاضب طالبة منه أن ينتظر حتى ترتدي ملابسها ويخرجان معاً، كانت امرأته خاملة مخدرة لا تستوعب شيئاً من كلامه، دخلت الحمام، سمع بولها يسيل على أرضيته الخشنة ببطء،

مكثت بعض الوقت، ثم راحت ترتدي ملابسها بتأنٍ، وهو منتظر باصطبار وقلق، أخذ يستعجلها وينبئها إن التخلف في مثل هذه المواقف أمر مستهجن في عهد الكبير مرشد، وأن المتقاعسين عن حضور المناسبات يؤنبون أو يعاقبون، أو يصبحون منبوذين محاطين بازدراء الأهالي وسخريتهم، وخير دليل على ذلك هو سرحان الطحان الذي غدا منبوذا بسبب تقاعسه عن حضور الاجتماعات، صار كبير القرية يمقته ويفرض مقته على الأهالي، أي شخص يقترب منه سيجد نفسه واقعاً في المشاكل، من سوء حظه ـ أي سرحان ـ أنه مازال يجهل أو يتجاهل كيف تدور الأمور في القرية، وها هو اليوم يسير عارياً في الظلام كالمجنون، لم ترد على كلامه لأنها كانت منشغلة بنفسها وتبدو شاردة.

استمر واقفا متململا يلح عليها أن تسرع، حتى غدت متأهبة للخروج، مد أنامله ليأخذ السراج، لكنها أوقفت يده في الهواء، قائلة له بغضب مشيرة إلى ردائه:

ـ لقد ارتديت رداءك بالمقلوب.

نظر إلى صدره، لم ير الجيب الأمامي المألوف، رفع رأسه بلا اكتراث وأجاب بكسل:

ـ لا يهم الرداء الآن، هناك أمر رهيب في القرية، لقد تأخرنا.

صاحت في وجهه بعصبية:

ـ لِمَ لا تجيد كل عمل تقوم به! هيا أعد لبس رداءك، قبل أن أجمع عليك الناس.

ـ صه، لا ترفعي صوتك، معظم الفضائح تتسرب في مثل هذا الوقت...

خلع الإزار بعجل، فاختنقت كلماته جوف القماش الثقيل وهو يخرجه من رأسه، رأى بقايا ضوء السراج خلف عتبة الباب من الخارج، عرف أن غنية ذهبت، فمضى يصيح:

ـ هيه، انتظري، لقد انتظرتك طويلاً، أهذا جزائي...؟

سمع صوتها الغائر يأتي من الخارج:

ـ سأسبقك هذه المرة، لأنك تسبقني دائماً في القذف.

ـ أيتها الجاحدة، لا تفضحينا من فجر الله.

تحسس الرداء في الظلام، وارتداه بغضب، ولحق بامرأته متخبطاً، كان يراها تمشي على ضوء السراج، سار بعجل ليلحقها، اصطدمت قدماه بأحجار تقف على الطريق، وسقط في حفر صغيرة حفرتها مياه الأمطار، لكن الحظ والعناد أوصلاه بسلام إلى قرب السراج، لم تنظر إليه، وهو لم يحاول أن يفتح أي موضوع معها، ظلا يسيران بعجل وصمت، انشغلا بسماع أصوات الأهالي الحادة والتفكير بما حدث، أخيرا رأيا وهج لهب برتقالي يغطي أجواء المنازل القريبة من حي اليهود، صاحت غنية بارتياع:

ـ إنه حريق.

أسرعت في سيرها، حاول أن يسبقها لكي يبدي أهميته كرجل يمكن أن يفعل شيئاً جباراً لإخماد النار، رأى حشداً من الرجال والنساء قرب منزل الكبير مرشد يحملون طاسات وطناجر مليئة بالماء، يكبونها فوق النيران المشتعلة بعجل، اعترض طريق امرأة وحمل عنها طنجرة الماء، وهرع وهو يصيح بصوته المرتعش ليوحي بحضوره:

ـ المزيد من الماء، الماء، الماء..

جلب الأهالي كل مخزونهم من الماء، وأخطأ بعض الرجال، وكبوا على النار قناني مليئة بزيوت الأسرجة، فزادت ضراوتها، كانت النار أقوى من جهودهم الجبارة، رغم ذلك استمروا في محاولة إطفاء الحريق حتى نفدت آخر قطرة ماء، فصاح ناصر معوضاً عن تأخره:

ـ التراب، اجلبوا التراب.

راح الأهالي يملئون الطناجر بالتراب، ويكبوها فوق النار، فيزيدون من حجم الأوحال والطمي، أصبحت أماكن الإنقاذ زلقة لا تطاق، وباتت أقدام المنقذين تتزلق حتى كادوا يصابون بألسنة اللهب، أخيرا صاح الكبير مرشد بيأس:

ـ ماذا تفعلون يا رجال؟ أنتم تزيدون من حجم الأنقاض، لا جدوى، دعوا النار تكمل مهمتها، ستأكل نفسها وتموت.

كان الكبير مرشد يبدو دائخاً، حاول ربيع البكر وقاسم عوض أن يسنداه، لكنه رفض بعناد، ابتعد مكابراً لكيلا يرى اللحظات الأخيرة لانهيار الثلاث الطبقات فوق بعضها، تأثر الرجال ولحقوا بكبيرهم المترنح، غدت وجوههم حمراء متربة، وأقدامهم وملابسهم ملطخة بالوحل، بدوا متأثرين صامتين، تركوا كبيرهم يبكي، ولم يقاطعوا لحظات أنينه، رأوا إن هذا حقه الطبيعي للتعبير عن حزنه، ولما أخذ فرصته الوافية، وشفى غليله نظر إليهم باهتمام، وقال وهو يمسح دموعه:

ـ لا أكترث بالمنزل، لأنه صندوق ضخم رخيص من الحجارة والطين، لا أبالي أيضا بالمال والذهب الذي احترق، لكن حزني على كتبي وأدويتي التي لا تعوض.

هتف ربيع البكر بسخط:

ـ اطمئن يا كبير مرشد، سنمسك بالفاعل ونحرقه أمام عينيك.

فتح ناصر حنشات فاه ليتكلم، ويفضح الرجل الذي رآه يفر عند وقوع الحريق، لكن الكبير مرشد صاح بحدة:

ـ لست في وضع يسمح لي بمناقشة هذا الموضوع اليوم، من فعل هذا حرق روحي وقلبي، وإحراقه لن يشفي غليلي.

هتف قاسم عوض بتفاؤل:

ـ الحمد لله على سلامة الأرواح، ما ضاع يمكن أن يعوض.

ـ هكذا يقول الناس يا قاسم، مع ذلك لن يستطيع أحد أن يعوضني عن كتبي وأدويتي حتى الله لا يستطيع.

فغر ناصر حنشات فاه مرة أخرى، لكن الكبير مرشد سبقه ثانية مردفاً:

ـ في هذا الفجر الأسود الرهيب عرفت أصدقائي وأعدائي، جميع الأهالي بلا استثناء، هبوا للمساعدة، على الأقل استطاعوا إنقاذ أولادي وبناتي.

هتف ناصر حنشات أخيراً:

ـ لكن سرحان لم يحضر..

قاطعه ربيع البكر بحدة:

ـ صحيح، سرحان لم يحضر، وأنت آخر شخص حضر من الأهالي، جيراننا اليهود أتوا قبل الجميع.

أظهر الشاب اليهودي مائير وأخوه ماشا نفسيهما، كذلك أبوهما شالوم، فهذه العائلة اليهودية كانت أول من وصل إلى المكان، وهم

الذين صرخوا طالبين المساعدة، بل استطاعوا أن يفتحوا باب المنزل وينقذوا عائلة الكبير مرشد، أما الأخير فقد كان نائماً بمقره الدائم في منزل زكية.

قال الكبير مرشد بامتنان:

ـ اليهود أصهاري الجدد، لقد خذلني المسلمون أكثر من غيرهم، هناك سرحان، ومعلمي الفقيه عايض، والبعض جاء متأخراً.

تلبدت وجوه الأهالي المسلمين بالسواد، لم يجرؤوا على الدفاع عن أنفسهم، لقد انقلب مزاج الكبير مرشد بسرعة، بحيث جحد دورهم ومجهودهم الكبير، وهذا بسبب ثلاثة أشخاص، إنه يجامل اليهود ويتقرب منهم لينال رضاهم عن الزفاف الميمون الذي صار من الصعب إحياءه في الغد، ولا ريب أنه سيؤجل إلى ميقات آخر، استغل ناصر حنشات الصمت المطبق والوجوم الذي أصاب الأهالي المسلمين، وأخذ يقول بانفعال:

ـ رأيت سرحان يمشي عارياً قبل....

قاطعه ربيع البكر ثانية قائلا بنزق:

ـ شخص مثلك لا يجب أن يتكلم يا ناصر، لا تنتقد سرحان على غيابه، لأنك تأخرت كثيرا، لذا عليك أن تهتم بنفسك، وتعيد ارتداء ثوبك المقلوب.

ضحك الرجال حين لمحوا رداء ناصر حنشات المقلوب، ثم صمتوا حين أحسوا أن مزاج الكبير مازال معكراً، رغم ذلك بادر مبدياً رأيه في رداء ناصر حنشات قائلاً بنبرات جادة:

ـ إنه يوم مقلوب ومشئوم حقا يا ناصر، وقد سمعت جدتي صالحة ذات يوم تقول إن أي رجل يرتدي ثوبه مقلوباً في الصباح، فإن جاره سوف يتزوج بامرأته أو يولج في مؤخرتها.

نفثوا إرهاقهم على شكل تعليقات لاذعة وقعت في قلب ناصر حنشات كالسهام الحادة، لم يتوقعوا أن يكون لها ذلك التأثير المؤلم في نفسه، لأنهم ببساطة لا يدركون شيئاً عن علاقته المتأزمة وامرأته لاسيما في الأيام الأخيرة، كما لا يعرفون عن الكابوس الذي رآه في المنام تلك الليلة، وقد اندهشوا حين رأوه يهرب نافثاً في وجوههم استياءه من مزاحهم الثقيل، قائلاً بنزق:

ـ سأمزق هذا الرداء إلى قطع صغيرة، وأسحق أي شخص يقترب من منزلي.

ضحكوا من جديته، المسكين يأخذ الأمور على محمل الجد، لكن الكبير مرشد لم يكن يمزح، مازال يؤمن بأقوال جدته صالحة لأنها كانت تملك رؤى ثاقبة ومجربة عن الحياة، وهو يستضيء بأقوالها وآرائها في بعض الأمور المعقدة التي تصادفه، أكد ذلك للأهالي، أما ربيع البكر فقد لمعت في ذهنه فكرة يظنها ظريفة، ومن ثم اقترح عليهم أن يمروا ليهزؤوا من المتخلفين الذين لم يهبوا للنجدة، وافقوا، حتى الكبير مرشد وافق على هذا النوع الخفيف من العقاب، راق لهم ما تحويه من تسلية قد تنسيهم إجهادهم ومخاوفهم، أبرموا خطة ذات شِقَّين، في البداية يعرجون على سرحان الذي لا شك أن لديه علم مسبق بالحادث، سينادونه متجهمين، ويتهمونه بإشعال الحريق، زاعمين أنهم وجدوا سراجه بين الأنقاض، وهذا كافٍ لإغضابه، في الشق الثاني يؤكدون له إن هناك شاهد رآه يمشي عارياً وهو ناصر حنشات، الطريف في الأمر أن سرحان سيتجه غاضبا نحو منزل جاره الذي سيظن أنه جاء ليسرق منه امرأته،

هنا سيصطدم الجاران، ويتفرج الأهالي على مشاهد ممتعة وشجار مضحك.

ما لبثوا أن ساروا نحو منزل روضة صارخين، كانت الشمس لم تشرق بعد، كان سرحان في تلك الوهلة نائماً لا يعرف شيئا عما جرى، لذا فز خائفاً، قام وهو يحس بجسده مخدراً منهكاً، تحرك بضع خطوات ليجيب النداء، وأثناء ذلك اكتشف أن قاع قدميه متقرحين، شعر بالغضب على الأهالي الذين تركوه وحيداً فريسة للمرأة العارية، لا ريب أنها حطمت باباً أو نافذة في المنزل، وأحدثت في قدميه تلك الجروح! ارتدى ملابسه على عجل، وحمل فأسه متنمرا، تفقد بناته وولده سعد، وتأمل النوافذ وفحص كل الغرف والأبواب، ثم صعد إلى السطح، لم يجد شيئاً محطماً! ولا أي أثر للمرأة العارية.

كانت أصوات الأهالي تزيده حنقاً، وتؤجج غضبه وحقده عليهم، لم يكن يرغب أن يراهم أو يحدثهم، سأل نفسه بغيظ: ماذا يريد مني هؤلاء الحمقى؟ أين كانوا في المساء حين كنت بأمس الحاجة لمساندتهم؟ الآن يظهرون ليعكروا مزاجي في أكثر الأوقات أمناً وصفاء، يأتون صارخين كالمجانين! لن أسمح لهم أن يفسدوا عليّ صباحي، شهر فأسه وخرج مهرولاً حتى وقف أمامهم، راح ينعتهم بأبشع الصفات، ويتهمهم بتعكير صفو حياته، والتخلي عنه في أصعب الأوقات، ثم شمّر ساقيه وكشف قاع قدميه أمامهم كالمتحدي، مدعيا أن المرأة العارية أحدثت جروحاً في جسده وهو نائم، لكنها لم تجرؤ على قتله، أو بالأصح لم تستطع، لأن كلبه دغمار تصدى لها بضراوة، وربما نهش ردفيها القذرين وهي تعدو هاربة، لكن الغريب في الأمر إن أبواب المنزل كانت مقفلة من الداخل، ولا يدري كيف أصيب بتلك الجروح الرهيبة! كل هذا

بسبب تقاعسهم عن مطاردة المرأة العارية الخبيثة، لكنه سيلقنهم درساً لن ينسوه، ويبول على عتبات منازلهم الآن، ومن أراد أن يتصد له فليفعل ذلك...

ومضى بحزم وتحدٍ ليثير الفوضى في القرية وينفذ وعيده، فوقع الرجال تحت تأثير الصدمة التي أوقعها سرحان في نفوسهم، لم يتوقعوا أن يسمعوا منه هذا الكلام، ها هو ثائر، ويتجه صوب منزل جاره ناصر حنشات، ولا داعي لمواجهته بذلك الادعاء، كانت الأمور تجري من تلقاء نفسها كما خططوا لها، فاندفعوا خلف الرجل الثائر بحذر شديد، وراحوا يراقبون ما سيحدث.

14

عاد ناصر حنشات إلى منزله بخطوات عصبية، بدا هاجس فراق امرأته يضغط على روحه ويؤلمه، أحس أن هناك خطر حقيقي يترصد حياتهما الزوجية، من لحظة لأخرى ينصح نفسه أن يتجاهل الموضوع، وألا يرهق روحه بالتفكير بقول سخيف لعجوز فانية أو حتى بحلم مزعج رآه في ليلة بغيضة، ينبغي أن يفعل قصارى جهده لإسعادها واستبقائها، لا بد أن يقول لها شيئا لطيفا ومفرحا ويجعلها تضحك بأي حال، لذا اتجه إلى حجرتها مفكرا في كلمات مناسبة ولطيفة، ليس هناك أطرف من قصة الثوب المقلوب وقول جدة الكبير مرشد في تفسيره للأمر، فأخذ يضحك ويناديها باسمها، وهذا لا يحدث غالبا، لم يسمع ردا منها، توقف وسط حجرتها مندهشا وهو يراها تجمع أمتعتها بتوتر، هاله المشهد وأمسك بالأمتعة قائلا بهلع:

ـ غنية، مهلا، ماذا تفعلين؟

دفعت ذراعه بعيداً، قائلة بسخط:

ـ لا أستطيع أن أعيش مع شخص لا يستطيع أن يرتدي ثوبه بشكل سليم. ليس هناك شيء مميز يدفعني للبقاء في دارك، أتظن أنني لن أجد في بيت أهلي طعاماً؟

أراد أن يستبقيها بأي ثمن ولو قليلاً من الوقت، فقال بمكر:

ـ دعك من هذه القصة السخيفة، هناك سر يثقل على روحي، أريد أن أبوح لك...

قاطعته بارتياب محذرة:

ـ لا تحاول خداعي، ما هو السر؟

ـ أعرف الرجل الذي أشعل الحريق، لن تصدقي من يكون!

ـ قُل، أنا أسمعك.

ـ إنه سرحان الطحّان.

ـ سرحان؟ لا، لا، هذا غير معقول، من أين سمعت هذا الكلام الفارغ؟

ـ لم أسمع ذلك، لقد رأيته قبل الحريق قادما من ناحية الحي اليهودي، كان عارياً تماما وكلبه دغمار إلى جواره.

ـ اسمع، لن أسمح لك أن تسيء إلى جارنا الطيب، لعلك رأيت دغمار يطارد الرجل العاري؟

ـ بل هو رجل يتدلى عضو كبير بين فخذيه، لقد رأيته بوضوح، إنه سرحان الطحان دون شك.

ـ لا يجب أن تتحدث هكذا أمام الصغار، كما لا يستحسن أن تخبر الأهالي، هاأنذا أحذرك.

نظر إلى أطفاله كأنه ينتبه إلى وجودهم لأول مرة، كانوا قد أفاقوا ويلعبون بقيعة الحجرة دون اكتراث، لا يولون المتشاجرين أي انتباه رغم أن أكبرهم غدا في السابعة من عمره، كأنهم اعتادوا على سماع مثل تلك الشجارات كما لو كانت ظاهرة مألوفة كالليل والنهار، خلع ناصر ثوبه المقلوب، ثم ارتداه ثانية، كانت قد توقفت عن حزم ثيابها، بقيت تراقبه كأنها تريد أن تتحقق من نواياه، فكر أن يستبقيها ويشغلها بالحديث عن جاره، فقال يخاطبها بانسجام:

ـ كما ترين يا غنية، الأهالي يمقتون سرحان لسبب ما، لاسيما كبير القرية.

ردت امرأته بانفعال:

ـ هذا لا يهم، إن معظم الرجال هنا أنذال وأوغاد كما تعلم.

ـ يقولون إنه يصيد الأرامل، ويقتات من أموالهن، ويبيت في منازلهن، ثم يهلكهن ويستولي على أملاكهن في النهاية.

ـ لا بأس، لو كنت أرملة لتقدمت بطلب يده، لكني في طريقي إلى ذلك، لا أبالي أن أموت وقد تذوقت بعض اللحظات السعيدة.

سألها بفجيعة:

ـ يا ويلي، هل تطمعين في سرحان زوجاً؟

ـ لا أدري، لكن ما أنا متأكدة منه هو أنني لم أعد أحتمل عشرتك.

حلق الصمت في جو ينذر بالنهاية، أضافت بصوت مخيف:

ـ طلقني يا ناصر.

انعقد لسانه، وحل بجسده خبال شديد، لم يستطع النطق، جاء الأمر الذي كان يخشاه، أسند جبهته إلى الجدار وتاه وسط أفكاره المتضاربة، أخذه التفكير إلى الماضي البعيد، حين كان وسرحان طفلان صغيران يلعبان في هذه الحجرة، لم يكونا شقيقين بطبيعة الحال، لكنهما ارتبطا بعيش مشترك مدة غير معلومة من الزمن، بدأت القصة بعد أن ماتت أمه بمرض غريب، بعد شهور فاحت إشاعات في القرية عن وجود مودة خاصة بين حبيبة أم سرحان وبين والده غالب حنشات، حدث شجار عنيف بين الجارين، على إثرها طلق مهدي (والد سرحان) امرأته، واقترن بفتاة صغيرة

السن، فأخذت النخوة غالب وتزوج حبيبة لكي يُسكِت أفواه الأهالي، ظل مهدي رغم ذلك يتحسر على امرأته السابقة ويتهم غالب بسرقتها، واحتفظ بحق رعاية ولده سرحان، كانت امرأته الصغيرة تشكوه بشكل دائم، لهذا السبب كان يضربه بقسوة حتى يتمزق جلده ويغشى عليه، كان يفعل ذلك لكي يرضي خاطر امرأته الجديدة، ويحرق قلب "حبيبة" أيضاً.

كانت الأخيرة ترى طفلها يتعذب، تسمع صراخه إلى المنزل المجاور، ولا تستطيع أن تعمل شيئاً من أجله سوى البكاء والدعاء إلى الله أن ينقذه من والده الغاشم، في يوم من الأيام، فر الشقي سرحان من أمام أبيه إلى منزل غالب حنشات، واختبأ تحت جلباب أمه، أقبل الأب الغاضب محتدا، ووقف أسفل النافذة صارخا بصوت كالرعد مخاطباً جاره:

ـ يا غالب حنشات، أعرف أن الولد مختبئ في منزلك، هيا أطلق الولد من دون مشاكل.

كان الفتى سرحان يبكي متشبثاً بساقي أمه، تحركت حبيبة بصعوبة، وألقت نظرة من زاوية النافذة الخشبية إلى الخارج، رأت مهدي متوثباً مشمر الساعدين يمسك عصا رمان غليظة، أدركت إن ضربة واحدة منها كفيلة بإتلاف كفل بغل جامح، وإن فتاها سيموت لو أطلقت سراحه، كان غالب حنشات دفاعياً قوياً برتبة جاويش، يعمل في مبرزة الأمير القاسم في صنعاء، يأتي إلى القرية كل أربعة أشهر، ليمكث في منزله أياماً معدودة، ثم يعود إلى مبرزته، كان رجلاً انطوائياً لا يميل إلى حشر أنفه في شئون الناس، ويبتعد عن المشاكل قدر ما يستطيع، لهذا السبب، أشار إلى امرأته حبيبة أن تسلم الولد إلى أبيه دون تردد، لكنها نظرت إليه وهزت رأسها رافضة تسليمه، كانت تلك أول مرة تخالف فيها

إشارته، بقي ينظر إليها باحتجاج، فصعب عليها أن تمسك أعصابها أمام نظراته النارية وأن تُخيّب أمله، فانكبت على قدميه تقبلهما، وتقول بصوت مختنق حزين:

ـ انظر يا غالب، انه يحمل عصا قد تكسر ظهر ثور يافع، حررني من عصمتك إن أردت، لكني لن أتخل عن ولدي ليموت.

فزّ غالب مرعوباً متأثراً، وعرف أن التخلي عن الولد غالي الثمن أيضاً، طلب من الرجل مهلة ليفكر في حل معقول يجنب الجميع المشاكل، فجاء صوت مهدي عاليا ليخرجه عن طوره:

ـ أتريد أن تسرق مني الولد كما سرقت أمه؟ لا تدع هذه القحبة تتلاعب بك أيها الدفاعي الديوث.

قالها مشيرا إليهما، باصقا على الأرض بتقزز، حين ذلك صوب غالب حنشات ماسورة البندقية السك العتيقة إلى صدر مهدي، وأطلق النار فأرداه، وغادر في الحال ليسلم نفسه للشرطة. عاش سرحان بعد ذلك أعواماً، يفز من نومه في الليل، ويخرج إلى الشارع بلا شعور، وهناك يمشي وسط ظلام حالك حتى تأتي أمه لتعيده إلى فراشه...

كز ناصر حنشات على أسنانه، وقد تشنجت عضلاته حقدا، وهمس لنفسه قائلا بتأثر:

"آه يا سرحان الكلب، كل المشاكل تأتي من تحت رأسك، اقترب من امرأتي لأمزقك إلى قطع صغيرة"

في تلك الوهلة، وبشكل مفاجئ، ارتفع صوت سرحان الذي كان يجول في أرجاء القرية كالمجنون، معلناً عن سخطه الشديد على الأهالي، كما ارتفع صوت غنية القاسي من جواره قائلة بحدة:

ـ ما بالك تكلم نفسك كالمجنون؟ طلقني.

ـ انتظري لحظة، مازال عليّ قبل ذلك أن أصفي حسابي مع أحدهم.

سطع في عينيه وميض شرير، فأخذ فأسه وخرج مسرعاً، وقف على قارعة الطريق متحفزاً، أقبل سرحان يرعد من أقصى الشارع، وقد ازداد هياجه وغروره، فلا أحد من الأهالي استطاع أن يقف في طريقه، بل كانوا جميعا يتحاشونه، ويفرون منه كأنه وحشٌ كاسر، فجأة رأى شخصاً واقفا في طريقه ممسكا بفأس يلمع نصله تحت أشعة الشمس الشارقة، بدا من وضعية وقوفه المتحفزة أنه متأهب للقتال، تقدم سرحان باتجاهه في أول الأمر غير مبال بوقفته المستفزة، لما دنا منه بما فيه الكفاية، عرف شخص المتحدي، إنه آخر شخص توقع أن يتحداه، بل لم يخطر في باله إطلاقا أن يجرؤ جاره أن يعترض طريقه، ماذا يريد هذا المخبول؟ سأل سرحان نفسه وهو يقترب منه، لكن شيئاً ما شدّه من أعماقه، وأوحى إليه أن يتوقف، رأى في وجه هذا الرجل عينين حمراوين متوهجتين تبثان نظرات حارقة وحقدا مميتا، فوجف قلبه الجريء، وجرَّب أن يرفع صوته الصارم محذراً:

ـ ابتعد عن طريقي يا ناصر حنشات.

رد ناصر بصوتٍ باردٍ مخيف:

ـ أنت من يجب أن يبتعد عن طريقي.

ـ عجبا! ها أنا أمشي، وأنت تسد طريقي! ماذا جرى لك؟

ـ لا تتظاهر بالجهل بما أعني، فأنت دائماً تحوم حول منزلي لتسرق امرأتي، اعترف بهذا يا صائد الأرامل ومشعل الحرائق في القرية.

تعالت ضحكات الأهالي المتلصصين في الجوار، راق لهم ما يقوم به ناصر، كانوا يظنون أن الأخير يكمل اللعبة، لا ريب إن كلامهم عن الإزار المقلوب قد جعله يرتاب من جاره، غشيت الحيرة ملامح سرحان واعتراه الضيق، وقال بارتياب:

ـ لا تلهو معي يا جاري، لست في مزاج جيد هذا اليوم.

ـ أتعلم، لست جارك، لن تدرك أنني لا أهزل حتى يقع فأسي في رأسك.

هجم ناصر حنشات على سرحان شاهراً فأسه، كانت غنية قد اقتربت منهما بما يكفي لتذود عن سرحان، بسطت ذراعيها كطائر يحلق عاليا، صارخة بانفعال:

ـ اضربني إن كنت تجرؤ، إياك أن تمس شعرة من رأس سرحان بأذى.

ظل الأهالي شاخصين يتفرجون بحياد إلى ما يجري، لكن بعضهم، ومنهم ربيع البكر، أدركوا إن الأمر لم يعد مسلياً، ظلوا يراقبون متأهبين للتدخل عند الضرورة، لكن ناصر حنشات انكمش ووقف محتاراً، ثم تشجع ورمى بصره وصوته إلى الأهالي قائلاً باستنكار:

ـ انظروا يا رجال! إنها تتحالف مع خصمي سرحان.

ـ طلقني يا ناصر.

ـ لن أطلقك، أعرف أنك تخططين للزواج به، كيف أغواك هذا المجرم؟

ـ لا شأن لك بحياتي، حررني منك يا ناصر.

ـ أيتها الفاجرة، لن أحقق طلبك مهما فعلتِ.

صاح سرحان بضجر:

ـ دعاني وشأني، لا علاقة لي بما يدور بينكما من خلاف، أفسحا لي الطريق كي أمر.

صاحت غنية بحنق:

ـ لن تمر يا سرحان حتى تحررني من هذا الرجل، أرجوك افعل شيئاً.

ـ ماذا بوسعي أن أفعل؟ لا يمكن مناقشة هذا الأمر على قارعة الطريق، أرى أن تعودي وزوجك إلى المنزل وتصطلحان.

ـ لقد وصلنا إلى طريق مسدود، لذا سأرحل إلى أهلي.

ـ افعلي هذا من أجلي، ليلة واحدة على الأقل.

ـ نعم، سأفعل هذا من أجلك وحسب.

عادت إلى منزلها، فابتعد ناصر عن طريق سرحان، ومال إلى الأهالي، وأخذ يسألهم عن الوسيلة المناسبة للتعامل مع امرأة متمردة مثل غنية.

15

وصل إلى منزل روضة بسلام، أخذ يتفقد الغرف والأبواب والنوافذ، صار عليه أن يقوم ببعض الأعمال الضرورية. لقد أصبح أرملاً مرة أخرى، تحتم عليه أن يغسل ملابسه، ويشطف ملابس بناته وولده، غدت ابنته صفية في العاشرة من عمرها، أمست تساهم في العمل، تكنس الدار، وترعى شقيقاتها وأخيها سعد وتغسلهم عند البئر، باتت فاطمة بنت روضة تعد الفطور، ثم تذهب لرعي الأغنام، ولا تعود إلا مع الغروب، ويكون لديها مخزون من الجهد لتعد وجبة العشاء أيضاً، تبقى وجبة الغداء مفقودة، بحيث تمكث العائلة جائعة يائسة حتى تنتبه الجارات إلى ذلك، لا شيء يخفى على الجيران في رابعة النهار، لقد اعتاد الأهالي أن يروا الدخان يتأجج من المدخنة في منزل روضة، أثناء مرضها وعجزها كان بيت النار يدار بواسطة الجارات اللواتي وصلت إليهن خدمات روضة في وقت سابق، كان المنزل يظل مكتظا بالزائرات، حتى أعمال الغسل والنظافة وحرث الأرض وزراعتها كانت تدار بشكل غامض، لا يعرف سرحان من اعتنى بالأرض في تلك الفترة! لكن بعد أن رحلت لم تشتعل النار في تنورها الطيني، وانتقل إلى سرحان عبء الإشراف على أرض روضة، لا يظن أن أحداً من الرجال سيساعده، حتى لن يعملوا معه مقابل الأجر، كان يعرف هذا جيداً، لذا انطلق في عز الظهيرة إلى قرية "الدَخْلَة" المجاورة وسط لهيب شمس حارقة، وأجَّر الأرض لفلاح يعرفه من قبل، وفي طريق عودته مر على شخص آخر في قرية سيلان يدعى حمود، وعرض عليه أن يأخذ البقرة الحمراء، فقبلت

امرأة الفلاح على الفور، كانت لطيفة للغاية، بحيث طلبت منه أن يمكث لتناول الطعام معهم، لكنه كابر واعتذر، إذ لا يجوز أن يأكل شيئاً، وأطفاله يتضورون جوعاً، عاد إلى القرية وقت العصر جائعاً منهك الجسد، متخففاً قليلاً من الأعباء.

رأى الجوع يعصر أجساد بناته وولده، فقال لنفسه لاهياً: "أي امرأة ستتكفل بغداء اليوم سأعاشرها امتناناً" بعد قليل أقبلت امرأة مُنقبة مكحلة العينين على رأسها سلّة كبيرة مليئة بأطباق متنوعة، حين أماطت الغطاء عن الطعام، برزت أفخاذ ثلاث دجاجات مشوية يفتح عبقها النفس ويسيل اللعاب، هرع الأطفال إليها مثل كتاكيت رأت الحبوب على الأرض، بُهت الأب المنهك، وجعل يقلب عينيه في أطباق أخرى، عصيدة، بطاطا، بيض، حساء مرق، وخبز ساخن، لم تكن هذه المرأة كبيرة، ولا فتاة في ميعة الشباب، بل أنثى ممتلئة، زينتها ظاهرة، ورائحة الحبق تفوح منها، أتت بلا شك لتعرض نفسها عليه وتغويه، لم يعرفها بسبب الخمار الرمادي المضروب على رأسها، بقي وجهها هو الطبق المفضل الذي يتوق إلى أكله بعينيه الفضوليتين الممتنتين، لا يعقل أن يتناول طعاماً وهو يجهل من أعده، كان قد حدث نفسه أيضاً إن إناث القرية أطيب وأرق وأكثر جرأة من الذكور، طالما يكسرن الحصار المفروض عليه من الرجال الأفظاظ، يجلبن له الطعام بهذه الطريقة تفادياً للمشاكل، كل واحدة منهن تُعرِّف نفسها له قائلة: "أنا فلانة أو زوج فلان، خذ هنيئاً، لا تخبر أحداً عن مجيئي إليك". البعض منهن تكتفي بخلع القناع عن وجهها ولا تقل شيئاً، لكن هذه المرأة ظلت واقفة تحدق في وجهه بصمت، ثم صغرت عيناها بشكل لافت، وهيئ له أنها تضحك على حيرته واضطرابه، أحس بالحرج بفعل سخاء الوجبة، وقال مندهشاً:

ـ أوه، هذه أكبر وجبة حظيت بها! لكني أظن أن هذا الطعام يزيد عن حاجتنا، لا أعرف كيف أتصرف حيال كرمك.

أجابت بارتياح:

ـ لا تشغل نفسك، كلوا هنيئاً، انظر إلى بناتك كيف يأكلن بنهم، إنهن جائعات.

لمح بناته بحزن، كن يأكلن بشراهة، لم يدع لهن الجوع شيئاً من اللياقة لانتظاره، لكنه لم يكترث، فهن يتصارعن ويتهافتن على دجاجتين، مازال هناك دجاجة مغطاة داخل أحد الأطباق لم ينتبهن لها، ما يشغله الآن هو صوت هذه المرأة الخالد في ذهنه، يعوزه فقط بعض التركيز والفراسة ليعرف من تكون، يبدو أنها أرادت أن تخلصه من العناء ليطمئن ويأكل مرتاح البال، فاستدركت بتشفٍ:

ـ ذبحت دجاجات "ناصر" الأربع، وطبخت هذه الوجبة الدسمة لمن يستحقها.

ـ هذا لا يجوز.

ـ لا تُبال بغضب زوجي، فالثعالب تسطو على المنازل، لن يدرك غيابها، لأنه غائب دوماً، إنه متزوج بالكبير مرشد والأهالي.

خرجت من المنزل متسللة بخفة ثعلب، أكل سرحان بتقشف شديد، كان يلوك اللقيمات بلا رغبة، أخذ يفكر بضيق، ماذا تريد منه هذه المرأة؟ كل شيء فيها مريب، كرمها المبالغ فيه، قحتها، إصرارها على التخلص من زوجها، اقترابها الجريء منه، لا يرغب في مجاراتها والانجراف معها نحو أمور لا تحمد عقباها، لن يكون لعبة بأيدي النساء، إنه قادر على دفع ثمن الطعام الذي يأكله، نظر إلى بناته وولده باغتمام، ينبغي أن أتوقف عن العبث، أليس كذلك يا

سعد؟ لم تعد يا بني تكرر عباراتك الملثوغة، لم أعد أسمعك تقول "غط"، قلها في وجه والدك حين يشط عن الطريق الصحيح، غريب أن تصمت هكذا، ها هي التميمة عالقة في عنقك، ماذا جرى لك؟

مد سرحان أصابعه الغليظة بحذر، وأمسك غلاف التميمة، وقلبه بين أصابعه باهتمام، كان خفيفاً يُحس باليد، بل يبدو فارغاً بوضوح، بُهت لهذا الاكتشاف المريع، سخن جسده وتعرق جبينه، توقف عن الأكل وانتحى جانباً، جعل ينظر إلى ابنته صفية بصبر حابساً كلامه في ذهنه حتى فرغت من طعامها، أخذها إلى الغرفة المجاورة، وأجرى معها تحقيقاً هادئاً رغم توتره، لا يدرك المدة التي لم يسمع فيها عبارات ولده الملثوغة، شهر، شهران، أو ثلاثة، لا يدري، سألها سؤالاً حاسماً مكرراً: متى نُزِعت التميمة من عنق الفتى؟ أكدت أنها لا تعرف قطعاً أنها مفقودة. طلب منها أن تتذكر، سقطت دموع الفتاة من عينيها كحبيبات البرد، خافت أن يكون ضياع التميمة مؤذياً لشقيقها الصغير، هي في العادة لا تنزعها من عنقه إلا عند الاستحمام، وهو في الغالب ولأسباب احترازية لا يستحم إلا في المنزل، لكنها في يوم وحيد أخذته إلى البئر، هناك خلعت ثيابه وتميمته وتركتها بحرص على غصن في إحدى الشجيرات، سألها والدها أن تحصي جميع الوجوه التي رأتها عند البئر، لاسيما الرجال، الرجال فقط، هل اغتسل أحدهم هناك في ذلك اليوم؟ فجأة اندفعت صفية تتحدث بانفعال وحماس، ذكرت اسم رجل واحد استحم عند البئر، إنه ربيع البكر الذي جاء على عجل، خلع ملابسه وعلَّقها على الغصن قرب ملابس سعد، سكب على نفسه طاستين من الماء وحسب، ثم اتجه إلى ثيابه بسرعة، واسقط سرواله بحيث ظهرت مؤخرته، فضحك الأطفال، وخجلت النساء، وأشحن أنظارهن بعيداً، فظل يعبث بالملابس غير مكترث إلى

عريه، ثم ارتداها على عجل، وغادر ملقياً نظرة غريبة متهكمة إلى سعد، وراح يضحك حتى غاب عن الأنظار. فكر سرحان في الأمر، ولده هادئ مستكين من دون التميمة، وهذا أمر حسن، لكن خموله وهدوئه يثيران قلقه أيضا، بحيث ليبدو من دونها ناقص الخلقة، وكأنها عضو من أعضاء جسده الحيوية التي تمده بالنشاط والحركة، وأعظم من هذا وذاك، أن هيبته هو قد نزعت منه، ولم يعد أحدٌ من الرجال يهتم به أو بولده، بل لعل هذا الجفاء والمقت يأتي بفعل غياب التميمة الحارسة. أطلق سرحان تنهيدة قوية خرجت حارة من صدره مع زفرة شديدة وقال لنفسه بحسرة: "آه يا سعد، لقد أهملتك كثيراً، ولم أعرف كيف استغل مهاراتك وفلتات لسانك، فالناس هنا يؤمنون بك، كان بوسعي أن أكذب عليهم وأستغلهم، وهذا ما فعله الكبير مرشد، لكني لن أخلد للراحة حتى أستعيد التميمة الحارسة ".

نادي كلبه دغمار، فهب الحيوان واثباً إلى أمام سيده، شممه غلاف التميمة والسلسلة الذهبية، وأمره أن يخرج ليقتفي الرائحة، تلكأ الحيوان، بدا هذا عصياً على فهم كلب قروي، عذره سرحان، فهو ماهر في جلب الأشياء المادية المحسوسة التي اعتاد أن يراها في معيته، كالمشرعة أو الحذاء، أما ورقتان أو ورقة صغيرة مطوية فلا يستطيع الشيطان العثور عليها، لا شك أنها مطمورة بمكان ما أو أحرقت، طرد الكلب من أمامه يائساً، فخرج يشم الأرض متنقلا من مكان إلى آخر حتى وصل إلى قرب باب منزل مفتوح، وهناك أخذ ينبح بشدة، خرج ربيع البكر غاضباً ينتفض حقداً على الكلب وصاحبه، أطلق عليه النار، فأخطأه، وولى الكلب هاربا، وظهر الأهالي من أبواب منازلهم متسائلين، والبعض صعدوا إلى السطوح للاستطلاع، لم يكن إطلاق النار في القرية شيئاً معتاداً، في نهاية المطاف عرفوا ما جرى، فهزوا أيديهم باستهانة كأن شيئاً لم يكن.

انطلق سرحان باحثاً عن كلبه، رآه يركض صوبه لاهثاً، سمع صوت ربيع وهو يصب اللعنات على الكلب وصاحبه، فطن أن ورقة التميمة في منزل ربيع البكر، لكن كيف يمكن الوصول إليها؟ سأل سرحان نفسه بضيق، أخذ يبني الخطط تلو الخطط، ثم يهدمها في لحظات وجيزة، فكر أن يتسلل خلسة إلى المنزل أو يقتحمه، في كلتا الحالتين قد لا يعثر على التميمة، سوف يتهم بالسرقة أو السطو، لن يتردد الكبير مرشد عن بعث الشكوى إلى القضاء، ومن ثم تصطاده جنود العامل، ويودع في السجن، ليس هناك سبيل سوى اللجوء إلى الحيلة، لكن كيف؟ أوجعت الخطط الفاشلة رأس سرحان، وجد صعوبة شديدة في ابتكار حيلة مناسبة، هو رجل عفوي واضح، لا يجيد المكر، ما في قلبه يظهر للعلن بواسطة لسانه، مكث على فراشه ساهراً، هفا قلبه إلى صديق يتبادل معه أطراف الحديث، إلى جواره يربض كلبه المخلص، لكنه للأسف مجرد حيوان يقوم بمهمة الحارس النبيه الشرس، بحيث لا يحط طائر على سطح المنزل أو يتحرك فأر، حتى يثب وينبح بضراوة، ها هو يشعر بالأمان بحضوره، غير أن احتياجات الإنسان كثيرة، ورغباته لا تنتهي، فإذا توفر الاطمئنان يصبح القلب مفتوحاً شرهاً، تتوق النفس إلى أمور أخرى صغيرة وتافهة، لقد انصرف عنه جميع الأصحاب، وهذا حزَّ في نفسه رغم الهدوء الذي أعقب ذهابهم، تمنى أن يثوب حمود الذيب إلى رشده ويزوره، ويتحدثان قليلاً كما كانا يفعلا في الماضي، هل أمست الصداقة في القرية من المحرمات؟ فجأة سمع أحدهم يقرع الباب بشدة، كانت أول قرعات منذ زمن، بحيث وثب دغمار متأهباً للتصدي لأي اعتداء، وقفز سرحان إلى الباب خائفاً وآملاً في آن، وفتحه دون أن يسأل عن الطارق، اندفع نحوه جسد طري ارتمى على صدره، رافقه هذا الصوت الشاكي:

ـ أغثني يا سرحان.

هاجم دغمار المرأة القادمة المستغيثة، ومزق ثوبها الخفيف، أفاق سرحان من دهشته، فأبعده عنها وخلصها بصعوبة من بين أسنانه الحادة، انسحب الحيوان مصدرا صوتاً غاضباً خفيفاً، مال جانباً حتى ربض في موضعه السابق، التصقت المرأة الراجفة بجسده، أحس بلحمها العاري، فانتصب ذكره، حينها شعر بكدر حقيقي، كلما قام ذلك الحيوان الأعمى في جسده لا يجني من وراء ذلك سوى المزيد من المتاعب، لا ريب أنه سيتسبب بمقتله في يوم ما، لقد رأى الموت جهاراً في عيني ناصر حنشات، فكيف لو ضبطهما أو رآهما ملتصقين هكذا! في تلك الأثناء، انفتِح باب حجرة فاطمة، تلافى سرحان الموقف قائلاً بتلبك:

ـ اطمئني يا بنيتي، لقد هاجم دغمار المرأة العارية فلاذت بالفرار ولن تعود ثانية.

أوصدت فاطمة باب حجرتها، وساد الصمت بضع لحظات، ماذا ستظن به هذه الفتاة اليتيمة؟ هل فطنت إلى ما جرى أم لا؟ فكر سرحان بذلك وازداد غماً على غم، همست غنية بخفوت:

ـ هل سنظل واقفين هنا أم أعجبك الحال؟

أزاح جسده عن جسدها مرغما، سار متلمساً طريقه في الظلام، وهي متشبثة بجسده من الخلف، همست:

ـ كلبك مجنون، لقد مزق ثيابي وعرَّاني.

ـ إيه، لقد كان يحسبك المرأة العارية.

ـ ها قد أصبحت امرأة عارية حقا، لا أدري كيف سأعود إلى منزلي.

ـ اطمئني، لن أدعك تمكثين طويلاً في غرفتي.

حين أغلق باب حجرته خلفها همس قائلاً بحدة:

ـ ما جاء بك إليّ هذه الليلة؟

جلست تشكو بحرقة، لقد اكتشف ناصر حنشات أمر اختفاء دجاجاته، فجن جنونه، لم يصدق ذريعة الثعلب، بل فسر اختفائها على طريقته الخاصة، هناك ثعلب بشري يلتهم الدجاجات، لا يبعد مأواه كثيراً عن منزله، أفصح أنه يخشى أن يخطف الدجاجة الكبيرة، ويقصدها هيّ بذلك، ثم شتمها وأسمعها من الكلام ما لا يقال، وهي صامتة صابرة...

ـ ناصر يفعل ذلك! أنت تهذين.

لم يعد ناصر ذلك الشخص السابق، بل أمسى عنيفاً جريئاً، بحيث زال ارتعاشه وخوفه، انقلب بشكل مفاجئ من نعجة إلى ذئب خلال يوم واحد، لا تدري كيف حدث ذلك؟ لا ريب أن الكبير مرشد أعطاه دواءً يقوي القلب، أو سكن جسده شيطان.

ـ عجباً، غنية تصبر على الشتائم!

نعم، تصبر من أجل أولادها وجيرانها الطيبين، لكن الأمر لم ينته عند الشتائم، بل جاء هذه الليلة من مجلس كبير القرية مترنحاً تفوح من أنفاسه رائحة حادة كريهة، فصفعها على وجهها بقسوة، وهددها بالقتل، بعدها سقط على وجهه وراح يصرخ ويضحك، فهربت في الحال، لأنها تخشى أن يفيق ويقوم بتنفيذ وعيده، لم تجد موضعاً أكثر أماناً من منزل جارها الطيب.

قال سرحان بيقين:

ـ أصبح الرحيل إلى بيت أهلك أمراً لا مفر منه.

اعترضت، لم يعد هذا الخيار وارداً الآن، لن يجرؤ ناصر على فعل أبشع مما فعل، سيضربها في أسوء الأحوال، ثم يسقط في خدر طويل، وهي ستلجأ إلى الثعلب، أو بالأحرى إلى منزل جارها الطيب، ثم تعود إلى زوجها الدائخ متسللة قرب الفجر، لتنام إلى جواره كأن شيئاً لم يحدث، ستعيش هكذا لأجل أطفالها، وتتصالح مع وضعها السيئ.

أحس سرحان بالندم إذ أحبط رغبتها في المغادرة إلى بيت أهلها في وقت سابق، وقال باهتمام:

ـ إنك ترمين نفسك وترميني في قلب المتاعب والأخطار.

تكلم عن التعاسة التي تصاحبه، وتصيب الأشخاص الذين يدورون في فلكه، عن النساء اللواتي عشن معه ببؤس وآلت حياتهن إلى الفَنَاء... اقتربت منه على نحو خطير بحيث سدت عليه منافذ الهرب، باسطة أمامه حلا غريبا لهذه المسألة الشائكة.

ـ النهار لناصر، والليل لك، لا تطمع بأكثر من ذلك.

طرحت الكلمات أمامه كما لو كان يساومها على البقاء معه طوال الوقت، دقّت على أوتار وحدته وعزلته وشبقه، بدت تحدثه عن مخاطرتها الجسيمة في كسب وده، وتكسيرها الأسوار التي فرضها الأهالي حوله، ستسلم له كل شيء، وتكون جاسوسه وصديقه الأمين، سوف تسترق من ناصر ما يقرره الأهالي في اجتماعاتهم المتكررة، فهو ساذج رغم قسوته، ستفعل أي شيء في سبيل إرضائه، هذه الليلة ستكون للتعارف وتجاذب أطراف الحديث، ولا ضير من مقاربة بعض المتع السطحية، كالقبل والعناق، وفي الليلة القادمة سوف يجوسان بلا تحفظ طرقات وشوارع اللذة حتى يصيح آخر الديوك معلناً عن الفجر، صمت سرحان، وفي الصمت قبول

وأمل، قال لنفسه: "سحقاً للرجال، ماذا أبغي من صداقة حمود الذيب؟"

مال إليها، وطوّفها في جميع دهاليز وممرات اللذة، راحت تصرخ من دهشتها ومتعتها، خشي أن يسمع ناصر حنشات الصراخ فيفيق من سكرته، ويأتي ويصرعه بالفأس، لكن الليلة انتهت بسلام، كانت غنية مخدرة مسترخية تنعس، أخيرا قامت متحاملة على نفسها حين صاح ديك الفجر، شحذت همتها للعودة، خرجت من الباب متسللة، كان دغمار بالقرب مثاراً متحفزاً، وهو لا يفعل ذلك دون سبب وجيه، وقف سرحان منتشياً عند المدخل يراقب ويتنسم الهواء، لكن المرأة تراجعت ووقفت ثابتة في مكانها، كانت النجوم مازالت سامرة في السماء، بحيث عكس ضوؤها الطفيف الشفاف طيف شبح واقف بتأهب وسط الشارع، لاحظ سرحان جمود غنية وترددها! تقدم باتجاهها متعجبا، قفز دغمار فجأة وجعل يجري بسرعة عجيبة، أخذ الشبح يعدو مبتعداً حتى غاب بين الأزقة، أدركت غنية إن أول الأخطار التي تواجهها هي المرأة العارية، وليس ناصر حنشات كما كانت تظن، لكنها الآن سعيدة ومشبعة، ولا تكترث مادام دغمار إلى جانبها.

ظلت تأتي جالبة الأخبار عما يدور في مجلس كبير القرية، لقد قرر الرجال أخيراً أن يصطادوا الكائنين العاريين قبل أن يشعلا المزيد من المنازل، سوف يتعرى الأهالي في المساء نهاية الأسبوع، ويجولون في شوارع القرية ملوثين بالرماد حتى يمسكون بهما، عرض سرحان عليها مشكلة التميمة، فدقت صدرها قائلة بيقين:

ـ بعد أيام تراها في عنق ولدك سعد.

بدت واثقة من نفسها مثل شياطين الخاتم، لم تمض ليلة دون أخبار تأتي طرية كالخبز الساخن، زواج الكبير مرشد ومريمة تقرر

موعده بعد القبض على الكائنين الدخيلين، الفقيه عايض يتلقى مضايقات شديدة من الأهالي لإرغامه على الرحيل، لم يعد أحد يزوده ومعلمه بالطعام أو بمياه الشرب في منزل زكية، ما جعله يلجأ إلى التعاويذ السحرية، صار يسرق الطعام وقناني الماء من المنازل المجاورة ليتغذى ويطعم معلمه المريض، اشتكت النساء من اختفاء بعض الكعك والطعام في ظروف غامضة، ما دفع الكبير مرشد إلى تنبيه معلمه أن الأهالي قرروا طرد الغرباء من قريتهم، فاعترف الفقيه عايض أنه مجبر على مخالفة وصايا السحرة القدامى، رغم ما ينتظره من عقاب، ولن يغادر حتى يشفى معلمه، ناصر حنشات أصبح شخصاً مرموقاً بعد أن فرض سيطرته على امرأته، وصار مقرباً من الكبير مرشد، مثله مثل ربيع البكر، بات لا يتأخر عن المناسبات والاجتماعات التي يقوم بها الأهالي.

ليلة الخميس، قرر المجتمعون أن يقود ناصر حنشات حملة القبض على الكائنين، لأنه أكثر الرجال حزماً في منزله وأكثرهم كتماناً للأسرار، ضحك سرحان وغنية على هذا الشأن، لأن الأخبار التي تجلبها غنية يهذي بها عقب عودته وهو ثمل، في ليلة قريبة أتت الأخيرة وأفصحت أن زوجها عاد منتشياً ثملاً بانتصاره والأهالي، لأنهم تمكنوا من الإيقاع بالكائنين العاريين، كان ذلك حقيقيا، في الصباح لم يجرؤ سرحان على النظر إليهما، وهما مربوطان بالسيور الجلدية على جدار أهم معلم معماري في القرية، وهو الكنيس اليهودي الذي شيده شياطين الخاتم، أخبرته غنية أن العيلوم حاييم احتج وقال إن هذين الكائنين هما أقذر ما خلق الله، وحاشا الله من كل سوء، ورغم أنهما من أشباه البشر، إلا أنهما كائنان غريبان قذران، لا يجوز أن يوثقا إلى جدار الكنيس المقدس، بل إن أنسب

مكان لهما هو زريبة خنازير أو منزل مهجور أو على جذع شجرة شوكية خارج القرية، ومضى يردد في غضب أهوج:

" سامح الله المسلمين، لأنهم لا يحبون اليهود، ألا يكفي ما أحدثوه من أضرار بالكنيس! لِمَ لا يضعوهما على جدار المسجد؟ أم يريدون أن تتنزل على القرية صاعقة من السماء، فتهلك مثل ديار السامري!".

لم يعبأ الأهالي المسلمون بمشاعر اليهود، حتى جاءوا رجالاً ونساء وأطفالاً وشباباً وشيباً، وداروا حول الكنيس، أخرجوا كتبهم المقدسة، وراحوا يقرؤون التلمود بصوت عالٍ شاكين إلى الله مما حدث، صاروا يصلون ويهزون أجسادهم مثل قصب ذرة تتلاعب فيها الريح، أقلقت صلاتهم وسلوكهم هذا المسلمين، فاضطروا أن ينقلوهما إلى جدار منزل زكية، لكن دمدمة أصوات اليهود الهادرة لاحقتهم، وظلوا ينقلوهما من موضع إلى آخر، حتى انتهى بهما المطاف على جذع شجرة طلْح ضخمة نابتة على مشارف القرية، حينئذٍ توقف المحتجون اليهود وانضموا إلى صفوف المتفرجين.

ذهب سرحان متهادياً في مشيته، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ببطء، كيف سيقابل المرأة العارية وينظر في عينيها، وهو يدرك أنها امرأته زكية! لكن هاجساً غاضباً غمر روحه وشحذه بالقسوة والصلف، إنها قاتلة مختلة العقل، كادت أن تقضي على حياته، ومازالت تهدده وتطارده، أخذ يشد خطواته ملحاً في السير بلا هوادة، شاهد هناك مجموعات متكتلة من الناس يلتفون حول الشجرة الشوكية، هاله المنظر! هل هؤلاء سكان القرية أم هم أشخاص جاءوا للفرجة من القرى المجاورة؟ كان هناك لفيف من الأطفال الذين فزعوا من قبل، يقفزون كالفراشات فرحين بهذا المشهد الغريب، توغل بين الجموع، شاقاً طريقه بواسطة منكبيه

القويين حتى تمكن من الوصول إلى المقدمة، أطل على المشهد عن كثب، بدت المرأة العارية مقرفصة بانكسار كأنها تداري عريها عن الأنظار، كان رفيقها منتصبا بلا مبالاة يرسف بقيوده متحركاً ببطء، هناك سيران جلديان متينان مصنوعان من جلود الثيران الهرمة يطوقان عنقيهما، موصولان إلى فرع قوي في الشجرة.

تأملها بتمعن، وجهها، عينيها، شعرها المنكوش، وجسدها القاتم الذي لوحته الشمس بحيث صار بلون التراب، أنكرتها عيناه لأول وهلة، لا شيء فيها يوحي أنها زكية، إحساسه فقط، وقلبه أيضاً يؤكدان أنها هي، أيهما يصدق، عينيه أم إحساسه؟ تأمل رفيقها الآخر وأخذ يفكر محدثاً نفسه: أهو الكبير عون؟ لا، لا، ليس هو، هذا شخص آخر، رجل شائب يضارعه في السن، يبدو بلا عضو تناسلي... توقف عن التفكير حين استقامت المرأة العارية على نحو مباغت، متحفزة بوضوح، ظهرت عانتها الكثة ونهداها المتهدلان، جعلت النساء يتذمرن بأصوات خافتة خجولة، طالبات من الله الستر، ومن الرجال إسدال غطاء على منطقتي الصدر والجذع، لكن الرجال اقترحوا بغضب أن تتقدم إحداهن وتقوم بهذه المهمة، لذن بالسكوت متجهمات، بدا واضحا ألا أحد يجرؤ على الاقتراب من هذه المرأة المتوحشة التي خربشت بأظافرها الحادة الطويلة وجوه الرجال، وعضّت أطرافهم، وعاركتهم ملياً، لكنهم أخيرا تكاثروا عليها كالذباب حتى صاروا عشرين رجلاً، وبالكاد لفوا على جسدها السيور الجلدية، أما رفيقها المسن، فقد أخضعه ثلاثة رجال فقط.

لذا شعر المتفرجون بالفزع من نهوضها المباغت، رأوها تشم الهواء ككلب جائع متلصص، محدقة في وجوه الرجال باهتمام، حتى وقف بصرها على وجه سرحان الطحّان، سرعان ما اتسعت

حدقتا عينيها أكثر واحمر بياضهما، وأخذت تشد السير الجلدي فاردة ذراعيها باتجاهه كأنها تريد معانقته أو خنقه، ارتعش سرحان وانكمش بموضعه مندهشاً، سأله الكبير مرشد بتهكم:

ـ هل لازلت تظنها زكية؟

صمت برهة ثم أجاب بقلق:

ـ لا أدري، إنها مخيفة، وتتصرف بغرابة.

ـ هذا صحيح، ناهيك أنها تنظر إليك كأنها مغرمة بك، كيف أغويتها يا صائد النساء! اقترب منها، إنها تريدك، لا تكن قاسياً.

تخيل سرحان حاله لو أمسكت به، ستمزقه إرباً، إن الكبير مرشد يسخر منه، ما أبغضه! الأفضل ألا يصطدم معه بالكلام، إنه غاضب ومضطرب، لن يتحمل المزيد من السخرية، لعل الكبير يحاول استفزازه وجرّه إلى ارتكاب فعل أحمق، من المستحسن أن ينسحب.. فكر سرحان، وتراجع إلى الجهة الأخرى من الشجرة، حيث تتواجد معظم النساء، لم يتعمد ذلك، لكنه المكان الخالي من البغض والاستفزاز، هناك رأى غنية عفو المصادفة، فتبسمت بامتنان غامزة بعينها، ثم زمت شفتيها باعثة قُبلة طارت في الهواء، وصلت إليه دافئة حنونة، لحسن الحظ لم يلحظ أحد ذلك رغم الزحام، امتلأت نفسه بالنشوة وزال كدره، بعد قليل أقبلت فاطمة امرأة الكبير عون، رآها تقترب بتردد وخوف كما فعل هو سابقاً، هنا يوجد الرجل الذي اقتحم غرفتها، ربما رغبت أن تراه لتزيل عن نفسها الوساوس والظنون، لأجل ذلك تسللت برهبة، ولبدت بعيداً خلف الرجل العاري، بدت كأنها تخشى النظر في عينيه الخارقتين مرة أخرى.

رغم حذرها تحرك الرجل العاري مهتاجاً، وأخذ يوجه أنفه إلى الفراغ ويستنشق الهواء من حوله، ثم التفت فجأة إلى الخلف، وثبّت عينيه في وجهها، فاقشعر جسدها رعبا وأغمضت عينيها صارخة بهلع:

ـ أنقذوني من هذا الرجل المعتوه، إنه يخيفني، ماذا يريد مني؟

اضطرب حال الكبير مرشد، وتحرك في موضعه بقلق، كأنما انتبه إلى غرابة ما يحدث، ماذا يعني ذلك؟ دار هذا السؤال في ذهنه، أراد أن يسأل الأهالي، لكنه لم يحبذ أن يفعل ذلك دون مقدمات وإلا أصبح السؤال فارغ المعنى، انطلق قائلاً بصوت جهور ليوحي بأهمية كلامه:

ـ هيه، يا أهالي الرباط، ألم تلحظوا كيف فعلت المرأة العارية حين جاء سرحان؟ والآن الرجل العاري يفعل ذلك حين أتت فاطمة...

قاطعته الأرملة بوجل:

ـ ماذا يعني ذلك يا كبير القرية؟

صرخ قائلا بغضب:

ـ أنا من يسأل هنا، ماذا يعني ذلك؟ أهذا الرجل هو عون، وهذه المرأة هي زكية؟

فزت فاطمة مجيبة بارتياب:

ـ هذا غير صحيح، انظر إلى شكله ووجهه المشعر الكالح، لا أظنه الكبير عون.

ـ والمرأة العارية، أهي زكية؟ هل تشبهها؟

رد قاسم عوض بانفعال:

ـ ليست زكية يا مجانين، كانت زكية تبهر العقول، وتسحر قلوب الزهاد والمتعبدين، أما هذه المرأة فهي كومة قذارة متحركة.

ـ ماذا نفعل في هذين الكائنين اللعينين اللذين يطاردان الأهالي ويحرقان المنازل؟

رد ربيع البكر بنبرات حادة:

ـ لندعهما مقيدين قرب الهضبة لتنهشهما الوحوش.

ـ كلا، إنهما الوحشان الوحيدان في قاع الحقل، فكروا في حل آخر.

ـ لنشعل فيهما النار.

ـ كلا، ستفوح منهما رائحة مؤذية، وقد تكون سامة تنشر الوباء في القرية.

ـ نرميهما في البئر.

ـ كلا ، هذا انتحار شامل، لأننا نشرب منه وتشرب مواشينا.

ـ نغسلهما جيداً بالماء لتزول عنهما الأقذار، ثم ندعهما يرتديان بعض الملابس النظيفة، وأحبذ أن ترتدي المرأة ملابس زكية، والرجل يرتدي ملابس الكبير عون...

قطع الكبير مرشد كلام سرحان قائلا بغيظ:

ـ أفكارك مجنونة على الدوام، ولن نجني منها هذه المرة سوى التعب وتبديد الوقت، نحن نريد أن نتخلص منهما بطريقة ما، لا أن نزينهما كالعروسين.

بدا الأهالي شاردين يفكرون بصمت حتى أضاف ربيع البكر مشكلة جديدة قائلاً:

ـ أتظنون أن يسلمانا جسديهما كالأطفال، هيا ليرينا سرحان شجاعته ويلمس المرأة بطرف إصبعه، وله مني جائزة.

عاد الصمت من جديد حتى بددته فاطمة قائلة بحزن:

ـ أعرف إن الاقتراب منهما لن يكون مأمون العواقب، لكن أتظنون أن المجازفة بغسلهما وإلباسهما تساوي لحظة أمل أو يأس كابدتهما في انتظار عودة عون؟

هز الرجال رؤوسهم بيقين، أصبح الجو مشحوناً بالتأثر، ترقرقت الدموع من عيون النساء، وتصاعدت الشهقات والأنات من هنا وهناك، وساد المكان بكاء صامت خجول حتى راودت بعض النساء الرغبة في العويل لشفاء الصدور الموجوعة، لكن الكبير مرشد تلافي الأمر، صائحا بجذل وهو يرنو إلى مريمة بشغف:

ـ هيه، يا نساء القرية، زفافي ومريمة سيحل قريبا، سأكسوها أجمل الحرير، وأجلب المغنيات وأذبح وأقدح، وأدعو أكبر عدد من الضيوف المحترمين للوليمة، لذا سنحتال بطريقة ما، ونغسل هذين الكائنين ونكسوهما استعداداً للزفاف، هيا زغردن.

زغردت النساء، وأحطن بمريمة، وساد جو من الضحك والمرح، وراودت بعض المراهقات رغبة الرقص على شرف العروس القادمة، حتى فاطمة ابتهجت ونسيت أمر زوجها الكبير عون، لقد أدركن في وقت سابق أن موعد الزفاف لا يمكن تحديده في ظل وجود هذين الكائنين، هذا ما أكده الكبير مرشد لخطيبته من قبل، وهي نقلت هذا الخبر كما هو للنساء، بحيث ظلت كلمة "قريباً" وعبارة " لن يطول الوقت" على طرف لسان مريمة والكبير مرشد، لكن الأمور الآن تغيرت بعد القبض على الكائنين العاريين، ومن ثم صار الزواج وشيكاً.

بدأ الرجال يشحذون هممهم ويفكرون كيف يجعلون الكائنين العاريين يرتديان ملابس لائقة، منحهم التأثر ثم الفرح طاقة كافية من الحماس والنشاط، هذه المرة أيضا تألق ناصر حنشات ثانية، وأثبت مهارته وفطنته، فبعد أن قاد مهمة القبض على الكائنين، ابتكر خطة الإمساك بهما بسهولة من أجل غسلهما وإلباسهما دون مقاومة تذكر، طلب قنينتين كبيرتين من النبيذ الأبيض، ووضعهما في وقت متأخر من المساء قرب الشجرة، ما لبث الرجال أن عادوا في الصباح، وحملوا الكائنين المخدرين ساترين أنوفهم وسط الشيلان الغليظة لفرط رائحتهما التي لا تطاق، ذهبوا بهما إلى البئر وغسلوهما مرات عديدة حتى ذابت عن جسديهما طبقات سوداء من الأقذار المزمنة، خف جسداهما وصارا أنحل عوداً، تسلمت النساء المرأة العارية ونفضن عنها غبار زمن طويل من الإهمال والتشرد، صففن شعرها ومسدن جسدها وعطرنها، ثم ألبسنها ملابس زكية القديمة، فتحولت بمعجزة إلى امرأة تشبه زكية، الرجال كذلك شذبوا شعر الرجل العاري الملبد ولحيته البيضاء الكثة، وألبسوه شال الكبير عون وملابسه الرجالية المهيبة، حينئذٍ فقط عرفته فاطمة، وخرّت جواره منهارة، لكن الرجال اضطروا إلى ربطهما بالسيور الجلدية بعد أن أفاقا من الغيبوبة، باتا خطرين يتحركان باهتياج، ويتصرفان بارتباك وسخط كما لو كانا يشعران بالخجل أو العار الذي نشعر به حين نكون مجردين من ملابسنا، وقد حاولا تمزيق ملابسهما الغريبة دون جدوى، اجتمع الأهالي في مجلس الكبير مرشد، وناقشوا التطور الأخير باستفاضة، في البداية اعترفوا أن الشخصين اللذين كانا يسميّان الكائنان العاريان هما فردان من الأهالي، ظهر اسم زكية حياً في ألسنتهم، ولم يعودوا يقولون المرأة العارية، كما استبدلوا لفظي "الرجل العاري" بالكبير عون، وطالبوا بإطلاق سراحهما على الفور، رأى الكبير مرشد أن

إطلاق اسم عون مع لقب "الكبير" أمر في غاية البجاحة والإجحاف، لأن هذا الرجل المسن وإن كان كبيراً للقرية ذات يوم، فإنه صار في وضع سيء لا يؤهله لإدارة شؤون نفسه، فكيف يطلق عليه هذا اللقب في ظل وجود كبير آخر، لكن الأهالي اعتادوا منذ زمن طويل أن ينطقوا اسم عون مسبوقاً بصفة "كبير"، ومن ثم يجدون صعوبة شديدة في نطق الاسم مجردا من اللقب، لكن الكبير مرشد اعترض عليهم وعاتبهم قائلاً بتوتر:

ـ الكبير عون.. اللعنة على الشيطان، أقصد عون لم يعد كبيراً للقرية، يجب أن تأخذوا هذا في الحسبان، لذا أرجو ألا تنادوا شخصين بلقب واحد.

رد عليه مائير اليهودي بجرأة:

ـ لكنك أخطأت ونطقت اللقب، لقد صار متعذراً أن نقول لفظ عون مجرداً، لا أظن أن إضفاء اللقب على هذا الرجل المريض سوف يؤثر في وضعك، فأنت الآن كبير الرباط.

اقتنع الكبير مرشد بفكرة مائير، ولم يعد يتطرق إلى هذا الموضوع، صار لليهود تأثير قوي على قراراته، كان الجميع يعرف ذلك، لهذا تعشم الأهالي من مائير أن يقنع كبير القرية بتحرير الكبير عون وزكية، فضحك الشاب بغرور، وقدّم طلبه بثقة عالية، ما لبث أن حصل على الموافقة السريعة، واستدعي سرحان لاستلام امرأته السابقة باعتباره أقرب المقربين لها، واستُدعيت فاطمة لاستلام زوجها الكبير عون، ذهبوا جميعاً لإجراء عملية التسليم، أخرجوهما من وسط مخزن مظلم يملكه ربيع البكر، وهما يجران القيود، ويضربان بأيديهما الهواء بغضب عارم، بدت ملابسهما ممزقة والدم متجلطٌ على البقع التي تحتك بها القيود الثقيلة، نظر سرحان بقلق إلى زكية، لقد كانت كما فارقها آخر

مرة، لكنها الآن عارية معدمة العقل وخَطِرة، رفضت فاطمة أن تتسلم زوجها الكبير عون وهو في هذا الحال السيئ، وتشجع سرحان طالبا من الأهالي وضعهما في حجرة مريحة نظيفة في منزل زكية، فيظلان تحت رعاية الفقيه عايض حتى يشفيان.

فجأة انقلب مزاج الكبير مرشد وصاح مخاطباً سرحان بسخط:

ـ أنا هنا الكبير، وليس أنت يا سرحان، إياك أن تتدخل في شئون القرية ثانية.

رد سرحان متجهماً:

ـ افعل ما تشاء أيها الكبير، لن أتدخل.

ـ أتود أن نضعهما على فراش وثير بعد أن فطرا قلبي وأحرقا منزلي، وقتلا إحدى نساء القرية؟

صمت سرحان وقال لنفسه بأمل: لن يمكث طويلاً حتى يعتدل مزاجه ويهدأ.

لكن الكبير مرشد أعقب مخاطبا الرجال بحقد شديد:

ـ أعيدوا هذين المجرمين إلى المخزن حتى نقرر نوع العقوبة التي يستحقانها.

رأى سرحان باستغراب كيف تهافت الرجال على تنفيذ هذا الأمر، لم يبدر منهم أي تردد أو تفكير، كانت صيحات زكية والكبير عون الغاضبة ترتفع من الداخل، وهي أصوات منكرة جوفاء تشبه ما تطلقه الحيوانات حين تهيج، خطر في رأسه أن الكبير مرشد صار يحتل منزل زكية بعد أن خسر منزله بواسطة الحريق، لذا لا يريد لها أن تسترد عافيتها، ثم تطالب بمنزلها، كذلك الأمر في حال استعاد الكبير عون عقله، فإنه سيجلب الأهالي إليه بإشارة من يده،

هكذا ببساطة ذهب معظم الرجال للاتفاق على نوع العقوبة المستحقة على الرجل والمرأة، وقف سرحان قرب المخزن محتاراً، سرعان ما طلب منه قاسم عوض وناصر حنشات أن يغادر المكان فوراً، كان الأول يتفقد بندقيته ويشحنها بالرصاصات الصفراء، فجأة ظهر مائير يقود حمارا يحمل جرتين في خُرْج جلدي، والتقوا في عناق طويل كأنه آب من سفر طويل، تسلم قاسم الحمار وغادر باتجاه منزله القريب، وذهب مائير ليرتاح في بيته، انتبه ناصر حنشات أن سرحان مازال واقفا قرب المخزن، فصوب البندقية السلطانية نحوه في حركة مفاجئة، كانت عيناه حمراوين قاسيتين ذات بريق غريب، فاضطرب حال سرحان وابتعد بيأس، وفي وقت مبكر من المساء، أتت إليه غنية كالعادة، كانت تحمل أخباراً طفيفة، فهي مشغولة في الأيام الأخيرة برأب خصام قديم بينها وبين حميدة امرأة ربيع البكر، أخذت تتقرب منها بطرق وحيل مختلفة، استخدمت الوسيطات لنقل رغبتها في الصلح، واعتذرت لها عن ذنب قديم لم تعد تتذكره، كما قدمت إليها هدايا وعطايا متنوعة كان سرحان يدفع ثمنها، وهكذا ظلت تلف خيوطها حول هذه المرأة الصعبة الإرضاء، كان عليها أن تحطم الظنون التي ساورت زوج ربيع عن السبب الذي يجعلها فجأة تستميت في خطب ودها بعد زمن طويل من القطيعة والجفاء، استطاعت أخيراً أن تحدثها وتستعيد ثقتها مرة أخرى، ومازالت تتحين الفرص لتدعوها حميدة إلى منزلها، وكل هذا من أجل استعادة التميمة المفقودة.

16

دخل ناصر حنشات حجرته جارا جسده المرتعش ببطء، استلقى على ظهره مستسلماً للضجر رانياً إلى السقف بإحباط، أخذ يلعن الحظ السيئ الذي أصابه، ويشتم قاسم عوض الذي أسقط الجرّة الفخارية المليئة بالنبيذ الأبيض، كانت تلك الجرّة تروي ظمأهم وتبهجهم وتنسيهم متاعبهم أثناء نوبات الحراسة الليلية، ليس هناك غيرها في تلك الليلة، جلبت بعناء بالغ من بائع يهودي في مدينة يريم، وضعت وسط خُرْجٍ من الجلد المدبوغ الجاف، ثم رفعت على ظهر حمار خفيف أعد لهذا الغرض، في الشق الآخر من الخُرج حشرت جرّة ماء تضاهيها في الحجم بغرض التوازن والتمويه على الرقباء، كان هذا يتم خفية بعيداً عن نظر القضاة والجنود والناس أجمعين، لأن العوام يراقبون بعضهم ويمسكون بمن يشتبهون بهم في الطريق، ويقودونهم إلى القلعة، وهناك يبثون شكواهم للعامل متذرعين بنهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يبرر لهم أن يراقبوا المسافرين ويفتشوا أمتعتهم باحثين عن المحرمات والمنكرات كما يدعون، كل ذلك في سبيل الحفاظ على الشريعة المحمدية ومبادئ الدين الحنيف، صار حمار قرية الرباط معروفا للأنام، يملك تصريحا بالمرور من قاضي القضاء، مع ذلك تم القبض عليه ومرافقيه أكثر من مرة، واقتيد والشخص المرافق له والجرّتين إلى أمام قاضي القلعة، وكلما سمع القاضي أن حمولة الحمار جرّة نبيذ يعتريه الغضب، لكن ما إن يرى ذوائب الشعر

(الزنانير) على عارضي مرافق الحمار حتى يطلب من الجنود إعادة الجرّة المصادرة الخاصة باليهود، والسماح للحمار ومرافقيه بالمغادرة، ثم يقول بتأفف مخاطبا الواشين الذين تكبدوا عناء الصعود إلى القلعة:

ـ هذا شأنهم! الخمر غير محرَّم في ديانتهم! لهذا السبب لن يشربوا من نبيذ الجنة.

يشرح لهم عن أنهار الخمر العسلي والحليبي والنبيذ المقطر الممزوج بحبيبات ندية صافية وشهية من لعاب الحوريات، بحيث يثمل منها المؤمنون بمجرد أن يشموا رائحتها الزكية، وهي تقدم للذين امتنعوا عن شربها في الحياة الدنيا وسط أقداح زهرية برَّاقة باردة بواسطة خادمات جميلات لا نظير لهن في الأرض، يسترسل العامل شارحاً ما أعده الله لهم في الجنة حتى يسيل لعابهم على صدورهم، ومن ثم يقتنعون أن ما ينتظرهم يستحق العناء.

في المرة الأخيرة التي ضبطوا فيها حمار قرية الرباط سمعوا في القلعة بأن العامل قد أعفي من منصبه بفعل خلافات شديدة وحروب تدور رحاها بين الأمراء المتنافسين الذين يظنون أنفسهم جديرين بالاستيلاء على تركة وقصور الأمير الأكبر الراحل، لذا لن تعود الأمور إلى طبيعتها حتى يستتب النصر لأحد الأمراء المتحاربين، في هذا اليوم، خرج العوام ـ الذين قبضوا على الحمار والجرة ـ دائخين من القلعة لهول ما سمعوا، وذهبوا في حال سبيلهم دون أن يقابلوا قاضي القضاة، لأن ما سمعوه جعل من جرة الخمر أمرا تافها لا يجوز مناقشته، لأن البلاد برمتها معرضة للدمار والحرائق، على إثر ذلك عاد يهود قرية الرباط بالجرّة والخبر المهيل إلى القرية، وألقوا ما سمعوه على مسمع الكبير مرشد، حينئذٍ عرف سر غياب الجنود والجُباة عن المجيء لأخذ زكاة

الحبوب والمواشي، فمنذ أصبح كبيرا لم يعد يأتي أحدٌ من موظفي القضاء، وهذا أعفاه من تفسير كثير من الأمور الملتبسة التي حدثت في القرية، كاختفاء الكبير عاطف، ظهور الكائنين العاريين، موت روضة، الشيخ الساحر وشياطينه وكتبه، الطفل المميز، وكيف حصل على منصب الكبير دون علم وموافقة صاحب السعادة عامل القضاء!

أمسى الكبير مرشد يثني على اليهود ويشجعهم على جلب مثل هذه الأخبار البهيجة من مدينة يريم، طالما يكون مائير أو ماشا أو الاثنان معا أو أي رجل يهودي آخر برفقة الحمار، المرة الوحيدة التي بعثوا ثلاثة حمير لتجلب ثلاث جرار هي يوم احتاجوا أن يخدروا الكائنين العاريين، يومها سلك السعاة طرقا وعرة حتى وصلوا إلى القرية بسلام دون أن يتعرضوا للمساءلة من أحد، في اليوم الذي يليه كان مائير هو مرافق الحمار والجرّة الفخارية، وقد جلب نبيذا من الصنف العالي الجودة، لذا قرر رفاقه أن توضع الجرّة على شرفة التبريد في بيت قاسم عوض حتى يطلبوها بعد العشاء، وسمح لقاسم أن يمكث جوارها ليحرسها مقابل أن يتكفلوا بنوبة حراسته، أصبح عرفا محتوما أن تفض سدادة الجرّة بحضور الرجال العشرة جميعهم، لا توجد أي استثناءات في هذا الموضوع، انتظروا بلهف قدوم الساعة المنشودة، كانوا قد تناولوا عشاءهم قرب المخزن الذي يحوي الكائنين العاريين، ثم بعثوا ماشا في طلب الجرّة، وفعلا جلبها قاسم عوض دون تردد، بدا يمشي متمايلاً بشكل غريب، ما لبث أن سألهم بصوته الأجش عن موقفهم فيما لو أسقطها، فأجاب مائير ضاحكاً إنه سيقوم بقتله لقاء الذل والازدراء الذي تعرض له وحماره في المدينة والقلعة، انفجر قاسم عوض مقهقها بشكل هستيري رافعا رأسه وإحدى ساقيه عاليا، وهو طالما يفعل مثل هذه الحركات الخطيرة بغرض إفزاعهم، ثم يعود إلى

وضعه الطبيعي، واضعا الجرة أمامهم بسلام، أما هذه المرة فاختل توازنه ووقع والجرة أرضا، قفزوا في محاولة يائسة لإنقاذها، لكنها تهشمت مخلفة بقعة كبيرة ذات رائحة شهية حادة، وقفوا جامدين مندهشين بضع لحظات، ثم ردوا أبصارهم إليه بنظرات أشخاص مقبلين على القتل، اقتربوا منه محدقين يوشكون على البكاء لفرط القهر والغضب، رفعوه عن الأرض بقسوة، قام مترنحاً متمتماً بكلمات أسف فارغة المعنى، وإذ ذاك خرجت من أنفاسه رائحة النبيذ، عرفوا أنه استغفلهم وأخذ حصته مسبقاً، ولم يكتف بذلك، بل أوقع نصيبهم بلا رحمة أمام عيونهم، التقت نظراتهم بشكل حاسم، كأنما قرروا أن الموت هو جزاء هذه الخيانة، تناول ربيع البكر البندقية بتجهم، ووضعها على خادع قاسم، لكن مائير تدخل لحسن الحظ، ودفع رفيقه الغاضب إلى الخلف بحزم، طالبا منه أن يطرد الشيطان من رأسه، ذكّره بعواقب إطلاق النار في تلك الساعة من الليل، وما قد يجلب من فزع وتكهنات ومتاعب هم في غنى عنها، كما لن يسر الكبير مرشد أن يموت أحد رجاله بسبب جرّة نبيذ تحطمت على الأرض، ناهيكم عن الجثة والدماء والشائعات عن مدمني الخمر المسلمين واليهود، وفي السجن لن يتذوقوا النبيذ الأبيض مرة أخرى، لذا يتحتم أن يتحملوا الأرق في تلك الليلة، وفي الغد سيعوضون الخسارة، ويحرمون هذا المعتوه من حصته التي سرقها، ولكن لا مانع أن ينال ضرباً مبرحا لتشفى النفوس من الغل، وهذا ما حدث، هجموا عليه وأشبعوه ضرباً حتى كلت سواعدهم وأقدامهم، توقفوا حين رأوا الدماء تنزف من أنفه وفمه، وحكموا عليه أن يحرس المخزن وحيدا حتى الصباح، ومن ثم عادوا إلى منازلهم بأجساد ذابلة متعبة، وهذا هو سبب عودة ناصر حنشات إلى منزله مبكراً على غير عادته، مكث في حجرته حزيناً متماوتاً، بعد مدة من الوقت أحس بجو المنزل الهادئ، سار إلى

الغرفة الأخرى، رأى هناك أطفاله وحيدين غارقين في نوم عميق، بحث عن امرأته، لم يجدها في الحمام أو بيت النار، استبعد فكرة هروبها، لأن ملابسها وأغراضها كانت في حجرتها، لم يعد هناك سوى مكان واحد بوسعها أن تذهب إليه، دار هذا الخاطر البغيض في ذهنه، فخرج متحفزاً ماشيا بخطوات متوثبة مشدودة باتجاه منزل روضة، توقف تحت نافذة يخرج منها ضوء أصفر متوهج، لبد هناك حابسا أنفاسه المتصاعدة كقط ينتظر خروج فأر من جحره، سمع أصوات تأوهات وصرخات متقطعة وكلمات فاحشة، تسلق الجدار بخفة قرد حتى وصل إلى النافذة الخشبية المنفرجة، دفعها بيده قليلا، ملقيا نظرة شاملة على ما يجري في الداخل، رأى امرأته غنية عارية مرفوعة الساقين وجاره فوقها يولج فيها بعنف، رآها تتحرك مثل دودة مطلقة شهقات داعرة، كان السراج مضيئاً مشرقا يكشف جميع تفاصيل ذلك اللقاء الخبيث، حتى أنه شاهد عضو سرحان يتحرك داخلها بشكل هستيري، استطاع أن ينزل بهدوء رغم شعوره بالدوار، أخذ جسده يرتعش من التأثر، عرف ساعتها ما جعل غنية تبقى في منزله بعد أن ضاقت بهم السبل، كان في السابق ممتناً من سرحان إذ أقنعها بالعدول عن قرارها بهجره، لكن الخبيث لم يفعل ذلك عبطاً، بل من أجل هذه اللحظات الملعونة التي يقضيانها معاً، لم تعد تحدثه عن الرحيل والطلاق، أضحت مشرقة وسعيدة، تتحمل كلامه ورعونته على غير عادتها، طالما سأل نفسه عن سبب هذا التحول المريع في شخصها! فكر ناصر حنشات بألم، وهنا يبرز سؤال جدير بالاهتمام، أين ذهب دغمار في تلك الليلة بحيث تخلى عن واجب تحذير سيده عند قدوم هذا الزوج المتطفل؟ لقد أصبح طليقا يبيت خارج المنزل منذ أن تم القبض على الكائنين العاريين، رغم ذلك، كان من المحتوم أن يمكث بمحيط المنزل كما جرت العادة، لكنه هو الآخر كان على مشارف

القرية يجري لاهثا وراء أنثى مغرية في مقدمة طابور طويل من الذكور الأقوياء الطامعين بالتزاوج في ذلك الموسم، أما ناصر حنشات فقد استغل آخر جرأة بقيت في جسده معتزما أن يسدد طعنة موجعة لجاره الخائن، لذا سار لا يلوي على شيء حتى دخل منزل زكية، وأخذ يصيح على السلالم بصوت عالٍ:

" أعرف من أشعل النار في منزل الكبير مرشد"..

17

يا له من حلم سيئ! أحس بالاطمئنان حين أدرك إنه في غرفته، ليس هناك ضباع شرسة تطارده على الهضبة، رفع جفنيه النائمين الثقيلين دون أن يستطيع تحريك رأسه الخامل، أما حواسه فقد استفاقت بشكل مفاجئ، خيل إليه أنه ليس وحيدا في تلك الغرفة الصغيرة المشعة بضوء باهت تسربه نافذتها الوحيدة، رأى وجوه الأهالي وجهاً تلو آخر، ربيع البكر، قاسم عوض، مائير، حمود الذيب، ماشا، شالوم، وآخرين مكدسين بالخلف لا تظهر وجوههم، كانت البندقية السلطانية على كتف ربيع البكر، والكثير من الفؤوس والعصي والهراوات بأيدي رفاقه، ظن سرحان أن حلمه المزعج لم ينته بعد، أطبق جفنيه الكسولين متململا محاولا طرد تلك الوجوه، فجأة ركلته أقدام حقيقية، وجذبته أيدٍ خشنة متشنجة بقسوة، وجد نفسه خارج المنزل يُجرجر عارياً معرضاً للهواء البارد، ظهرت منازل القرية، واتضحت ملامح الطبيعة والبشر من حوله، لم يكن ذلك حلماً بل واقعاً رهيباً، فصاح باضطراب:

ـ ماذا تفعلون يا رجال؟

لم يجب عليه أحد، فأخذ يكافح ليستر أعضاءه المكشوفة، بعد مدة ظنها دهراً أُوقف أمام حطام منزل الكبير مرشد، كان هناك لفيف من الأهالي الذين لم يشاركوا في الهجوم عليه، رأى وجه ناصر حنشات المتجهم، ظن أنه وشى به شاكياً من علاقته الخسيسة بامرأته، كانت المرأة العارية ورفيقها هناك أيضاً مربوطين على جدار منزل شالوم، ظهر الكبير مرشد منتصباً فوق حطام منزله

المحروق المكوم على شكل رابية كبيرة، أخذ يضحك عالياً وهو يراه عارياً مهاناً، أخيراً قال بتشفٍ:

ـ انظر، ها أنا أقف فوق أنقاض منزلي، لأن شخصاً مسرنماً[3] أشعل فيه النار، ثم عاد إلى منزله ليكمل نومه بدم بارد.

ـ لا شأن لي بما حدث لمنزلك، لم أعد أسرنم منذ زمن طويل.

ـ هناك شاهد رآك تسير عارياً في تلك الليلة.

سأل بعجب:

ـ من هو هذا الشاهد؟

تقدم ناصر حنشات متعثراً بخطواته، وقال بصوته المرعوش:

ـ أنا رأيتك عائداً من مكان الحريق يرافقك كلبك دغمار.

ـ لكن جاري يظن أني أغوي امرأته و...

قاطعه ناصر حنشات بصوت مختنق:

ـ أنا لا أظن ذلك، لقد رأيتكما معا....

قاطع الكبير مرشد الزوج المخدوع صارخاً بعنف:

ـ لا يعنيني أن يركب امرأتك، أو حتى يمزقها بقضيبه، إنها مجرد امرأة في النهاية، بوسعك يا ناصر أن تقذفها كحذاء تالف، لكن منزلي لا يعوض، كل شيء سعيت لأجله ضاع وسط هذا الركام، كتبي، وأدويتي المبتكرة التي لا تقدر بثمن..

سكت مطلقا تنهيدة حسرة وتابع:

---

[3] المسرنم: الشخص الذي يسير نائما.

ـ من فعل هذا بي؟ المرأة العارية؟ رفيقها؟ سرحان؟ لن أوجع رأسي بالبحث والتحري عن الفاعل، فالثلاثة خطرون ومذنبون، ولن أقتلهم الآن، لأن الموت رحمة كبيرة.

ارتاع الأهالي من صورة الكبير مرشد المنكرة، بملامحه المكفهرة السوداء التي غدت كجزء محترق من أحجار منزله، انفجر سرحان قائلا بحنق:

ـ ألا تخش من عواقب أفعالك يا فقيه مرشد؟

ـ لا أحد غيري يحكم هذه القرية، كما ترون لقد غدت البلاد خاوية من السلطات، جميع الألوية والنواحي بلا نواب أو عُمّال يديرونها، لا أعرف إن كان هذا أمرا حسنا أو سيئا، لا يهم..

استأنف مخاطباً الرجال بقسوة:

ـ إنها اللحظة المناسبة، دقوا الطبول، أقيموا لهم زفافاً لا نظير له، ثم أعيدوهم إلى جذع الشجرة.

أضاف مستدركا بخبث:

ـ هيه، لا تنسوا أن تضعوا سرحان والمرأة العارية في سير واحد، لأنها معجبة به.

صاح سرحان بفجيعة، وهم يأخذونه قسراً ليربطوه إلى جوار المرأة العارية المهتاجة:

ـ لا.. لا.. لا تأخذوني إلى هذه المتوحشة، لم أفعل شيئاً يستحق هذا، لم أحرق المنزل، أقسم لكم...

ضحك الكبير مرشد بتشفٍ، وأشرق وجه ناصر حنشات الحقود المتلبد بعار الخيانة، لقد عاد إليه الارتعاش والخنوع، ولم تعد تواته

الشجاعة ليضرب امرأته أو يتهمها بالخيانة، فقد الجرأة بعد أن تحطمت جرّة النبيذ، صار يخشى أن ترفع صوتها الفاضح عالياً، أو ترحل إلى بيت أهلها تاركة له مسئولية رعاية الأطفال الصغار، ها هو قد أفشى سر جاره سرحان، وتسبب في إذلاله، لا يدري كيف ستكون العواقب، لن يجرؤ أن يحدثها بما رأى، ماذا يقول؟ هل يشير إليها بإصبع الاتهام، ويقول لها يا خائنة، هل ستخجل؟ لن تفعل شيئاً من ذلك! سترفع صوتها بقحة وتقول هذا بسبب ارتعاشك وبرودك على الفراش يا ناصر، الأجدر به أن يسكت ويصم أذنيه، ويغض الطرف عن أفعالها طالما لا تظهر على العلن، آه ما أجمل الجهل بالأشياء البغيضة! الشرف والعار والكرامة، مجرد ألفاظٍ فخمة شائعة في هذا الزمن، لكنها لا تؤكِّل عيشاً ولا ترعى طفلاً، إنها مصيدة الأغبياء والتعساء، ماذا يعني أن يختطف الجار الأرمل امرأة جاره البارد الكسول، ويطفئ نارها المضطرمة! إنه لعملٍ يستحق الامتنان، ما الفرق بين المرأة الخائنة وبين أي آنية تُعار وتُستعار؟ لا فرق بالتأكيد، كل شيء مباح في هذا العالم الوحشي ومعرض للزوال، لِمَ الأسف على أشياء ستختفي في النهاية وأجساد سوف تتحلل في التراب؟ الطلاق مُر ومُكَلِّف، والزواج بامرأة أخرى أكثر مرارة وكلفة، من ستقبل به زوجاً؟ هب أن هناك امرأة بائسة يائسة قبلت به، كيف سيجلب مهرها ونفقات الزواج، حتى إن فعل ذلك بمعجزة، من يضمن ألا يتكرر ما حدث بينه وبين غنية، لم تعد النساء خجولات وجاهلات بهذا الشأن، صار الحصول على امرأة جاهلة باردة في هذه الأيام يشبه العثور على ضرس نابت في فك طفل حديث الولادة! أخذ يضحك بسخرية وهو يسير مفكرا في تلك الأشياء التي لم يسبق أن فكر بها من قبل، لا ريب أن امرأته تنتظره في المنزل على أحر من الجمر، لكنه سيفوت عليها نشوة قدومه لتؤنبه وتهينه، لن يعود إلى المنزل، سيدعها تنتظر إلى ما

لانهاية، سرحان أيضاً لن يعود إليها، ستكون وحيدة وكئيبة كآبة شجرة عارية من الأوراق في فصل الخريف، وجد ناصر حنشات نفسه قرب البئر، لم يحفل بوجود بعض النساء الواردات بالجوار، بل وقف على الحافة بجرأة، وانتظر حتى رفعت إحدى النساء الدلو الممتلئ بالماء، وأضاف آخر وأجرأ خطوة في حياته.

حيَّر سقوطه في البئر أذهان الأهالي، احتاروا في تصنيف هذا الحادث، أهو انتحار أم سقوط غير مقصود؟ لكن النساء الواردات شهدن أنه وقف على الحافة قليلا، ثم داس الفراغ وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء جريئة، طلب الكبير مرشد من الأهالي ألا يرددوا هذا اللغو الفارغ، لأن ذلك يسيء إلى سمعة القرية، فالقرويون البسطاء لا يقتلون أنفسهم إلا بسبب المشاكل القاهرة، أو لسوء المعاملة واليأس، حاشا قرية الرباط من أي إهمال أو سوء في التصرف، لأن كل الأشخاص المذنبين يعاقبون ويضربون على أيديهم، لا ريب أن ناصر حنشات لم ينتحر، بل انزلق بالطين من حافة البئر، وما رأته النساء هو وهم من الأوهام.

لم تكن غنية في تلك اللحظات تنتظر زوجها في المنزل لتعنفه، بل كانت تجري حاسرة الرأس خلف موكب المذنبين، حاولت مستميتة أن توقف الأهالي عن أفعالهم القاسية، صرخت بملء الصوت وشتمت ولعنت آباءهم، لكن دقات الطبول العشوائية وصيحات الرجال وصفير الأطفال أصمت الآذان، أخذت تنتزع الحصى والأحجار من أيادي المراهقين والصغار، لكن الحصى ظلت ترمى على أجساد العراة من أماكن متفرقة، أمسكت بعض العصي والسياط التي كانت تلهب أجسادهم، لكن السياط الأخرى كانت تعمل وتلسعهم بقسوة، وجدت نفسها عرضة للسخرية وفي وضع مضحك عابث، بحثت عن زوجها ناصر حنشات ملياً في المكان،

لكنها لم تعثر له على أي أثر، مضت تشد خطواتها مسرعة نحو منزلها لتمزق جسده، مرت قرب منزل ربيع البكر، اقتربت لتستعير فأساً حاداً رأته على فنائه الصغير، كان الباب مفتوحاً، ولا أحد بالداخل إلا جدة ربيع، وهي عجوز عمياء ومقعدة، سمعتها غنية تصيح بيأس طالبة الماء، وضعت غنية في كفها المرتعش النافر العروق قدحا ممتلئا، ثم مضت تبحث عن شيء ما في أرجاء المنزل، نبشت الزوايا والغرف، فتشت السلال، أخيراً وجدت المخزن شبه المعتم، تعثرت هناك بأدوات عمل صلبة، مطارق ومعاول ورفوش وغيرها، عثرت على صندوق ثقيل مُحْرَز في إحدى الزوايا مغطى بالبطاطين والفُرُش المتهالكة، قفله الحديدي غليظ وكبير الحجم، أخذت مطرقة ضخمة، وبالكاد استطاعت أن ترفعها إلى سواء رأسها، ثم هوت بها على الرتاج والقفل بغضب، فانخلع الرتاج المعدني عن الخشب دون أن يتضرر القفل، نزعته بسهولة، لم تعبأ بالأشياء المكنوزة في الصندوق، بل ظلت تفتش عما يشغل بالها حتى عثرت على ورقتين مطويتين تحملان نفس رائحة غلاف التميمة، خرجت سريعا من المنزل متمنية ألا تكون مخطئة في تقدير الورقتين، انتزعت فأسا من ركن الفناء، وانطلقت نحو منزلها للتو، كانت تنوي أن تفلق رأس زوجها كالبطيخة، لكنها التقت في طريقها بخبر موته، تلقت كلمات التعازي والمواساة ولم ترد عليها، بل انتابها الأسف والحنق، لأنه لم يمت على يدها.

18

لحظات لا توصف من الصخب والضجيج والعربدة المستمرة، كان الجو مفعما بالفوضى حقا، سرحان ورفاقه يُقذفون بالأحجار، ويضربون بالعصي والسياط، سالت خطوط متوازية من الدم الحار على طول جسده، لكن مصدر ألمه الحقيقي كان يأتي من المرأة العارية التي كانت تعبر له عن شغفها بطريقة وحشية مؤلمة، أضحت تضمه إلى جسدها حتى تطقطق أضلاعه، وتكاد أنفاسه أن تنقطع، قبلاتها القاسية ظهرت على جلده الناصع على شكل عضات دائرية حمراء، آلمته القبل ودوخته أبخرة فمها الكريهة، لم تفلح محاولاته المتكررة في إزاحتها عن جسده، أخذت توجه عضوه نحو غابة من الشعر القاسي، مع ذلك أحس برغبة عارمة في معاشرتها، تواطأ في الأمر، أتاح لها أن تغتصبه، فارتفعت أصوات الرجال المحتشمين، وأخذوا يزجرونهما عن ذلك الفعل الفاضح، راحت العصي تسقط عليهما، وكذلك الأحجار الصغيرة والكبيرة، بهذا حاولوا تذكيرهما أن ذلك زفاف عذاب وليس عرسا، لا غرو أن يدافعوا عن الآداب العامة بضراوة، وأن يمنعوا أي نزوع نحو المتعة، إذ كانت نساؤهم حاضرات في الموكب، وعيونهن تتابع كل ما يدور هناك، ما لبثوا أن قذفوا إلى سرحان سروالا ليستر عريه البغيض، ما كاد يستقر في يده حتى نزعته المرأة العارية منه، ومزقته إلى قطع صغيرة في لمح البصر، لم ييأسوا أو يتجاهلوا، بل ازدادوا قسوة، أصروا أن يجعلوا ذلك العضو الكبير المشرئب ينام، كانت السياط تعيده إلى جادة الصواب منكمشاً ذاوياً، لكن المرأة العارية الداعرة صارت تثيره مرة أخرى وتدعه ينتصب،

فتعود العصي للعمل، لم تكن الضربات والأحجار تؤثر في جلدها القاسي، ولا تخلّف على جسدها أي علامات تذكر، حتى تعبت سواعد الرجال وغشي العرق جباههم، أضحى جسد سرحان محطما في النهاية، وشرع يتمايل ويوشك أن يسقط على وجهه، لكن صوت الناعي أنقذ الجميع، فتقدموا صوب الشجرة الشوكية، وأوثقوا المعاقبين عليها بواسطة السيور القوية، وتركوا بعض الرجال للحراسة، وذهبوا لينظروا من يكون الشخص الميت، كانت قلوبهم ترجف خوفاً، وصدورهم تصعد وتهبط لفرط الإعياء، دفنوا ناصر حنشات بسرعة بالغة، وحذرهم الكبير مرشد من إفشاء خبر انتحاره، لأن هذا سيشوه سمعة القرية، اجتمعوا في منزل زكية لمناقشة الأمر، بعد لحظات بلغهم أن سرحان مازال غائباً عن الوعي، ويوشك على الموت، فاضطرب حالهم بشدة، خشي الكبير مرشد أن يموت تحت الشجرة متأثراً بجروحه البليغة، وفي حقيقة الأمر، كان يود أن يكون موته أكثر ألماً وخزياً، يريده أن يتألم ويموت ببطء أمام عينيه، أما الموت في حال من الغيبوبة فإنه موت رحيم، والموتى تحت التعذيب يصبحون أبطالاً بعد موتهم، ويكسبون تعاطف وشفقة الأجيال القادمة، وتظل أطيافهم تجول في الأرجاء للانتقام، ولكي يثبت الكبير مرشد أنه مازال إنساناً أمر بإيقاف تعذيبهم حتى تزول آثار الفجيعة التي تركها موت ناصر حنشات في قلوب الأهالي، لاسيما أن البعض صاروا يظنون أنهم يقومون بفعل مشين، إذ كشف الإمام عثمان أنه رأى في المنام جنائز كثيرة تسير في أرجاء القرية، وهذا أرعب الأهالي، سرعان ما أعلن جهلان الخُضَري أنه لن يشارك في أي تعزير آخر، لكن كبير القرية كان يملك تفسيرا خاصا، قال إن الجنائز المذكورة تخص الثلاثة العراة الذين سيقتلون رمياً بالرصاص بعد يومين، ووعد القرويين أن يكونوا آخر أشخاص يموتون ميتات غير

طبيعية، لأن الشر سيموت معهم، على إثرها سيعود الناس إلى ممارسة حياتهم بأمان.

كان وضع سرحان سيئاً، بدا مستلقياً على الأرض بلا حراك، في حين جلست المرأة العارية إلى جانبه، شوهدت وهي تلعق جروحه بلسانها الخشن كبقرة تلعق وليدها لتجففه من ماء المشيمة، خاف الأهالي أن يموت، ويتسرب خبر موته وعذابه إلى القرى الأخرى المحيطة، لذا استدعوا الفقيه عايض ليداوي جروحه، كان الكبير مرشد أحياناً يخشى من وجود سلطة ما في قضاء يريم، رغم علمه إن مقعد العامل مازال خاليا تحيط به خيوط العناكب، وأن القرى والعزب باتت تحكم نفسها مثل ممالك صغيرة، لكن لا مأمن من المفاجئات غير السارة لاسيما في ظل وجود هؤلاء العراة الخطرين.

في المساء، عقد الكبير مرشد اجتماعاً سرياً حضره رجاله العشرة المخلصين الذين يثق بهم، اتفقوا أن يسيروا عند بزوغ الفجر إلى الشجرة الشوكية لقتل العراة الثلاثة، ثم ينثرون عظامهم في المكان كما تفعل الوحوش، وتكون الضباع هي المشتبه الأول في قتلهم، عند حلول الفجر تحرك الرجال متنكرين ساترين وجوههم بأقنعة ثقيلة، كانت المرأة ورفيقها جالسين تحت الشجرة بلا مبالاة، لاح سرحان مقرفصا بالجانب الآخر متدثرا بغطاء صوفي، على خلاف الرجل والمرأة العاريين، اللذين أصبحا متكيفين مع البرد والحر، أما هو فاستطاع أن يتكلم مع الرجال الحارسين ويستعطفهم، فزودوه بدثار غليظ بسبب مرضه، وتركوه بعيدا عن متناول المرأة المجنونة التي حاولت عبثا الوصول إليه، ظل جسده ينتفض بفعل البرد القارص، كانت ليالي الشتاء في قاع الحقل تجمد مياه البِرَك وتترك آثاراً سوداء على أطراف ووجوه الأهالي، ظن سرحان أنه

لن ينجو من الصقيع الذي يشل الجسد ويجمد الدماء في العروق، في تلك الساعة الباردة الحاسمة أقبل عشرة أشخاص يحملون الفؤوس في أيديهم بصورة مريبة، تغطي وجوههم بأقنعة سوداء معتمة، استطاع سرحان أن يلمح الشر ساطعاً في عيونهم، وقف الحرّاس الخمسة منكمشين متدثرين بمعاطف ثقيلة من جلود الماعز يسترون وجوههم بالأقنعة أيضا، كان أحدهم يحمل في يده بندقية سلطانية ويبدو متوثبا متأهبا لأي طارئ، انكمش سرحان بموضعه مذعوراً وهو يحدق في وجوه الرجال المقنعين، شعر أنهم يوشكون على فعل شيء مريع، لم يتمكن من النهوض لمواجهتهم، كان متجمدا بسبب البرد، استطاع فقط أن يتزحزح من موضعه ليستند على الجذع، على عكسه استقام الكائنان العاريان بخفة وليونة وسرعة تثير الغيرة، أخذا يراقبان الرجال بانتباه، بعد لحظات التقى الفريقان وتبادلوا الضرب بالحجارة والفؤوس، كانوا عشرة مقابل اثنين، لأن سرحان لم يقاتل، ما لبث أن قبض أحدهم عليه دون جهد يذكر وشرع بخنقه، قذفت المرأة العارية حجراً ثقيلاً على رأس الرجل الذي أمسك به، سقط الرجل المقنع على الأرض بلا حراك، مكث سرحان خلف الجذع خوفاً من الأحجار المتطايرة التي غدت أخطر من الفؤوس والعصي، هاجم الرجال المقنعون المرأة العارية، وناوشوها بعض الوقت، لكن الرجل العاري المسن تمكن من الإمساك بحجرين فلق بهما رأسي اثنين منهم، وكسرت المرأة العارية رقبتي شخصين آخرين، وعضت آخر في زوره، أمسك بها ثلاثة رجال من جذعها، ووجه الرابع إليها ضربة بالفأس وقعت بالخطأ على رأس رفيقه، وقذف الرجل العاري حجراً كبيراً لم يخطئ رأس الرجل الذي يمسك الفأس، فيما أفلت أحد المهاجمين، وبقي بين يدي المرأة العارية رجل واحد، بدا مفزوعاً كفأر وقع بين مخالب حدأة، أخذت تذيقه موتاً بطيئاً مصدرة صوتاً رهيباً، لكن

لغة الموت مفهومة، ولا يعوزها الحروف والكلمات، بال الرجل على سرواله، كان رفيقه الناجي يسير مسرعا باتجاه الحراس، فصاح على إثره:

ـ كبير مرشد، أرجوك خلصني من هذا المخلوق الكريه.

أجاب الرجل الملثم بانفعال:

ـ اسكت أيها الأحمق، ألم أنذركم بعدم التفوه بالأسماء يا قاسم؟ لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك الآن.

ـ خلصني عليك اللعنة، أين تعاويذك أيها الدجال، أنسيتها بعد أن أصبحت كبيراً؟

ـ أوو، أيها النذل، لِمَ لم تخبرني بذلك قبل موت الرجال؟ يا لها من مصيبة، ثمانية من رجالي الأوفياء تصرعهم امرأة واحدة ورجل مسن!

ـ كل هذا بسببك يا أشأم كبير عرفته القرية، هيا ماذا تنتظر؟ خلصني منها..

تقدم الكبير مرشد من المرأة العارية غاضباً، وجعل يناوشها بحذر، وهو يصرخ بجنون:

ـ هيا أيتها القحبة، إنه يستحق ذلك، دقي عنقه، حان الدور عليّ، أنا لا أخافك، أنت بشعة أكثر من أي شيء قبيح في الحياة، أنت عاجزة عن الإمساك بي.

ـ لا، توقف، أنت تحفزها على قتلي، لا لا..

كسرت المرأة العارية رقبة قاسم ورمته جانباً كخرقة قذرة بالية، ثم هجمت على الكبير مرشد بشراسة، حتى طقطق فرع الشجرة،

وسال الدم من عنقها بفعل الشد على السيور الجلدية القاسية، بدأ الكبير مرشد يقرأ عليها ورفيقها تعويذة الجمود، بعد لحظات كان الأسيران جامدين يصرخان بفجيعة، عند ذلك نزع الكبير مرشد البندقية السلطانية من كف الحارس، وأطلق عليهما النار بلا رحمة، فانهارا شبه واقفين بفعل السيور الموصولة إلى الشجرة، وساحت دمائهما على الأرض، صاح سرحان من وراء جذع الشجرة بهلع:

ـ أيها المعتوه، كيف طاوعتك نفسك أن تفعل ذلك؟

اقترب الكبير مرشد من جذع الشجرة، حين رأى سرحان ضحك بفرح وقال:

ـ سرحان، ها أنت ذا، لقد آلمتني كثيراً يوم خطفت مني المرأة التي أحببتها كروحي، لقد عرفت يوم ذاك أنني سأقتلك.

ـ لكنك الآن قتلتها، لم أكن أظنك بهذه السفالة، أنت همجي لا تملك قلبا، لست كبيراً، بل أنت أصغر من حشرة.

ـ قل ما تشاء قبل موتك، اشفِ غليلك بالشتائم، إنها مجرد امرأة عارية مجنونة، لقد كانت كالفرس الممتلئة المليحة الكفل حين خطفتها مني.

ـ اقتلني أيها البغيض، لم يعد هناك ما يقال، وما حدث لا يمكن تغييره الآن.

ـ نعم، سأقتلك، لا ريب في ذلك، لن يمنعني أحد، لكن قبل ذلك أريدك أن تنقل رسالة مني إلى الله، رغم يقيني أنك لن تذهب إلى الجنة، مع ذلك إن أتيح لك أن تراه...

تردد قليلاً ليستجمع أنفاسه، ويختار كلماته بعناية وتابع:

ـ قُل له إن الكبير مرشد محتج ومستاء من أقداره، فكلما أراد أن يتزوج مريمة اليهودية أتى قدر منه يحول دون إتمام زفافه الميمون، ألأنها يهودية؟ أم إن ذلك يحدث لأسبابٍ أخرى؟ وحين تقذف في الجحيم يا سرحان، أخبر الشيطان الأكبر إنني من أنصاره حتى تتغير أقداري.

ظل الكبير مرشد يبالغ في تبرمه، ويهذي مدعياً إن الله والشيطان على حد سواء متحالفان ضده، على عكس سرحان الذي ارتبط بالشيطان ارتباطاً وثيقاً، ومن ثم حظي بحظ جيد لاسيما مع الأرامل والنساء الفاتنات، أخيراً صرخ سرحان في وجهه بانهيار:

ـ ماذا تفعل أيها المعتوه؟ لا تتلاعب بأعصابي، اقتلني أو دعني أعود إلى بناتي الأربع، لأنهن بحاجة إلى رعايتي.

ـ نعم، أنت في عجلة من أمرك، سامحني يا سرحان، لا أود أن أعطلك أكثر من ذلك.

أغمض سرحان عينيه، في حين وضع الكبير مرشد فوهة البندقية على جبينه، وضغط الزناد، لحسن الحظ علقت الرصاصة بالداخل ولم تنفجر، رغم ذلك سقط سرحان على ظهره منهاراً من الخوف، راح الكبير مرشد يحاول أن يفك حامل الترباس العالق دون جدوى، فصاح بتبرم:

ـ ماذا يحدث؟ أي حظ سيء منيت به اليوم!

لمح البول يسيل تحت جسد سرحان، فضحك وأضاف بتهكم:

ـ هاتوا الفأس قبل أن ينثر هذا الرجل الرعديد ما في أحشائه من فضلات.

ناوله أحد الحراس الخمسة الفأس بأصابع مرتعشة، في تلك اللحظة ارتفع صوت ملثوغ يأتي من خلفه:

ـ غط، غط، غط..

رأى سعد يمشي وبجانبه غنية شاهرة فأسها متحفزة للقتال، فهوى بالفأس على رأس سرحان الذي ابتعد في الوقت المناسب، فانغرس في جذع مغروس بالأرض، وتعذر عليه نزعه، سار إلى الحراس بيأس، وعادوا أدراجهم باتجاه القرية، مكث سرحان خلف الجذع شاحباً كالميت ينتفض من البرد والتأثر، حتى قذفت له المرأة بعض الملابس الصوفية فارتداها قائلا بتأثر:

ـ يا لحظي الحسن، لقد جئتما في الوقت المناسب، انظري أي جريمة بشعة وقعت قرب الشجرة!

ـ لا تهتم بالأوغاد، لقد جنوا على أنفسهم، حاولت أن أمنعهم عن ضربكم وقذفكم بالأحجار دون جدوى.

قادته غنية من ذراعه كرجل عجوز مشيحة وجهها عن الجثث المتناثرة حول الشجرة، ابتعدوا عن المكان، وأثناء ما كانوا سائرين في طريقهم إلى القرية ارتفع صوت المنادي قادماً من أعلى الهضبة:

" يا أهالي قرية الرباط إن العائلة الأميرية تعلن عن تنصيب مولانا المبجل ولي العهد الأمير الناصر، أميراً للبلاد والعباد، ومازالت جيوشه الأميرية الظافرة تزحف على فلول الخونة والمتمردين والسحرة وتطاردهم في كل مدينة وقرية، فالولاء الولاء، لازموا بيوتكم، ومن عصى يحل في منزله الخراب".

أتى الفقيه عائض إلى المكان الذي وقع فيه الحادث، ليفحص أجساد الرجال الممددين حول الشجرة وينقذ ما يمكن إنقاذه منهم، كانت دماؤهم قد تسربت وتشكلت على صورة بقع حمراء قانية، يئس الطبيب في العثور على شخص حي، تسلل الخبر إلى الأهالي، وتجمع الرجال حول الجثث، كان وجه الكبير مرشد مكفهرا بعد أن سمع النداء من الهضبة، أدرك إن ما حدث عند الشجرة سوف يعرضه للمساءلة، بدأ يحث الأهالي على توحيد أقوالهم في حال استجوبوا حول الحادث، حذرهم أن ينطقوا اسم زكية والكبير عون على ألسنتهم، لأن ذلك سيوقع الأهالي في المتاعب، ثم بعث إلى سرحان وغنية تحذيراً خاصاً، طلب من الرجال أن يحملوا الموتى إلى القرية قبل شروق الشمس، شاع الخبر في كل مكان بالجوار، وأقبل أهالي القرى المندسة في بطن قاع الحقل الشاسع، وغصت الباحات والأزقة بالناس ليشاركوا في الدفن، لكن رسالة عامل قضاء يريم الجديد وصلت للتو لتخبرهم أن يؤجلوا الدفن ريثما يصل الجنود للتحري عن الحادث.

فعلا أتى بضعة جنود مسلحين بالبنادق السلطانية يرتدون مآزر رمادية غريبة، وقمصان زرقاء، على رأسهم جاويش أعلى رتبة لا يختلف عنهم كثيراً سوى بطريقته في الكلام، وقدرته على توجيه التعليمات، فحص جميع الجثث وألقى نظرة ثاقبة على الشجرة الشوكية، وقف طويلاً أمام الكائنين العاريين متعجباً، ثم ببساطة أمر بدفن الجثث قبل المغيب كأنه عرف سر موتهم، خرجت الجنائز من المنازل في وقت واحد، إلا أن جنائز الثلاثة الموتى من اليهود تأخرت قليلاً، لأن طقوس الدفن عند أبناء الطائفة اليهودية مختلفة، تتخللها قراءات طويلة من المزامير والتلمود، كان هؤلاء الضحايا من أفراد عائلة شالوم، وقد عصوا وصايا العيلوم حاييم الذي نصحهم بالابتعاد عن صحبة الكبير مرشد ورجاله، لهذا

السبب اقتضى الحال أن يقيموا صلوات طويلة من أجل خلاص أرواحهم المذنبة، جاء اليهود كذلك من كل القرى المجاورة ليحضروا الجنازة، ولم تغرب الشمس حتى دفن جميع القتلى.

انفرد الجاويش عبدالله والكبير مرشد الذي بدا عليه الحزن، سمع منه حكاية الكائنين المجهولين، وحدثه كيف اقترفا فعلتهما السوداء بشكل مباغت، ما استدعى إطلاق النار عليهما، لم يبد على ملامح الجاويش أي اهتمام، لأن العراة الذين انتشروا في صنعاء وضواحيها تم إطلاق النار عليهم في وقت سابق بتوجيه صريح من الأمير الأكبر قبل رحيله، ومن بقي منهم حوصروا في الجبال المحيطة بصنعاء، ثم نفقوا على أيدي الجنود والسكان المحليين، ولم يشاهدوا في أي مكان، كان هذا في الماضي، الآن اختلفت الأحوال إثر صعود الأمير الناصر الذي استبدل نواب الألوية وعمال الأقضية، وقد جاء الجاويش موفدا من العامل الجديد الذي يريد تقريرا شاملا عن الحادث، لأن المعلومات التي وصلت إلى قضاء يريم تشي بحدوث أمور سيئة ومريبة، أثناء المقابلة أحس الجاويش بتلبك كبير القرية وهو يدلي بشهادته، وجد في حديثه المضطرب كثيراً من الغموض، مثلا لم يستطع أن يفهم منه سبب وجود الكائنين العاريين في القرية، ومن أين جاءا؟ ثم إن هذا الحادث الرهيب ليس بالأمر الهين، فقد نفق فيه ستة رجال من المسلمين، وثلاثة من اليهود، وكائنان بشريان مجهولا الهوية والديانة، بعد ذلك عرج الجاويش إلى عينة عشوائية من الأهالي، وتردد اسم سرحان وسعد والشيخ رعدان في حديثهم، كما قرع الجاويش عبدالله باب منزل روضة، وجلس وسرحان يتحدثان مدة طويلة، كان الأب قد حبس ولده في الحجرة المجاورة، لكن الجاويش عبدالله أصر أن يراه، فأتى ماشيا ببراءة طفل صغير،

وضع الجندي راحته الخشنة فوق رأسه، وسأله عن اسمه متقمصاً شخص والدٍ حنون، رد الفتى بصوت واضح خفيف اللثغة:

ـ الأميل سأد.

لم يكن عسيرا على الجاويش أن يفهم لثغة طفل صغير، لأن لديه بضعة أطفال صغار، يتهجون لفظ أمير على هذا النحو، لكنهم لا يطلقونه على أنفسهم، لأن أي طفل في هذا العمر لا يستطيع أن يدرك معنى هذا اللقب، فكيف يطلقه على نفسه! إلا إن أطلق أفراد عائلته عليه لقب "أمير"، سالت الدهشة من عينيه، كانت اللثغة خفيفة والنبرات واضحة، لا يوجد تأويل آخر للكلمات التي سمعها، أخذ يفكر بعمق، كأنه وجد خيطاً يقوده إلى الحل، أخذ يهمهم بعجب، فأحس سرحان بما يجول في رأس الجاويش عبدالله المندهش، بدا كأنه يقول في سره: كيف لابن قروي أن يسمي نفسه أميراً، وهو لم يتجاوز ثلاثة أعوام على الأرجح؟ انفعل الأب بشدة، وأخذ يعاتب ولده سعد، وينهاه عن ترديد هذا القول، خاطبه في النهاية ضاغطاً على كلماته:

ـ أنت ابن سرحان الطحان، ولست أميراً ، هل تفهم؟

ثم التفت إلى الجاويش متبسماً بخجل، أراد أن يعتذر له، لكن الفتى عاد يقول:

ـ أنا الأميل سأد.

رفع أبوه كفه ليصفعه، فأمسك الجاويش ذراعه رغم رغبته أن يصفعه بنفسه، فما حدث أمر غير طبيعي، بل خارق للمألوف، لذا لن يجدي ضرب الصبي أو تعنيفه، لأنه دون شك لا يفهم ما يقوم به، حاول الجاويش أن يضحك دون جدوى، سأل سرحان باهتمام:

ـ كم عمر هذا الصبي؟

تردد سرحان قليلاً، بدا يفكر ثم أجاب بتلبك:

ـ لا أدري حقاً، لم يبلغ ثلاثة أعوام بعد.

همهم الجاويش قائلاً كأنما يكلم شخصاً في أعماقه:

ـ هممممم، عامان أو ثلاثة أو أربعة، لا فرق! عجيب أمر هذه القرية!

احتار في أي كلام يضيفه، لم يجد أفضل من المغادرة، لعل أمر الكائنين العاريين المجهولين لم يدهشه كما فعل ابن قروي يطلق على نفسه لقب أمير، هل وصل البلد إلى مرحلة الانحدار الأخلاقي والقحة حتى يطمع العوام والفلاحون بألقاب ومناصب أفراد السلالة الأميرية؟ ألا يكفي الصراع بين الأمراء؟ بقي طيلة النهار حائراً حتى غادر وجنوده في المساء، ظل سرحان قلقاً مغتماً يسأل نفسه عن الفكرة التي كونها الجاويش عن القرية، لا يدري لماذا هو وحده يشغل نفسه بهذا الهراء، بحيث صار شعور الخوف يتملكه كل وقت، أضحى مرتاباً من أي شيء مهما كان تافهاً ولا أهمية له، في الصباح هرول في أرجاء القرية سائلا الأهالي عن شعورهم حول ما يجري دون أن يجد جوابا شافيا، مضت أيام قلائل على وقوع الحادث، تعافى فيها المحزونون أو على الأقل خف حزنهم، أضحى البعض يزاولون أعمالهم بشكل طبيعي، إمام المسجد عثمان ظل يردد إن ما حدث هو قضاء وقدر من الله، سمعه سرحان يقول بنبرات فخمة:

ـ ولدي شهيد لأنه ذهب مع الرجال ليقوموا بواجب الحراسة عند الشجرة الشوكية، لكن الكائنين الشيطانيين هجما عليهم، البقاء لله وحده.

كما أيقنت سيسبان وغنية وحميدة وبقية نساء القتلى أن رجالهن شهداء، سمعن إمام المسجد عثمان يؤكد في موعظة الجمعة أنهم يسبحون في أنهار الجنة، مع حوريات كالشموس المشعة، فأحسسن بالغيرة، واجتمعن بعد أيام الحداد للمؤانسة والسلوى، قالت حميدة متأوهة وهي تخاطب رفيقاتها الثاكلات:

ـ آه، لو قتلنا قرب الشجرة وبقي الرجال.

هتفت امرأة قاسم بحدة:

ـ يا لك من مسكينة، سوف يتظاهرون بالحزن يوم الدفن، ثم يحدقون في وجوه النساء اللواتي يحضرن للعزاء باحثين عن وجه أرملة أو عانس مازال فيها رمق.

تبسمت حميدة ثم قالت بخجل:

ـ لا أكترث بذلك، مادمت سأذهب إلى الجنة وأنال واحدا من الولدان المخلدون.

هزّت امرأة قاسم رأسها قائلة بعجب:

ـ رغم أن منزلنا لصق المسجد، لم أسمع الشيخ عثمان يتحدث في مواعظه أن للنساء ولدان أو شباب حور في الفردوس، وهذا يعني أننا سوف نذهب إلى أزواجنا في الدنيا.

ـ هذا بغيض، أتودين أن تعودي ثانية إلى قاسم بعد الموت؟

صاحت سيسبان بنزق:

ـ اخجلن يا نساء، مازلنا في أيام العِدة.

قالت غنية بامتعاض:

ـ نحن وحيدات، قدر علينا أن نكون أرامل قبل أن نبلغ سن اليأس، تركوا لنا الأطفال ورحلوا، ما أبغض هذه القرية!

ـ بقي هناك أرمل واحد في القرية، لكنه يهلك النساء، فمن تريد أن تموت شهيدة عليها أن تطلبه للزواج.

ردت غنية على امرأة قاسم باهتمام:

ـ أتقصدين سرحان الطحّان؟

هزت رأسها بالإيجاب، فتورد وجه غنية ولاذت بالصمت، ولم تدرك كل واحدة ما يجول في ذهن الأخرى.

19

لا أحد يفهم ما ينتابه من مخاوف، أخذ يخبرهم عن شعوره البغيض حيال ما جرى، في النهاية، وصل إليه رسول من الكبير مرشد يحذره أن يتفوه بما جرى عند الشجرة، لأنه لن يجد بقعة في الأرض يكون فيها آمناً من بطشه، ارتعد سرحان ووجف قلبه لهول الوعيد، فكر مغتاظاً، ماذا سيفعل به أكثر مما فعل؟ لا يخلو عضو في جسده من الندوب والخطوط التي صنعتها الأحجار والسياط، لكن الحياة ثمينة، والغياب تحت التراب أمر مريع، الحُراس الخمسة من الأهالي يعرفون حقيقة ما جرى، لكنهم كانوا يرتدون الأقنعة أيضا في تلك الليلة، ولم يستطع أن يعرفهم بسبب ألمه، بعض الأسرار تفطر القلب وتبري الجسد، والاحتفاظ بها طويلاً يبعث على الألم والحسرة، مع ذلك لا مناص من بقائها مدفونة بمكان غائر في الأعماق، على الأقل لا أمل أن تذاع في الوقت الحاضر، لا أحد يدرك هل استطاع الجاويش أن يكتشف شيئاً ما، أم أن ما سمعه من ابنه الوحيد هو الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامه؟ يا له من أحمق إن أهمل محاسبة المتسببين في الحادث! لقد بدا غير متحمسا لسماع ما جرى عند الشجرة بقدر حماسه لاكتشاف ما يظن أنه يزعزع حكم مولاه الأمير الأكبر الجديد، أي تهديد يمكن أن يحمله قول صبي صغير مازال يبول على سرواله؟! لهذا السبب أخفى عن الجاويش ما حدث تحت الشجرة، لأن ذلك قد يعرضه لسخط كبير القرية وأسحاره، وجد نفسه لا يثق بأحد، حتى بولده سعد وغنية اللذين أنقذاه من فأس الكبير مرشد، أمسى الخوف رفيقه، والحذر جليسه الدائم، زجر غنية عن التسلل إلى

حجرته في الليل، لكنها لم تيأس كعادة العاشقات، ظلت تحوم حوله وتمطره بالوجبات وتقوم بكل الأعمال في منزله، بما في ذلك رعاية ولده وبناته، تقمصت دور روضة السابق دون تحريف، لكن سبق له أن تلقى الدرس، فممارسة الجنس مع أي امرأة له ثمن يجب أن يُدفع، ما إن تنتفخ بطنها حتى يصبح الزواج أمراً محتوماً، إن لم يفعل ستنتفخ أوداج أهلها، ويأتون لقتله ذوداً عن شرفهم المفقود، مؤخراً حظي بقليل من اهتمام الأهالي، لكن الناس يقومون بمداهنة أهل المال والوجاهة، ويحبون من هم على شاكلتهم، بحيث يكون الشخص المختلف عنهم عدوا للجميع، لعل ما يلقاه من تقدير هو بسبب عدم اجتيازه الخطوط الحمراء التي حددها الكبير مرشد، إضافة إلى عودة التميمة إلى عنق ولده سعد.

في يوم قريب دُعي إلى مجلس الكبير مرشد، أخذ الأخير يرحب به ويرفع من شأنه، ثم ما لبث أن عرض موضوع زفافه على الملأ، أراد أن يسمع منهم رأياً شافياً حول الموعد الأخير الذي لا يجب أن يتأخر عنه مهما حدث، حتى لو أتت طامة كبرى، هلل الجميع كعادتهم، ولم يجدوا أي مانع، ليتزوج في أي ساعة شاء، لكنه أشار على سرحان قائلاً بغتة:

ـ ما رأيك يا سرحان أن نتزوج سوية، لقد كثرت الأرامل في القرية، بوسعك أن تختار واحدة للزواج، لا أظن أي امرأة سوف تمانع.

رد بيأس:

ـ آه، لم أعد أفكر بذلك، لقد تسبب لي الزواج بمشاكل جمة، أظن النساء كذلك صرن يخشين من الارتباط بي.

ـ اسمع، سامحني على تعزيرك، لقد كنت غاضباً منك بسبب وشاية جارك الفقيد ناصر حنشات.

ـ لا تهتم، لست حاقدا عليك، أنا أرمي الماضي وراء ظهري دائماً.

ـ هذا جيد، دعني أسألك عن رأيك في إقامة زفافي نهاية هذا الأسبوع؟

ـ أحبذ أن تنتظر أسبوعا آخر، لأن الأهالي مازالوا محزونين، أحيانا لا يكون الفرح لائقاً مع الحزن.

ـ سحقاً للحزن وأهله، ألا يحق لي أن أفرح؟ الأحوال الآن أمست هادئة، ها هي السنة تهرول نحو نهايتها، ولم يتم هذا الزواج اللعين بعد.

ـ كما تشاء، أتمنى أن يكون زفافاً صغيراً، لأن الأعراس الكبيرة تصيبها العيون الشريرة، لقد رأيت كيف انتهى عرسي وروضة.

ـ أنت يا سرحان مُدبِّر زفافي، لن أقبل منك عذرا.

ـ أنا؟ لا، أرجوك، لا أستطيع..

ـ لن يُدبِّر زفافي أحد غيرك.

سكت سرحان، ثم هز رأسه موافقاً على مضض، وخرج متعجباً، قبل أيام فعل به الكبير مرشد شر الأفاعيل، وأوشك أن يقتله، واليوم يوكل إليه أن يدير شئون زفافه الميمون! ماذا يرجو من ذلك؟ هذا الرجل لا يقف في المنتصف مطلقاً، بل تلقاه في أقصى اليمين أو أقصى الشمال، وبوسعك أن تجده في غاية الطيب أو في غاية الخبث.

كان أمام سرحان ثلاثة أيام ليُحضِّر للزفاف، استلم من الكبير مرشد عشرين ريالاً لينفقها على التجهيزات، ابتاع كبشين للوليمة، وسلّم إلى كف العيلوم حاييم سبعة ريالات لينفقها على جهاز العروس، فهو يقوم مقام والدها المريض، ناهيكم أن الزفاف لا يكون مقبولاً في التشريع اليهودي إلا بمباركة العيلوم، وقد تلكأ الأخير قليلا، ثم أملى على مُدبِّر الزفاف شروطاً تبدو في عرف المسلمين مستحيلة، وهي أن يكون العقد على التشريع اليهودي، وأن يصير الطلاق بيد مريمة، أما الأبناء في حال وجدوا، فيكونون منذ ولادتهم على الديانة اليهودية، وافق سرحان عليها للتو، ما أدهش جميع اليهود، حتى الكبير مرشد استهول هذه البنود القاصمة للظهر والعمر حسب وصفه، لأنها ستعرضه لمشاكل جمة، لا شك أن القضاة في مدينة يريم لن يجيزوا مثل هذه الشروط، لاسيما البند الأخير، اتهم مُدبِّر زفافه أنه يريد أن يوقعه في ورطة اجتماعية ودينية رهيبة، ومن ثم يجعل منه أضحوكة للأنام، لكن سرحان أصر على أن موكله هو الرابح في النهاية، لأن هناك امرأة فاتنة تنتظره خلف هذه البنود، لن يخسر المرء شيئاً عندما يدفع ما بقي من عمره من أجلها، فوق هذا وذاك، هي في الثلاثينات من العمر، وهو في الستينات، فأي امرأة تقبل به زوجاً تكون مجنونة أو مسحورة، غضب الكبير مرشد من استخفافه بمميزاته، فهو مسلم، وكبير قرية الرباط، وهي لا شيء، والزواج بها يعتبر تضحية جسيمة من جهته، اختتم ذلك مفصحا إن الحب أخرس وأعمى، لا يسأل عن العمر ولا يرى التجاعيد والخصلات البيضاء، لكن سرحان عزز الثقة في نفسه حين أخبره إن تلك الشروط وضعت عن قصد لعرقلة الزواج، وها هو في طريقه ليتزوج ويضع الجميع أمام الأمر الواقع، هز الكبير مرشد رأسه أخيرا موافقاً دون أن يتكلم.

وهكذا حُجبت مريمة في منزل العيلوم حاييم، وحفت بها النساء من كل جانب، رفض الكبير مرشد المجيء لأجل العقد احتجاجاً على بنوده، فأتى سرحان في وقت مبكر ليعقد نيابة عنه، هناك رأى مريمة زاهية ومشرقة مغرية مثل جرعة ماء باردة أمام عطشان، فكر أن يعقد بها لنفسه، لكنه للأسف رجل يحترم الكلمة والعهد، ويخشى العواقب وخيبة الأمل، لأنها لا ريب مسحورة، ولن تقبل بشخص غير موكله البغيض، ظل سادراً غائباً، لا يشك في أنه يشارك في وزر زفاف الإله للشيطان، أيقن أن الكبير مرشد لا يستحق ظفراً من أصابعها أو شعرة من رأسها، قرصت الغيرة روحه، وراح يلعن القسمة والنصيب التي يتشدق بها الناس، خرج بعد العقد محزوناً، مؤمنا إن الكبير مرشد اختاره عمداً لكي يمزق روحه ويحرق أعصابه، كذلك ليثبت إنه انتصر عليه في نهاية المطاف، لا يملك تفسيراً آخر غير ذلك، تمنى لو تضرب كارثة الأرض، أو يأتي جنود من القضاء ليقوضوا هذا العرس الشاذ غير المتكافئ، لكن الكبير مرشد حرص أن يظل العرس مقتصراً على حضور الأهالي فقط، لم يعد يرغب كالسابق أن يقيم عرساً مشهوداً يدعو إليه الأشخاص البارزين في اللواء والقضاء، لقد فطن إن مثل هذه الدعوات ستجلب له المشاكل لا محالة، بدا يتصرف بعدوانية كما لو أن مدبر زفافه قد نصب له فخاً لن يخرج منه سالماً إلا بعون من القدير وستره، لكن رغم التكتم والحرص على بقاء العُرس صغيراً وخفياً، فقد طار خبره وانتشر في القرى والأرياف القريبة، في ذلك اليوم ظهر اليهود ـ بزنانيرهم وقُفف رؤوسهم ـ متضايقين ومتفاخرين في آن واحد، فالشباب منهم خسروا فتاة نجيبة من بنات طائفتهم، ويرددون بحسرة أنها سترتمي في حضن رجلٍ لا يستحقها، أما كبار السن فقد نظروا إلى هذا الزواج بعين التشاؤم، وحين يتذكرون الماضي لا يجدون في حياتهم المديدة

امرأة يهودية زفت لرجل مسلم، بعضهم لم يجد مانعاً من تعزيز روح الصهار مع جيرانهم مادام الجميع في النهاية بشراً، لكنهم جميعا كانوا مقتنعين إن الكبير مرشد غير مناسب لها كزوج، غير أن العروس ـ وهذه هي المشكلة المحيرة ـ بدت مبتهجة للغاية، تزعم أنها ظفرت بأجمل رجل في القرية، أما النساء اليهوديات فلهن رأي آخر، وقد تحدثن من وراء ظهرها إن العريس قرد يرتدي عمامة مستديرة ليظهر وجاهته وتميزه عن الآخرين، لكن لله في خلقه شئون، لكل شخص نظر ورغبات، ومادام أعجبها هذا الشيخ فلا يوجد أحد في الأرض يستطيع أن يزحزحها عن رغبتها، حتى العيلوم حاييم نفسه لم يفلح في إقناعها بالعدول عن هذا الزواج، لم تصدق كلام الذين أخبروها بأنها مسحورة، بل سخرت من كل شخص حدثها عن قبح عريسها وأعماله الدنيئة، لأنها ببساطة كانت تراه جميلاً، وأعماله مهما كانت خسيسة تبدو أعمالاً بطولية مثيرة، حتى التعزير كان في نظرها شيئاً مسلياً غريباً، رأت إلى المعذبين العراة كدمى يعبث فيها مجموعة من الأطفال المشاغبين، لكن مشهد الدماء التي سالت من جسد سرحان لم يعجبها، استغربت أن يحدث ذلك في لعبة مسلية مضحكة كتلك اللعبة، كما أثارها عضوه المشرئب، لاحظت الشبق يلمع في عيون النساء لاسيما اللواتي تظاهرن بالتذمر، سألت الكبير مرشد دون حياء هل يملك شيئاً بذلك الحجم، لكنه لم يرد عليها بإجابة شافية، بل أوحى لها إن الغد لناظره قريب، على إثر ذلك أمست مشدوهة حالمة تترقب يوم الزفاف بصبر نافد، لم تعد صغيرة، وكراهيتها القديمة للرجال لم يعد لها أثر، أضحت تحب الذكورة وصفاتها، واختصرت العالم في شخص رجل واحد هو الكبير مرشد.

جاء يوم الزفاف الميمون وهو الخميس، كان منزل العيلوم حاييم يطل على باحة الأعراس، وهناك ميزة إضافية من ميزاته وهي إنه

المنزل الذي تصدر منه الزغاريد، كان الوقت صباحاً، والأهالي منتشرون على الباحة في أمان تام، يوزعون المهام الصغيرة بينهم، لا ينتظرون أي ضيف حسب تعليمات العريس، وهو كبير القرية في الوقت عينه، لكن في لحظة خاطفة امتلأت الباحة بأشخاص مجهولين من قرى بعيدة، وهم ضيوف الغفلة الذين يدعون أنفسهم للحضور إلى كل مناسبة جديرة باهتمامهم، ليس بوسع أحد أن يطردهم لأنهم سيثيرون الشغب والفوضى، وقد يحولون باحات القرية إلى ساحة عراك، وهذا دعا القرويين إلى ذبح عدد إضافي من الكباش، سرعان ما دقت الطبول عند خروج العريس المتوج بأزهار الحبق والشذاب، بدا مزهواً ومنتشيا، حتى لمح جموعاً غريبة من الناس محتشدة في ذلك الوقت من الضحى، فكر كيف سيكون الحال عند الظهيرة، أشار إلى مدبر الزفاف سرحان، فأقبل طائعاً، لأن أمر العريس مجابٌ، حتى في أحلك الظروف، فهمس في أذنه متبسماً بضيق:

ـ هل دعوت هؤلاء الناس؟

هز سرحان رأسه مجيبا بيقين:

ـ كلا، هؤلاء ضيوف غفلة.

ـ دع معلمي عايض يرسم خطاً سحرياً حول القرية، لا أريد المزيد من هؤلاء الأوباش.

ـ لا تشغل بالك أيها العريس، فكر فقط في عروسك.

تنهد الكبير مرشد حين سمع ذلك، أدار عينيه ناحية منزل العيلوم حاييم، كانت العروس تختلس إليه النظر من نافذة غرفتها، عندما وقع بصره عليها تبسمت، ولوحت له براحتها بتحية شهية عذبة لم يظفر بمثلها أحد، ثم غادرت بدلال وخجل، رأى سرحان ذلك

المشهد، فانتابته الغيرة، وولى هارباً لينقل الرسالة التي بثها العريس لمعلمه، كان يعرف أن غرفة التمريض أخليت وزينت لتكون مقرا للعروسين الجديدين، كما تم نقل المريض إلى غرفة صغيرة في الطابق الثاني، هناك في دار زكية رأى سرحان الشيخ رعدان واقفاً وسط تلك الحجرة، مازالت آثار الوعكة بادية على ملامحه الهرمة، مع ذلك كان يبدو مفعما بالعافية، نظراته الفاحصة تكشف عن روحه القديمة المتمردة، وتوقه للعودة إلى حياته السابقة، اندهش سرحان وهو يراه على ما يرام، أحس أنه يشاهد معجزة حقيقية، تكلم الشيخ رعدان قائلاً بتهكمه القديم:

ـ أهلاً سرحان.

بالكاد أجاب بفزع:

ـ شيخ رعدان...

لم يستطع أن يضف شيئا، فقال الشيخ رعدان بصوت متعب:

ـ لا تخف يا بني، لن أؤذيك، لقد أخذت شيئا من العقاب الذي أستحقه، وعدت من بين فكي الموت بفضل هذا الطبيب البارع! لقد تقت للحياة من جديد، أرجو أن أقضي ما بقي من عمري بعيدا عن الأخطاء.

حول بصره بامتنان إلى الفقيه عايض الذي بدا مقرفصاً باحترام وخضوع عند قدمي معلمه حتى أن سرحان لم يلحظ وجوده حين دخل، كان مطأطئ الرأس كما لو كان مذنباً، ما لبث أن رفع رأسه قليلا وقال بصوت واطئ يغلب عليه الخجل:

ـ لم أفعل شيئا كبيرا يا معلمي، سامحني، لقد عانيت كثيراً، وأنا غافل عنك، سامحني.

أخذت الدموع تسَّاقط من عينيه كالبرد، اكتنف صوته لحن من الكآبة العميقة، فبدا هرماً أكثر من معلمه، تأثر سرحان وأخرس، وسأله الشيخ قائلاً باهتمام:

ـ ماذا يجري في الخارج يا بني؟

بالكاد أجاب:

ـ عُرس.

ـ آه، أعرف.

تابع بعجب:

ـ أليس غريبا أن تتزوج مريمة هذا الرجل!

هز سرحان رأسه بالموافقة، وهو مازال تحت تأثير المفاجأة..

ـ أهي سعيدة؟

ـ نعم، سعيدة جدا.

ـ آه أيها المسكين، هذا لا يروق لك.

ـ ها قد حزرت ما في نفسي، مع ذلك أنا مُدبِّر الزفاف.

ـ هل تمزح؟

قالها الشيخ رعدان متهكما، فتورد وجه سرحان وقال بحدة:

ـ كما ترى، أنا على عجلة من أمري، ضيوف الغفلة يتوافدون والعريس يود من معلمه أن يصنع خطاً سحرياً حول القرية يعيق المتطفلين عن الحضور.

رفع الفقيه عايض بصره بتلطف وخضوع نحو معلمه منتظرا إشارته، فقال الشيخ رعدان:

ـ دع المتطفلين يحضرون يا سرحان حتى آخذ مكاني بين ضيوف الغفلة، لا أود أن ينتشر الرعب بين الناس، أحبذ أن أحضر زفاف ابنتي متخفيا، أرجو أن تكتما هذا السر.

تنحى الفقيه عايض عن طريق معلمه باحترام، هز سرحان رأسه بارتباك، راقبه عبر نافذة المجلس الكبير، رآه يسير الهوينى متوكئا على عصا من الخيزران، حتى اختفى عن مجال بصره، تبع الفقيه عايض معلمه، وغاص بين الضيوف والأهالي، وآب سرحان مفصحا أن كل شيء يسير بشكل صحيح.

سار كل شيء على ما يرام بالفعل، لم يدخل المزيد من ضيوف الغفلة لحسن الحظ، فاجتهد الأهالي في خدمة أولئك الرجال على كثرتهم، رقصوا وأكلوا وشربوا، وجلسوا يتناولون أغصان القات في منزل روضة الذي أعد لهذه الغاية، لكنهم أثناء المقيل دخلوا في جدل حاد حول هذا الزواج، كثيرون منهم أجمعوا أنه باطل، أخذوا يرفعون أصواتهم بيقين مستندين إلى آيات من القرآن تذم اليهود، بدوا كأنهم قضاة في محكمة، أو رجال فتوى كُلِّفوا بالنظر في أمر هذا الزواج، غضب العريس ونظر إلى سرحان بعين السخط، ظن أنه متواطئ مع هؤلاء الغوغائيين، أشار إليه أن يأتي، فاقترب منه وهو يتلون خجلاً، همس العريس في أذنه قائلاً:

ـ افعل شيئاً لتوقف هؤلاء الحثالة عن الخوض فيما لا يعنيهم.

ـ لنصبر بضع ساعات...

قاطعه بصوت حاد:

ـ اطردهم يا مدبر الزفاف، أو أرْغِمْهم على التوقف عن الخوض في هذا الموضوع الذي لا يعنيهم، افعل ذلك حالاً.

وقع سرحان في موقف لا يحسد عليه، لام نفسه كثيراً إذ وافق أن يدير شئون هذا العُرس، كيف يستطيع أن يسكتهم! إن لهم منزلة كريمة لا تزول تحت أي ظرف، وإن كانوا ضيوف غفلة، أو حتى أوباشاً وقحين، هل يسكتهم أم يطردهم؟ كلاهما عمل خسيس، لكن العريس أيضاً لا يُعارَض، وتعليماته ينبغي أن تنفذ على الفور، مُدَبِر العُرس من واجبه أن يُرضي جميع الأطراف، قلّب سرحان الأمر من جميع جوانبه، مطلوب منه أن يفعل شيئاً، وفي حال توقف الضيوف عن ثرثرتهم حول العرس، ستنتهي رغبة العريس في طردهم، لكن كيف يوقفهم؟ عرف أن بمقدوره أن يكذب، وأن يغير مجرى الحديث، نعم لا ضير في الكذب، الجميع يكذبون، الرجل يكذب على امرأته وأطفاله حين يمارسون عليه ضغوطاً من نوع ما، حتى كبير القرية ذاته -العريس حالياً- اضطر أن يكذب على الجاويش وعلى الأهالي، والجاويش ربما يكذب على العامل، وهكذا تدور العجلة، ما يعني أن الحياة ذاتها كذبة كبيرة.. حينئذٍ تشجع ووقف بمنتصف المجلس وصاح بصوت رافع مسموع:

ـ هيه، أنتم تتحدثون في أمر بسيط حقير وهو الزواج من يهودية، ألا تعلمون بما يدور الآن في البلاد، جيوش الأمير الناصر تتقدم وتدك المناطق المتمردة بأسلحة عملاقة من الحديد، حجم الرصاصة الواحدة بحجم أحدكم، وصوتها المدوي يُسقط الأجنة من بطون الحوامل، ليس هذا وحسب، بل إن جنوده يركبون فوق صناديق من حديد تمشي على عجلات، وعما قريب سوف يصلون إلى أرضنا ويدوسون الحقول ويهدمون المنازل، وقد أعذر من أنذر.

حلق الذهول في وجوه الضيوف، وران الصمت بضع لحظات، ثم انفجروا يتكلمون دفعة واحدة، فانسل سرحان من المجلس دون أن يلتفتوا إليه، كان يحس بالخجل لأنه كذب عليهم بشأن الرصاص كبير الحجم والصناديق ذات العجلات، لن يصدقه أحد دون ريب، وقد يفطنون إلى حيلته، رغم ذلك خاضوا في هذا الموضوع، وظلوا يتحدثون عن جيوش الأمير الناصر وسطوته، فانتشى العريس وامتن من مدبر عرسه، وغفر له توريطه بشروط العقد المجحفة.

20

أنوار المشاعل تضيء الباحة، جاعلة كل شيء في محيطها مصفراً لامعاً، بما في ذلك واجهات المنازل والأشجار القريبة، كان العريس "الكبير مرشد" ولفيف من الأهالي واقفين قرب منزل زكية بقلق، بدوا منزعجين للغاية، لكنهم لا يستطيعون الإفصاح عما يزعجهم، فالضيوف مازالوا منتشرين في المكان، لم يغادروا إلى مناطقهم كما ينبغي أن يفعلوا، كان الفضول يدفعهم إلى متابعة نهاية هذا الزواج العجيب، يريدون أن يروا اليهودية الحسناء وهي تزف إلى كبير القرية، يا له من محظوظ، فهي كما يسمعون أكثر جمالاً من كل اليهوديات، وهو مجدور الوجه شعر لحيته بيضاء، بل إنه كالمسخ في يوم عرسه، كانوا يشيرون إليه ويتهامسون بصوت لا يسمعه الأهالي، ضاق صدر العريس من بقائهم وإشاراتهم المتعجبة إلى وجهه وجسده، واستبد به الغضب، أخذ يسأل عن مدبر عرسه بإلحاح، ليأمره بطردهم بأي طريقة، هرع بعض الرجال في طلب سرحان، لكنهم التقوا بموكب العروس في الطريق، عادوا إلى العريس لينبئوه أن مدبر العرس لا أثر له، وأن الموكب قادم في الطريق، فأحس بالفرح، لم يعد يكترث بسرحان أو الضيوف، لعله قال لنفسه بحماس: "عروسي قادمة، ليذهب مُدَبِّر الزفاف والضيوف في داهية".

وبالفعل أقبلت العروس على بغلة نجيم، كانت المغنية سعدية تهزج بأغانيها المميزة على وقع الدفوف، كانت الزغاريد تلعلع في الباحة دون أن تتوقف، والفتيات الصغيرات يحركن المشاعل يمنة ويسرة

فتتراقص الأضواء حول الموكب وتكاد تخطف الأبصار. تقدمت البغلة حتى توقفت أمام العريس بجلال، لاحت العروس على ظهرها محاطة بالمشاقر، تعبق منها الروائح الزكية، كانت بملابسها الملونة الزاهية وقوامها الممشوق تأسر القلوب، بدت الخُنَّة منسدلة على وجهها خوفاً عليها من العيون الخبيثة، فيما تحيطها ستارة أنيقة مثل مفاجأة سارة أو هدية يكشف غلافها الزاهي عن غلائها ورونقها، ترجلت على مهل فامتدت أيادي النساء لمساعدتها على النزول، تقدم العريس بلا وعي ليأخذها، لكن الرجال أمسكوه، لأن من اللائق أن يحتفظ برباطة جأشه حتى تصل إليه.

اتجهت ناحيته بشوق، فأوقفتها النساء في الموضع المسموح لها أن تتوقف عنده، ولم يسمحن لها بالتقدم أكثر رغم محاولتها الذهاب إليه، أمست قريبة منه تفصلهما ثلاث خطوات، في تلك الأثناء ذبح لها شعنون كبشاً لتدوس على دمائه، ففعلت واقتربت خطوتين إضافيتين، حتى بقيت بينهما خطوة واحدة، مد العريس ذراعه فأمسكها جهلان الخضري، وأعادها إلى جانبه خاوية، حين ذلك غمره الغضب لأنه لم يعتد أن تعود يده خاوية إن أراد شيئاً، ثم ما لبث أن استعاد طلاقة وجهه كأنه تذكر أن الناس هنا يعاملونه كعريس وليس كبير قرية، وعليه أن يلتزم بالتقاليد، لم يعد هناك سوى طقس المسح لتصبح العروس بمتناول يده، كان الأهالي يتلفتون بقلق وهم يرددون بقلق عبارات متفرقة وأسئلة لا يحب أي عريس أن يسمعها، أين إمام المسجد عثمان؟ لا أثر له هُنا، هذا غريب، لأنه لا يغيب دون سبب، أغلب الظن أنه متوعك، من يمسح على رأس العروس ويقرأ عليها دعاء الدخول؟ نادي الناس بعضهم البعض، هيه، من يستطيع أن يمسح ويدعو؟ الجميع

يستطيعون المسح، يكفي أن يضع الماسح كفه على رأس العروس، لكن الدعاء هو المطلوب.

ـ أنا أستطيع أن أمسح وأدعو.

صعد هذا الصوت الغريب، ظهر شيخ مسن كثيف الشعر من بين ضيوف الغفلة، اقترب من العروس بثقة، فابتهجت أسارير الوجوه، وازدحم الناس ليروا طقس المسح، حجبت أجسادهم أضواء المشاعل، وغمرت ظلال شفافة ملامح الشيخ الماسح والعروس، عادت البهجة إلى نفس العريس، وتمنى أن يسرع الشيخ ولا يبطئ، لكن الشيخ كان يبدو وانياً مرهقاً، يتحرك ببطء قاتل، أخيراً مد أنامله إلى جبهة العروس بارتعاش، راح يرطن بلغة مجهولة، ممسكاً آنية صغيرة مليئة بالماء، من فينة لأخرى يبلل أنامله وينفض ما علق بها في وجه العروس، كان هذا تصرفاً محيراً، وأوشك العريس أن يتدخل، فهو في السابق - قبل أن يكون كبيراً - كان يمسح على رؤوس العرائس، أما طقس المسح عند هذا الشيخ فمختلف عما عرفوه في أعراس القرية، لعله مشعوذ دجّالٌ يقوم بعمل السحر، كان العريس أيضاً يفهم في هذا الشأن، لذا بلغت الريبة في نفسه مبلغها، وراح يبحث بنظره عن سرحان، سائلا نفسه بقلق: من يكون هذا الشيخ المعتوه؟ أين مدبر الزفاف اللعين ليرى ما يجري هنا؟ أخذ يفحص ملامح الأشخاص الحاضرين عله يجد تفسيراً، كانت معظمها وجوها متجهمة غريبة تلوح صفراء على أضواء المشاعل، كان الزحام على أشده والماسح المسن يوليه ظهره، أخيراً سمع الشيخ ينطق كلمات تشبه "شاعيم شوكانيم..." عندئذٍ خمن أنه ماسح يهودي جلبه العيلوم حاييم ليمسح وفق التشريع اليهودي مستعملاً اللغة العبرية، لم يكترث بأي لغة يستعملها الماسح حتى لو كانت لغة الشياطين، تمنى فقط أن يسرع،

مع ذلك ظل الشيخ المسن دائباً في عمله غير مكترثٍ بقلق العريس وظنونه، لأنه الماسح المتوفر في تلك الليلة، ومقاطعته تعني المزيد من التعثر والتأخير، همس بعض الأهالي وهزوا رؤوسهم وهم يحضُّون رفاقهم على الصبر وعدم التسرع في الحكم، تمهلوا، عسى أن يكون في ذلك نفعاً من نوع ما، الناس لهم مذاهب وطقوس تختلف من أرض إلى أرض، لا يعلم إلا الله من أي بلاد جاء هذا الماسح، بعد لحظات، وعلى نحو مفاجئ نفض الشيخ الماسح الماء المتبقي على رأس العريس، معلناً انتهاء طقس المسح، وهذا خفف من انفعال الحاضرين، فجأة تنحت العروس جانباً وراحت تتقيأ على الأرض سائلاً أصفر كالصديد، بدت كالمريضة، مد العريس ذراعه إليها، ولم يعترض طريقه أحد، أمسكها ورفعها عن الأرض، وضمها إلى صدره بخوف، بدا كما لو كان يوشك أن يحملها بين ذراعيه إلى غرفته، زغردت النساء ثم صمتن، وارتفع إثر ذلك صوت المغنية سعدية تناشده أن يحملها إلى الأعلى، صدحت بما يشبه الكلمات التي أطلقتها في وقت سابق عند زواج سرحان وروضة.

احمل عروسك يا عريس احمل الدر النفيس

أنت فرح أنت سعيد معصمك مثل الحديد

كرر الناس الكلمات وصفقوا مشجعين العريس على حملها، نظر الكبير مرشد حوله بارتباك، ولمح مدبر عرسه سرحان الطحان، رآه يصفق بحرارة ولؤم، يردد النشيد خلف المغنية الخبيثة، فأحس بالحنق والحقد، وارتسمت في عينيه هذه العبارات: " أخيراً ظهر اللعين في الوقت الذي لا أريد أن أراه، ها هو ينتقم لما حدث يوم زفافه وروضة، كيف تورطت في تكليفه بتدبير زفافي!".

تلفت هنا وهناك، كان الجميع ينظرون إليه بعشم، الرجال والنساء وحتى الأطفال، تفرس في عروسه، بدت رشيقة لدنة ليس في جسدها كثيرا من اللحم، باستثناء صدرها الناهد وجذعها المدور المختوم مثل كفل فرس يافعة، بوسعه أن يحملها بسهولة فيما لو امتلك الحماس والعزم الكافيين، لم يجرب أن يحمل امرأة منذ وقت طويل، هذا لا يعني أنه بات عاجزا عن حمل امرأة بحجم مريمة، بوسعه أن يحملها في حجره كطفلة، هذا يسير للغاية، شجع نفسه، انحنى وحمل العروس، فسقطت عمامته، وظهرت خصلات رأسه البيضاء التي حرص أن يخفيها، تسابق الرجال وأعادوها إلى رأسه، فصارت مائلة بشكل مضحك، تساقطت حبيبات نبتة الحبق العطرية إلى عينيه، فأصبح متضايقاً يرمش ويحرك أهدابه بتوتر، نزل العرق من جبينه وتسلل إلى عينيه، غدت الرؤية ضبابية والألم يجبره على إغماض جفنيه، أخذ يرمي قدميه كيفما اتفق صاعدا السلالم ببطء، كانت بعض الفتيات الصغيرات يحملن الشموع أمامه، لكنه لم يعد يراهن بوضوح، كان يسمع فقط وقع أقدام الرجال وزغاريد النساء تأتي من خلفه، نظراتهم لا ريب تتعقبه، لا يتحتم أن يستسلم، صار يتقدم خطوة ويقف هنيهة ليسترد أنفاسه، ثم يستجمع قواه ليرفع قدمه إلى الدرجة التالية، بدت عروسه ثقيلة، مع أنها بحجم فتاة مراهقة، خطر له أن اليهود أثقلوها بالحلي وعقود الفضة وحبوب الكهرمان التي يجيدون صنعها، إنه يسمع صوت الفضة يقعقع في ساعدي العروس المتأرجحين في الهواء، مهما يكن، فإنه يبدو ضعيفا ومحبطا أكثر من أي وقت مضى، مع كل خطوة يزيد الضغط على ساعديه حتى خدره التعب، أمسى يرفع قدمه فلا ترتفع، أخيرا تشنج ساعداه ثم ارتخيا، فجثم بحمولته عند منتصف السلالم في الطبقة الثانية، أخذ يدعك عينيه بأطراف أكمامه كطفل يمسح دموعه، حل الوجوم

والخزي في الوجوه، وتوقفت الفتيات الصغيرات حاملات الشموع يعلو وجوههن الضجر، كما سكتت المغنية سعدية إثر ذلك، وحل صمت ثقيل غير مستحب، تنحى العريس لاهثا فاتحا فاه بإعياء، ثم نهض بعزيمة ومد ذراعه للعروس ليساعدها على النهوض والصعود، في تلك الأثناء، أجفلت مريمة بخوف، وأخذت تحدق في ملابسها بعجب وتتلفت حولها بضيق، نهضت فجأة، وخلعت الخُنة المنسدلة على رأسها، ورمتها في وجه العريس اللاهث صارخة باستنكار:

ـ ماذا تريد مني يا هذا؟

تقدم الكبير مرشد ناحيتها مجيباً بصوت متقطع:

ـ مريمة، هذا أنا، عريسك! هيا بنا نصعد إلى غرفتنا.

ـ عريسي؟ هذا محال! ماذا يجري هنا؟

تملصت منه، وهرولت هابطة السلالم دافعة الرجال والنساء عن طريقها، فتبعها وهو يصيح:

ـ مريمة، ماذا جرى لك؟ أنا زوجك.

ـ أين أبي؟ أين العيلوم حاييم؟ كيف تزوجوني بهذا الرجل دون أن أشعر؟

ـ انتظري، لقد سحرك ذلك الماسح اللعين، إنها مؤامرة دنيئة، أين مُدبِّر الزفاف؟ أين سرحان؟ لن تفلت من يدي أيها الكلب.

عاد الكبير مرشد إلى مجلسه غاضباً، انتزع البندقية السلطانية من المشجب، وانطلق مسرعاً خلف عروسه، فر الضيوف والأهالي من طريقه، تدافعوا على السلالم وداسوا بعضهم، لم يجرؤ أحدٌ على اعتراض سبيله، فخرج وهو يصرخ:

ـ أريد عروسي، أريد امرأتي، ليس الزواج مزحة، أين مدبر الزفاف؟ لن تفلت مني أيها البغيض.

تردد الخبر في أرجاء القرية بأن العريس "الكبير مرشد" يبحث عن مُدبِّر زفافه شاهراً البندقية في يده، ويبدو من نظراته أنه يصبو إلى قتله، أسرع الضيوف خلفه محتفظين بمسافة آمنة، كان واضحاً أنهم لم يتوقعوا حدوث شيء كهذا، ولا يودون أن يتحول العُرس إلى مأتم، لذا لحقوا به آملين أن يوقفوه عن التقدم، أو على الأقل يتوسلون إليه أن يرجع حتى تتجلى الحقائق، لم يجدوا رجلاً صنديداً من الأهالي يتصدى له، كان العريس غاضباً يطلق النار في الهواء محذراً، لا بد من وجود وسيلة ما لإرغامه على الرجوع إلى جادة الصواب، راح الضيوف ـ رغم ما يقال عن سيرتهم البغيضة ـ يصرخون مستغيثين بالأهالي: افعلوا شيئاً يا أهالي الرباط قبل أن تحدث مصيبة جديدة، أنتم جميعاً في خطر، لاسيما سرحان والعروس، حتى العيلوم حاييم الموقر، الكبير مرشد قادم وهو يهدر ويرعد وفي يده بندقية، انذروا مدبر هذا العُرس اللعين أن يفر، ليرتدي ملابس امرأة ويضع خماراً على وجهه، انذروه ليختبئ في حظيرة أو زريبة حتى يثوب هذا الرجل إلى رشده، لقد أتينا إلى القرية من أجل الطعام والرقص والمرح، لم نأتِ من أجل دفن ضحايا هذا العريس الأحمق الذي فرَّت منه عروسه، الله وحده يعلم ما وراء ذلك من أسرار، لا شأن لنا بهذا، ليوقفه أحدكم...

هكذا حاول ضيوف الغفلة أن يحفزوا الأهالي على إيقاف كبير قريتهم، لكنهم كانوا مضطربين لا يحبذون أن يحشر الضيوف أنوفهم في مشاكلهم وأسرارهم، سرعان ما نفش بعض رجال القرية أجسادهم وقالوا للضيوف بغضب إن الكلام والصراخ سهل للغاية، وإن أرادوا السلامة وفعل ما هو صائب، فإن عليهم المغادرة، لأنهم

يزيدون الطين بِلّة، لمّا سمع الضيوف ذلك نكسوا رؤوسهم وغادروا ساخطين، وهم يدمدمون: أهذا جزاء المُصْلِحين أيها الجبناء؟ لا يهم، فلتهلكوا عن بكرة أبيكم، لا شأن لنا.

بمجرد أن رأت غنية الكبير مرشد يخرج شاهراً سلاحه، وسمعت صوته الهادر، ركضت وسط القرية كالمجنونة، كان سرحان يمشي في أحد الأزقة سادراً كالمجنون، أخيراً شعر بالندم لأنه زف المرأة التي يحبها إلى كبير القرية الغشوم، لم يستطع أن يتحمل النظر إليه وهو يحملها ويصعد بها على درجات السلالم، شعر كأن شيئا هاما انتزع من حياته أو من جسده، لا يسعه إلا أن يشعر بالنقص والفقد الدائمين طوال حياته، ساعتها فقط أيقن أن حبه لها ليس مفتعلاً، بل يجري في روحه جريان الماء في السواقي، لم يأبه لصوت إطلاق النار المدوي، ولا بالأشخاص الذين يركضون في الشارع هاربين لسبب ما، لم يكن يشعر سوى بالضياع وانحسار العمر، لحسن حظه أنه لم يصل بعد إلى مرحل الغياب التام عن الوعي، لذا استطاع أن يسمع صراخ غنية يأتي من خلفه: "اهرب يا سرحان، الكبير مرشد قادم ليقتلك" استطاع أن يميز صوتها الحاد، عرف من نبراتها المفعمة بالرعب إن هناك ما يدعو للقلق، رغم ذلك تلكأ بعض الوقت، تملكته الحيرة، فكر فيما يدعو هذا العريس البغيض إلى قتله بعد أن زف إليه المرأة التي قدر له أن يعيش كئيبا بعد زفافها! دوى صوت الكبير مرشد الصاخب: أين أنت يا سرحان الكلب؟ ارتج الزقاق بفعل رصاصة بندقية أطلقت من مكان قريب، لم يعد لديه متسع للتفكير أو السؤال، فمضى يركض بكل قواه في الظلمة، كانت المنازل تبدو مغلقة بلا أضواء وجميع الدروب شبه مسدودة، إلا منزلا واحدا كان الضوء يتسرب من نوافذه العلوية، عرف أنه منزل العيلوم حاييم، وأن تلك الأنوار هي ما بقي من آثار الزفاف، هرع ناحيته طلباً للنجاة متمنيا ألا يكون بابه موصدا، عند

بابه المفتوح اصطدم بشخص أبيض الشكل يركض ويروم الدخول، ندت عنه صيحة فزع حادة، استطاع رغم العتمة أن يدرك أنها امرأة، أجفل وتراجع للوراء معتذراً، سمعها تخاطبه بغضب أن يذهب بعيداً، ثم قفزت إلى الداخل، وأوشكت أن تصفق الباب في وجهه، غير مهتمة بوقوفه على العتبة، فكر في أن أصوات النساء تكون متشابهة في العتمة وعند الخوف، لكن نبراتها الواثقة تشي بأنها من سكان المنزل، حمامة أو ابنتها عفراء، بطبيعة الحال، من حقهن ألا يسمحن له بالدخول، بيد أن خطر الموت يلغي كل الآداب والقواعد، أسرع مقحما ذراعه المتين في الفجوة الصغيرة بين العتبة ودرفة الباب الذي يوشك أن يوصد، دق الخشب معصمه بقوة، حتى أحس أن ذراعه انخلع من الكتف، لم يجد فسحة للاحتجاج أو التوجع، أخذ يدفع بواسطة ذراعه الشمال وكتفه بأقصى قوة يملكها، وهي القوة الهائلة التي يولدها الألم والخوف، فانفتحت فجوة صغيرة حشر جسده فيها، في تلك اللحظة ارتفع صوت العريس الغاضب:

ـ أين عروسي يا سرحان؟ ليس بوسعكم خداعي يا عيلوم حاييم.

زاد ضغط المرأة عليه، رفع صوته هامساً بتوسل:

ـ ماذا دهاك؟ أنا سرحان، أرجوك، إنه يحمل بندقية ويروم قتلي..

ازدادت مقاومتها أكثر، فسأل نفسه بضيق: أي شيطان تلبس جسد هذه العفريتة؟ لِمَ تحرص أن تقذف بي إلى الخارج؟ استطاع أخيراً أن يرمي جسده إلى الداخل ويوصد الباب، رغم ذلك لم ينته الأمر، أنشبت المرأة أظافرها في جسده وهي تبكي وتصرخ، راحت تضربه وتعاركه في الظلام كخصم لدود، حاول أن يتفاداها دون جدوى، ظلت تلاحقه بالضربات المتتالية دون كلل، حتى تملكه

وسواس بغيض جعله يشعر بالفزع، فالشياطين أحياناً تتقمص أجساد البشر، هل هي شيطان بغيض؟ سأل نفسه بارتياب.

كان معصمه يؤلمه بشدة، وهي تصارعه بذراعين سليمين شابين على ما يبدو، لم تكن شيطاناً، بل أنثى شرسة تفوح منها رائحة طيبة، ظل يناوشها بتقاعس حتى أصابته بضربة خبيثة على ذراعه المصاب، شعر إثرها بألم حاد، فثار غضبه وارتمى على المرأة أو الشيطان الذي يضربه، واحتواها بذراعه الشمال المفتول، ورفعها حتى ثبتها على الجدار، تشبث بجسدها الثائر ليمنعها من ضربه، أصبح ذراعاه ملفوفان حول ظهرها وشفتاه تلامسان صفحة عنقها، أحس بنفسه ملتصقا بجسدها في وضع مريب، بدت منهارة مرهقة توجه ضربات يائسة إلى ظهره العريض، التوت ساقيها المتعبين حول وركية، وصار الوضع مخجلا، فمضى يقول بنبرات حادة متقطعة:

ـ ما خطبك يا امرأة؟ لست لِصاً، أريد فقط الاختباء بعض الوقت.

ضعفت مقاومتها أكثر وأجابت:

ـ اتركني، أنت مُدبِّر هذا العُرس المشئوم، وتستحق الموت.

ـ أنا مذنب حقا، ما كان ينبغي أن أوافق...

قطع عبارته حين ارتفعت أصوات أقدام هابطة سريعة، شع ضوء السراج متوهجاً على السلالم، ثم ظهرت وجوه عدد من الرجال المألوفين، العيلوم حاييم، الشيخ رعدان، الفقيه عايض، وبضع رجال من اليهود، اقتربوا منهما سائلين عما يجري، فأخرس سرحان، ورد بصره إليها، كانت العروس الهاربة مريمة في حضنه، شفتاه بمحاذاة شفتيها، حينئذٍ ارتد عنها مرتبكاً، ففرّت صوب الأعلى فرار فتاة قاصر أفلتت من بين ذراعي مغتصب،

رفع سرحان ساعده الجريح أمام وجوه القادمين دون أن يتكلم، كأنه يرفع دليل براءته أو يستنجد بطبيب، أتى صوت العريس مرعدا من الخارج:

ـ يا عيلوم حاييم، أريد عروسي ومدبر عرسي، أعرف أنهما مختبئان في منزلك..

دوى صوت البندقية، وتصاعدت ألفاظ الكبير مرشد الفاحشة، كما ازدادت وتيرة تهديداته، فصعدوا مسرعين للأعلى، اجتمع الرجال والنساء في حجرة آمنة وسط المنزل، وأخذ الفقيه عايض يعتني بالجرح الظاهر على ساعد سرحان، كان الخوف يكسو وجوه الجميع، أراد الشيخ رعدان أن يُهدئ روعهم، ويثبت أنه يستطيع أن ينقذ الموقف، فقال بصوت عالي النبرات:

ـ سأرى ما يريد هذا الرجل.

تحرك إلى الأمام، فأمسكه العيلوم حاييم قائلاً بوجل:

ـ عُد يا شيخ رعدان، إنه يحمل بندقية، والأهالي المسلمون يحملون الفؤوس، لقد أخذ كتبك وخاتمك، وصار يتقن كثيراً من التعاويذ والأسحار.

تجاهله الشيخ رعدان، وانزوى جانباً، أخذ ينثر لعابه على راحته ويمسح جسده مرددا كلمات غريبة، ثم خرج ممسكاً بسراج مضيء، فأطلق الكبير مرشد النار عليه، لكن الرصاصة ارتدّت عن جسده، وسقطت على الأرض كحبة لوز صغيرة، ذهل الكبير مرشد مما رآه، فأخذ الشيخ الهرم يتقدم صوبه دون خوف، لم يعرفه لأنه مازال متنكرا بالتعاويذ، قال الكبير مرشد يخاطبه بمقت:

ـ أنت الماسح اللعين الذي سحر امرأتي وجعلها تكرهني.

ـ إن ابنتي تكره جميع الرجال يا مرشد.

ـ ابنتك؟ لكنك تبدو متنكرا، لم يخطر هذا في بالي، كيف نجوت...؟

قاطعه قائلا:

ـ تعافيت بفضل معلمك الفقيه عايض...

قاطعة محذرا:

ـ اسمع أيها الشيخ البغيض، لقد أخذت جميع مهاراتك وكتبك، لم يعد هناك سوى مريمة، أعدها إليّ، إنها امرأتي الآن والعقد يشهد على ذلك.

ـ لا بأس، سأناديها لتخرج إليك.

استدار الشيخ رعدان، ونادى على ابنته أن تخرج إلى زوجها، فصاحت بصوت حاد عبر النافذة:

ـ لا أريده، أنا الآن عند العيلوم حاييم أفسخ عقد الزواج.

حين ذلك التفت إليه قائلاً بيأس:

ـ هل سمعت يا مرشد كلام العروس؟ إنها لا تريدك، وعقد الزواج يجيز لها أن تفسخ متى شاءت.

ـ هكذا إذاً، لكنكم تأوون مُدبّر العُرس، مازال بيننا بعض الحسابات يجب أن نصفيها.

ـ ارفع فوهة بندقيتك إلى الأعلى، سأناديه الآن، لكن إياك أن تمسه بسوء.

رفع الكبير مرشد سلاحه للأعلى ليثبت حسن نيته، نادي الشيخ رعدان على سرحان أن يخرج، كان الأخير جالساً معصوب

الذراع، حين سمع النداء فز مرعوباً، بدا أنه لا يود أن يغادر المكان، جعل اليهود يحثونه على الخروج، ويهدئون من روعه بكل السبل، جربوا لإقناعه شتى الجمل والكلمات المشجعة، لن تصاب بسوء، اطمئن، أنت في أمان، حياتك في عنق الشيخ رعدان، هيا تشجع، كن رجلاً.. وغير ذلك من الكلام اللطيف، لكنه ظل غير مطمئنٍ إلى تلك الدعوة، ردد بعض العبارات المرتبكة، مبديا كثيراً من الظنون، أنا أعرف الكبير مرشد، إنه شخص ماكر، ليس له عهد أو ذمة، لقد نجوت منه في المرة السابقة، ولن يحالفني الحظ بالنجاة هذه المرة، وتابع قائلاً بإصرار:

ـ ماذا جرى لعقولكم؟ لن أسلم روحي للموت.

بهذه العبارة اختصر سرحان موقفه متشبثا برفضه، لكن النداء ظل يتكرر من الخارج، يئس اليهود من إقناعه ولاذوا بالصمت، فاقتربت منه مريمة أخيراً، وقالت بنزق:

ـ هيا أيها الرعديد، أخرج إليهم، وسأكون امرأتك هذه الليلة، اشهدوا على ذلك.

أجاب بأسى:

ـ سأفعل هذا من أجلك وحسب، ما أغرب هذه الدنيا، يبذل الناس لك أنفسهم لكي تموت! وداعاً لا لقاء بعده.

هبط السلالم حانقا ومنفعلا، بقيت بضع درجات، فجأة انفتح الباب قبل أن يصل إليه، ولمح أحدهم يخرج، وعلا صوت الشيخ رعدان قائلا:

ـ ها هو مُدبِّر عرسك، إياك أن...

قطع عبارته دوي صوت البندقية المفاجئ، وندت صرخة مكتومة قرب الباب، وصاح الشيخ رعدان بصوت عالٍ حزين:

ـ أيها الخائن الناكث للعهد، قتلت الرجل بعد أن أعطيته الأمان.

جثم سرحان على السلالم منهاراً، هناك رجلٌ ميت عند الباب، يظنون أنه هو، ترى من يكون؟ اقترب أحد المشاعل وارتفع صوت جهلان الخضري:

ـ رباه، الطبيب.

هتف الشيخ رعدان:

ـ استدعوا الفقيه عايض لينقذ الرجل، هل مازال حياً؟

ـ بل هو الطبيب الفقيه عايض، إنه لا يتحرك.

ارتفع صوت الشيخ رعدان قائلا بقهر:

ـ قتلت ابني الحبيب عايض! هذا فظيع، لن تنجو يا مرشد.

سرعان ما استعرت حرب التعاويذ بين الساحرين، وكلما أتى الشيخ رعدان بتعويذة استطاع الكبير مرشد أن يبطلها، ثم يقابله بتعويذة أخرى، هرب الأهالي ولاذوا بأركان المنزل، راحوا يراقبون حروب السحرة، فأحياناً يرونهما ذئبين، وفي حين آخر ثعبانين ضخمين، أعتم الجو بشكل مفاجئ، بعد لحظات تصاعدت النيران مبددة الظلام، وعصفت الرياح، وقصفت الرعود، وزلزلت الأرض.. اختبأ الأهالي خلف المنازل القريبة وتشبثوا بالجدران، جرَّب الشيخ رعدان جميع حروب الطبيعة، لكن الكبير مرشد كان يتصدى لها، عرف الأول إن خصمه أخذ كل تعاويذه، لم يعد هناك سوى تعويذة واحدة لم يجربها، وليست في كتبه الضائعة التي نهبها الفقيه مرشد عقب مرضه، كان قد وجد خاتمه وقنينة العطر

بالمصادفة مخفيا بين ثياب عتيقة مرمية بإهمال في خزنة على جدار غرفة الأطفال المعتمة، تعرف على رائحة العطر بسهولة أثناء بحثه عن أغراضه الأثيرة، وتساءل عن سبب وجود شيء هام وخطير في خزنة الأطفال، ربما وضعه الكبير مرشد حيث لا يفطن أحد إلى مكانه، لكنه فيما بعد نسي أين أخفاه، وبواسطة الخاتم جلب الشياطين كتبه الخطرة من تحت أنقاظ منزل الفقيه مرشد المحطم، كانت في حقيقة الأمر تخص معلمه زيد الغرّيش، ذلك الساحر المرعب الذي كان يحبس المطر على الناس حين يغضب، وكلما مر في أرض تهاجر طيورها وحيواناتها أو تنفق، يقال إن إشعاعات سحره وشروره وتعاويذه، كانت قوية بحيث تصيب الأشخاص الملازمين له بأعراض خبيثة أبسطها الزهايمر وأعظمها الجنون والعمى والجذام والأورام الخبيثة، فقدت امرأته بصرها منذ وقت مبكر من زواجهما، ثم ماتت بعد بضعة أعوام، كان رجلا مؤمنا يعمل قيّما في مسجد صغير لصق منزله، في محرابه تمثالان كبيران غريبان مصنوعان من عظام الحيوانات، لا يرتاد المحراب أحد سواه، كانت طقوس صلاته غريبة بحيث يطول وقوفه أمام التمثالين المقدسين الذين يمثلان الله والشيطان، حين استفحلت الشائعات حول طقوسه ومروقه عن الدين وجهت إليه السلطات الدينية في الإمارة ـ بمؤازرة من المبجل أمير البلاد ـ حملة مؤلفة من مائة رجل مسلحين بالبنادق العربية، لكن هذه السرايا تبخرت خارج القرية، بحيث لم يجدوا تفسيرا لاختفائها، منذ ذلك اليوم، غضوا الطرف عن هرطقاته ودينه الغريب الذي يقوم على عبادة "الثنائي المقدس"، لم يكن يدعو الناس إلى ممارستها أو يهدد سلطات الإمارة، ولا يفارق منزله ومسجده، أهالي قريته هاجروا مذ أحسوا بخطره وإشعاعات سحره الضارة، بقي وحيداً

وأطفال معتوهين لا يشعرون بأنفسهم، يتحركون كالأشباح بلا هدف أو وعي وسط قرية مهجورة.

طلاب العلم ومنهم رعدان البهري كانوا يغيثونه وأطفاله بالزاد والماء، مقابل ذلك يأخذون منه التعاويذ، ويتعلمون صنع الأدوية الطبية، لكنهم لم يقابلونه وجهاً لوجه سوى مرات قليلة، كان يلقي عليهم دروسه من خلف جدار متين، ثم يعودون إلى قراهم خوفاً من إشعاعاته القاتلة، في يوم من الأيام، وجدوه محترقاً وعشرات من كتبه الغريبة، لم ينج من الحريق سوى بضع كتب كانت في صندوق حديدي مقفل، وهي الكتب الخطيرة ذاتها التي كانت في معية الشيخ رعدان، باستثناء المندل السليماني، حين قبض الجنود عليه وهو نائم نهبوا هذه الكتب، وكذلك مخلاته التي تظل قريبا منه، بحيث بقيت ثلاثين عاما مرمية في مستودع داخل القصر، لم يدركوا أن المندل مختبئ داخلها، استعادها بواسطة شياطين الخاتم، ها هي الآن جميعها في حوزة الكبير مرشد الذي يقاتله الآن، صار ماهرا في استخدام التعاويذ المهلكة الخاصة بقوى الطبيعة، لكن هناك تعويذة وحيدة مهلكة لم تدون في هذا الكتاب المحظور، لا يعرفها سوى عدد قليل من السحرة، وهي تعويذة التراب، أهداها له معلمه زيد الغريش في ساعة من ساعات صفائه النادرة، لأنه كان أكثر رفاقه نباهة وخضوعا واحتراما لمعلمه، لا يشبهه في تفانيه سوى الفقيه عايض الذي قتله تلميذه الشرير، ولأجله تدور هذه الحرب الهوجاء التي لم يشهد أحد مثيلا لها من قبل، سالت دموع الشيخ رعدان حين خطر تلميذه المطيع في ذهنه، سرعان ما انبطح على الأرض وقبض التراب بأنامله المرتعشة، وشرع يقرأ التعويذة, فصار جسد الكبير مرشد يغرق في الأرض حتى اختنق صوته الصارخ المستغيث وسط التراب، تفرق الأهالي إلى منازلهم بمشاعر متباينة..

دفن الفقيه عايض وسط تربة غريبة، بحيث خشي الأهالي أن يظهر أقاربه محتجين ناقمين، لكنهم اتبعوا وصية معلمه الذي بدا في نظرهم بمثابة والده، كما ظلت في قلوبهم بقايا من هيبة الكبير مرشد ما جعلهم يحفرون عميقاً في التربة حيث غاص جسده، حفروا بضعة أمتار، ولم يعثروا له على أثر، أصر أبناؤه على الحصول على الجثة لدفنها في قبر واضح المعالم، وتكريمها بشاهد حجري يكتب عليه "هذا قبر المرحوم الكبير مرشد بن فلان.."، ساروا في طريقهم نحو العامل لتقديم شكوى ضد الساحر المسن، ما جعل الشيخ رعدان يلجأ إلى تعاويذه الطيَّارة، فأعادهم من مشارف المدينة، حين وصلوا القرية رأوا جثة والدهم على الموضع الذي اختفى عنده، فأخذوها ودفنوه في قبر لائق، ثم غادروا إلى أمهم في قرية مَنْوَز ليعيشوا معها بعيدا عن قرية السحرة، أعلن الشيخ رعدان أنه كان مضطرا إلى خوض تلك المنازلة واقتراف آخر مخالفة لوصايا أسلافه في سبيل إيقاف القوى الشريرة التي سكنت جسد الكبير مرشد الذي تلقى هو الآخر العقاب على المخالفات الجمة التي اقترفها كالتعذيب والقتل والزواج بواسطة تعويذة المحبة، رغم الأحداث الأخيرة التي جرت في القرية لم يزرهم جنود الجاويش عبدالله مرة أخرى، رغم توقع الأهالي أن يهلوا عليهم بين لحظة وأخرى، حتى أيقنوا إن الساحر العجوز صار يتحكم بالأمور بواسطة تعاويذه، لذلك أمسوا يخافون منه ولا يجرؤون على إغضابه.

21

هنا، في قرية الرباط، حيث عم الهدوء المريب، بدأ الأهالي يشعرون بالضجر من بقاء الوضع ساكناً، تحدثوا عن الأمر بشيء من الفضول والامتعاض، عجبوا لأنفسهم، إذ يداهمهم القلق حين تكون حياتهم هادئة وادعة، حتى صار بوسعهم الجزم أنهم أدمنوا على المتاعب، ولا يطيقون العيش بسكينة، ظل كثير منهم يثيرون المخاوف، مؤكدين إن بقاء السّحرة في قريتهم يجعلهم في قلق دائم، رغم ذلك أتوا إلى الشيخ رعدان مفصحين عن حاجتهم لشخص يرجعون إليه عند الضرورة، كان الشيخ المسن يرى إن الكبير لا يغني ولا يسمن، ولا يدري ما يمكن أن يقدمه الكبير للأهالي! حتى بات يظن أن خلو القرية من كبير يعني خلوها من المشاكل، ومع سيطرته وظهوره بمظهر الزعيم، إلا أن انزوائه في داره جعله يبدو متنصلا ولا مباليا، ناهيك أنه غدا في أرذل العمر، كانت صحته تبدو جيدة ووعيه حاضراً، وقد حرص على التخلي عن مظهره العرقي، لم يلبس قفته اليهودية أو يطلق زنانيره، أو يتحدث عن الكنيس المقدس أو يمارس أي شعيرة دينية، بل مارس عمله القديم كطبيب، فعالج بعض الأمراض المتفشية في أجساد الأطفال، كالحصبة والجدري، كما كافح بأدويته العشبية الحُمِّيات، والجروح، وآلام المفاصل، وعرق النِسا لدى الكبار، رغم ذلك كان عليه أن يساعدهم في اختيار هذا الرجل الذي يسمونه كبيرا! قالوا إنهم يريدون رجلاً نزيها يوجه إليهم الأوامر عند الأعراس والمآتم أو حتى في الظروف العادية، فطالما يتشاجرون أو يختصمون، ولا يجدون من يفصل بينهم أو يرشدهم إلى الصواب، حتى يضطرون

أن يفصلوا أنفسهم عن بعضهم، أما حين يقابلون أشخاصا غرباء ويسألونهم عن اسم كبيرهم، فلا يعرفون كيف يجيبون على مثل هذا السؤال الصغير، لأجل ذلك لن يطيب لهم ممارسة أعمالهم دون أن يختاروا الشخص المناسب، جعل الشيخ يتفرس في وجوههم، فبرزت الوجوه والأجساد، كانوا قد ارتدوا أفخر ما لديهم من الثياب، وظهروا بمظهر الوجهاء، احتدم التنافس قرب منزل زكية، حتى الطفل سعد ذو الأربعة الأعوام أخذ يردد بصوت واضح النبرات مرشحا والده:

ـ الكبير سرحان.

ضحكوا وتجاهلوا قوله، وانتظروا رأي الشيخ رعدان باصطبار، أخيرا أعلن بأسف أنهم جميعا لا يستحقون منصب الكبير، فغادروا حانقين، ثم اجتمعوا عدة مرات في الباحة، ولم يتوصلوا إلى حل، عادوا مرة أخرى، ووقفوا بعناد أمام منزل زكية صارخين، هبط الرجل المسن السلالم الطينية ببطء حتى وقف قبالتهم، ضرب عكازه على الأرض ضربة واهنة، وقال بصوت قاطع:

ـ كبير القرية هو الرجل الذي لم يحضر إلى هذه الباحة.

هتفوا بارتباك:

ـ ماذا تقصد يا شيخ رعدان؟

ـ ألم تفهموا بعد أن كبيركم هو الرجل الغائب.

التفتوا إلى بعضهم بعجل ليروا إن كان هناك غائباً منهم، هتف مثنى صالح بسخرية:

ـ أتقصد الشيخ الضرير عثمان؟

وصاح جهلان الخضري بتواطؤ:

ـ وسرحان أيضا غائب يطحن حبوب الأهالي.

صاح الشيخ رعدان:

ـ اجلبوا الغائب إلى هنا.

ـ إمام المسجد؟

ـ بل صاحب الطاحونة.

ـ سرحان؟

ـ نعم، اجلبوه إلى هنا.

كان صوت الشيخ رعدان حازماً، فأسرع عطية نحو الطاحونة، بعد قليل لاح سرحان الطحان مغطى بطبقة بيضاء من غبار الطحين، وعطية خلفه يدفعه إلى الأمام كالأسير، ضحك البعض من شكله، وقال مثنى صالح بتهكم وهو يشير بسبابته إليه:

ـ أيكون كبيرنا هذا الشبح الأبيض؟

دمدم الشيخ رعدان قائلاً:

ـ لا تستخفوا باختيار الطفل الصغير، نظفوه وسيغدو كما تحبون أن تروه.

سكتوا على مضض، انتظروا حتى وصل سرحان وانقضوا عليه، أخذوه قسراً، فأخذ يحرك رمشيه الأبيضين بعجب، ويتوسل أن يخبروه عما فعل من ذنب! لكنهم لخبثهم لم يفصحوا له عن شيء، ولم يسلم من اللكز والقرص من مثنى صالح الذي كان يظن نفسه هو الكبير المنتظر، ساروا به صوب مشارف القرية متجاهلين صياحه، اقتربوا من البئر، حين ذلك خطر لسرحان أنهم سوف يلقونه فيه، ظل يصرخ أنه لم يدرك أن ناصر حنشات سيلقي نفسه

في البئر، ولو علم بنواياه لم يكن ليلمس غنية حتى لو قدمت له مؤخرتها وسط طبق ذهبي. نظر الرجال إلى بعضهم بذهول، وفكروا فعلاً في رميه وسط البئر، وفعلا ساقوه إلى الحافة، لكنهم تذكروا ما جاؤوا من أجله، وأن الشيخ رعدان ينتظرهم، فغسلوه وألبسوه ملابس جديدة، ثم أعادوه إلى أمام الرجل المسن وهو يلمع كجنيه ذهبي، فخاطبه قائلاً:

ـ أنت الآن الكبير سرحان.

ضحك سرحان وأجاب بعجب:

ـ ماذا دهاكم؟ دعوني أعود إلى طاحونتي!

ـ نحن جادون، لقد اخترناك كبيراً، ونتمنى أن تكون جديرا بذلك، دع رجلاً يحل مكانك في الطاحونة. قالوها متأثرين بزهده عن المنصب.

هكذا ببساطة وجد سرحان نفسه كبيراً للقرية، نال هذا اللقب بلا عناء، في البداية ظنه مقلباً من مقالب القرويين، ليروا ردة فعله وحسب، لم يتأكد أن الأمر حقيقي إلا بعد بضعة أيام. أصبح مجبراً على ارتداء ملابس كبير، والسير بطريقة متكلفة توحي بمنصبه ومكانته، أخذ صوته يكتسب رنة حادة آمرة تميزه عن باقي الأصوات، صار عليه أن يدع منزل روضة مفتوحاً للناس ليأتوا كلما طرأ أمر ما، لاسيما الرجال منهم.

أدرك أن مشاكل الأهالي لا تنتهي، وهي وإن كانت متناهية في الصغر ينبغي أن يقف عندها طويلاً، وأن يسمع من الطرفين المتشاجرين تفاصيل هامة أو تافهة، أحياناً يعودون به إلى تواريخ غابرة ليفصل في أقوال بذيئة قيلت أو أفعال سيئة حدثت، في حين آخر يكون هناك أطراف عديدة متشاجرة على ملكية شجرة أو على

ميراث والد متوفٍ، حين مات إمام المسجد عثمان جاء أولاده إليه يتنازعون على ملكية منزل صغير وما يحتويه من أدوات وأثاث متهالك، إضافة إلى حولين صغيرين، تحتم عليه أن يوزع هذه الملكية التافهة على عشرة من البنين والبنات بالإضافة إلى أمهم خيرية، طلب منهم أن يتجهوا إلى القاضي في يريم، لكنهم تعللوا بأن ميراثهم الصغير سوف يتبدد قبل أن يصلوا إلى المحكمة، شعر أنه في ورطة، لأنه لا يعرف شيئا من قواعد توزيع الميراث حسب التشريع الديني سوى أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وهي القاعدة الأبرز المعمول بها منذ أمد طويل، رغم ذلك، عرج متهيباً إلى منزل عثمان وحصر المقتنيات، ثم أوقف الورثة أمامه، وجعل يوزع الأشياء بعد أن يخمن قيمتها، كان يقول: هذا لك، وهذا لكِ، كذلك قسم الحقلين إلى أجزاء صغيرة وزعها بينهم بالتساوي، ولم يستطع أن يكتب وثيقة بكل تلك المقتنيات الصغيرة والتافهة، لأنه لا يقرأ ولا يكتب، لذا اكتفى بالشهود، وعندما رأى المنزل عارياً من الأثاث، استعاد منهم ما أخذوه، وأعاد كل شيء إلى موضعه، لأن كل وارث صار يعرف كل ما هو له، ونصحهم أن يعيشوا بسلام ووالدتهم خيرية، أوشك بعض الأهالي المتذمرين من التوزيع القديم أن ينكثوا وثائق ميراثهم السابقة لاسيما النساء، لكن كبير القرية أقر التوزيع السابق، ورفض أن يفتح على نفسه أبواباً لن تغلق بسهولة، خشي أيضا أن يطير خبر طريقته المرتجلة في توزيع الميراث إلى قاضي القضاة في يريم، ومن ثم تلصق به تهمة مخالفة التشريع الديني، أو حتى مخالفة وصايا الله في القرآن بما يخص الميراث.

22

هناك تقاليد كثيرة غريبة تسترعي الانتباه، فالموتى الذين لا يخلفون وراءهم ورثة تذهب ملكيتهم لكبير قريتهم، وقد استفاد سعد المليح من موت قاسم وأولاده وبسط يديه على منزله وحقوله العشرة الخصيبة التي تقع على أطراف قاع الحقل الخصيب في وادي الوسط، كانت تدر على صاحبها دخلاً سنوياً وفيراً، وتمنحه صفة إقطاعي ذي شأو ومكانة مرموقة، بمجرد أن وصل سرحان إلى منصب كبير الرباط رأى أنه أحق الناس بهذه الحقول الخصيبة، لقرابته من قاسم، إضافة أن الأخير وأولاده تسببوا بدمار منزله، ها هو منذ ذلك الحين يعيش في بيوت الأرامل، وقد حان الوقت ليأخذ حقه بالقوة، في أحد الأيام قَدِم وأهالي قريته إلى مزنة قدوماً ودياً في الظاهر، لكنه في الحقيقة كان هجوماً مبطناً، كان رجاله يحملون عشر بنادق متنوعة، إضافة إلى الفؤوس والأسلحة التقليدية الأخرى كالخناجر والهراوات، في البداية توارى أهالي مزنة الفقراء في منازلهم خوفاً، ثم خرج سعد المليح ورجاله، ورحبوا بالقادمين مرغمين، ثم ذبحوا كبشاً وأعدوا وليمة، حين عرفوا غرض الزيارة، أبرز سعد المليح وثائق مريبة يثبت ملكيته للحقول، مدعيا أنه ابتاعها من قاسم قبل موته، لكن الكبير سرحان مزقها أمام عينيه، وفرض شروطه الخاصة، ليس لسعد المليح أو لأي شخص في مزنة شبر واحد من الأرض، لأنها تعويض عادل من صهره قاسم عن منزله المحطم ومحتوياته، ولم يخرج من مزنة

حتى أقر له سعد المليح بملكية حقول قاسم، وعاد يحمل وثائق هذا الاعتراف، ما لبث أن أجَّر الحقول لفلاحين نشيطين من قرية وادي الوسط، وهكذا أصبح إقطاعيا مرموقاً، ولم يعد يلتفت إلى حقول زكية أو روضة. فكر جِديًّا أن يبني له منزلاً خاصاً، ويتخلى عن بيوت الأرامل، لقد نال ما يكفي من المهانة والخجل، فمازال الناس يطلقون على المنزل الذي كان يقطنه منزل زكية، وعلى المنزل الآخر منزل روضة، وكلما رأى موضع منزله القديم المحترق، يقول في سره: "سأقوم ببناء المنزل بالمال الذي سأجنيه من حقول قاسم، وسأجعله أكبر دار في القرية حتى يكون لائقاً بمكانتي "

في يوم بعد انقضاء موسم الحصاد وتحصيل الغلال، حشد الرجال وقادهم بنفسه بعيداً عن القرية إلى جبل قطام الصغير الذي لم يستطع صعوده ذات يوم لجلب مياه العين السابعة لامرأته سلطانة، كان ذلك الميقات مناسباً للعمل، بعد أن حصد الأهالي الزرع، وصار لديهم فسحة من الفراغ. جلس قرب مقلع الحجارة مستظلاً تحت تجويف صغير، وأخذ يشير بيديه لهذا وذاك، شرعوا في تفجير الصخور بالبارود، وجاء الضرَّابون، وفتتوا الصخور بمطارقهم الضخمة، ثم جاء آخرون ونضدوا الحجارة بمطارقهم الصغيرة بحيث غدت مربعة ملساء، وجُلبت الجِمَال إلى المقلع، وجعلت تنقل أزواج الحجارة النضيدة إلى حيث كان منزله القديم، أمست القرية شعلة من النشاط، فأخذ العمال يؤسسون القواعد، والبنَّاؤون يرصُّون الأحجار فوق بعضها بإتقان، وصنع النقّاشون اليهود أحزمة حجرية مزخرفة تفصل بين الطوابق، وطلي من الداخل بالجبس ودهن بدهان ذهبي، ثم ركبت أبوابه ونوافذه، وسويت أرضياته، ونسج له يهود مدينة يريم أزهى الحصائر والستائر واللُحف والمساند القطنية، وهكذا برز المنزل وسط القرية

بهياً مزدانا بطبقات ثلاث، ذبح الكبير سرحان عدداً من الكباش وأقام وليمة حضرها كبراء القرى المجاورة والأهالي والأجراء.

أثناء جلسة المَقِيل تحدث الضيوف عن بطش الأمير الناصر، وعن جيوشه القوية المدربة التي أخضع بها البلاد من تهامة حتى حدود نجران في الشمال، ثرثروا بإعجاب عن مركباته الحديدية ذات الصناديق الواسعة المخصصة لنقل العتاد الحربي، زعموا أن جنوده لم يعودوا يركبون الخيول أو يستخدمون الفؤوس وبنادق البارود العتيقة، بل بنادق جديدة ومدافع تتحرك على عجلات، وآلات غريبة استقدمت من بلدان أجنبية بعيدة، قالوا إن حجم الرصاصة الواحدة بطول فتى يافع، وترمى من مسافات طويلة لتنفجر حاصدة مبانٍ عديدة وأرواح كثيرة. تعجب الكبير سرحان وقال لنفسه وهو يتبسم بمكر: "لقد صدَّق الناس كذبتي البيضاء يوم عُرس الكبير مرشد، وأضافوا لها بعض الأطراف والأذناب! يا لهم من مساكين". ضحك ملياً في سره على حُمْقِهم.

في المساء وزعت الحجرات على البنات، لكن سعد وهو ولده الوحيد مازال يعيش مع الشيخ رعدان ومريمة في منزل زكية، سار بنفسه في الصباح التالي، ليرى ما يمنعه عن القدوم لأخذ أجمل غرف المنزل الجديد، بدا منزل زكية وهو يدخله في غاية الوضاعة والبِلى، كان سعد قرب الشيخ رعدان يتهجى حروفاً غريبة من لغة منقرضة لم يسمعها من قبل، فسأل بضيق وتأثر:

ـ ماذا يقرأ الصغير يا شيخ رعدان؟

سكت الشيخ رعدان لحظات ثم رد قائلاً بحصافة:

ـ الولد يتعلم لغة المسند القديم.

ـ هل تظن أنها ستعود عليه بالنفع؟

ـ لا ريب في ذلك، إنها لغة الكهنة القدماء.

انبرى الكبير سرحان قائلاً بصوت حازم:

ـ أريد أن يعيش الولد معي في منزلي الجديد.

نظر الشيخ رعدان إلى الفتى، فهز رأسه نافياً، قائلا بجِدة:

ـ أريد أن أبقى عند معلمي.

أخذ يساومه ويلح عليه بإصرار حتى دخلت مريمة فجأة وقالت بانقباض:

ـ ماذا تريد يا كبير سرحان؟

ـ أريد أن يأتي سعد ليعيش معي، كما ترين، لقد صار لدي منزلا كبيرا.

ـ ألسنا عائلة واحدة كما تزعم؟

ـ هذا صحيح...

ـ إذاً لا ترغم سعد على الذهاب.

ـ تعرفين أنني لا أرفض لك طلباً.

غادر مرتبكاً، كان لا يستطيع الوقوف أمامها دون أن يفقد رباطة جأشه، لا يدري كيف تؤثر في نفسه، لكنها مازالت تنظر إلى الرجال بمقت، وتتصرف مع الجميع بغطرسة شديدة، لا يدري متى تلين وترق أنوثتها، لقد تنازل لهم عن المنزل الذي يقطنوه، وكتب في ذلك وثيقة تمليك، كما صارت حقول زكية تحت تصرفهم، أصبح الأجراء يسوقون إليهم محاصيلها كل عام، بات يزورهم كل يوم متذرعاً بالفتى، عندما يقف أمامها يفقد وقار منصبه، يتحول

إلى مراهق ساذج، يضحك بحياء ويتورد وجهه، يرسل إليها نظرات معذبة، ولا يجرؤ أن يصارحها بما يعتمل في نفسه، لأنه لم يجد لديها استجابة أو ميلاً، فقد عادت إلى النفور من الرجال مُذ هربت من أمام عريسها الكبير مرشد، صارت لا تثق بأي رجُل.

مضت بضع شهور أخرى هادئة، حتى ساد في القرية صراخ مفاجئ، وأتى بعض جيران "غنية" متبرمين من شتائمها وصراخها الشديد، وتكلم عنهم أكثر المتضررين وهو شخصٍ منطوٍ يدعى عتيق الأهبل الذي لم يكن أهبلاً كما يوحي بذلك اسمه، بل هو فلاح كادح هادئ يميل إلى الروحانية والعبادة، خاب أمله في الناس الذين اتبعوا رأي الشيخ رعدان، وأهملوا فكرة بناء مسجد كبير، وكان يفضل العزلة، ولا ينحرف عن طريقه المألوف، من المنزل إلى الحقل، ومن الحقل أو المنزل إلى المسجد، يسير بحذر دون أن يسمع أحد وقع قدميه، لا يتكلم حتى يخاطبه أحدهم، فيرد بكلمات وجيزة ويمضي في حال سبيله، أحياناً يشارك الأهالي في مناسباتهم وأحزانهم، لكنه يظل صامتاً كالأخرس حتى لا يقترف ذنبا أو نميمة كما يظن، ثم يعود إلى منزله للاختباء، قبل شهر طلَّق امرأته لأسباب غير واضحة، لكن القرويين اجتهدوا، البعض ادعى أنه طردها لأنها لم تنجب له أطفالاً، وآخرون أكدوا أنها كانت تزعجه بثرثرتها، وتزج به في أحوال الأهالي، كلها كانت أسباباً وجيهة، لكنه أيضاً كان بخيلاً رعديداً، وكانت امرأته "مُقْبِلة" تطهي وجبات فائضة، وتعطي الجيران ما يطلبونه من خبز أو طحين، أو هكذا خيل له، وهذا كان السبب الأبرز الذي رجّحه معظم الأهالي.

كان حضور عتيق الأهبل يبدو غريبا، فهو لا يحضر إلى مجلس أي كبير إلا باستدعاء، لذا توقعوا أن ما أصابه ليس هيّنا، وكما ادعى فقد كانت تصرخ وتشتم أهالي القرية، ولا تسكت حتى ساعة

متأخرة من الليل، وهذا أرهقه وأفقده النوم، ما أثَّر ذلك على عمله في الحقول، وأصاب أعصابه بالتلف، بحيث غدا يغضب ويصرخ دون سبب، علاوة على صداع دائم وذكريات سيئة عادت إليه من طفولته، فتذكر والديه وهما يتشاجران أمامه، ويشتمان بعضهما البعض، رأى رأس أمه النازف وهي تسقط فاقدة الوعي إثر ضربة سددها أبوه إليها بالعصا، لذا لم يعد يحتمل صراخ جارته، وهو مستعد ليدفع نصف عمره لمن يوقف صوت هذه المرأة الرهيبة، ضحك الكبير سرحان رغماً عنه، لأن عتيق الأهبل في الخمسين من عمره، وماذا بقي لديه من عمر ليعطيه! ثم كتم ضحكه كما يقتضي الحال، فقد بدا هذا الرجل في مأزق شديد حقا، سرعان ما ظهرت الجدية على ملامح كبير القرية، وأبدى جانبه الحازم، فهو يكره حدوث أي أمر سيء، فالمشاكل عادة ما تبدأ تافهة، ثم تكبر حتى تنتهي بكارثة إن تم تجاهلها، والبخلاء كما أنهم أكثر الناس ميلا للعبادة والطمع بالجنة، فإنهم كذلك أكثرهم خوفا من صخب الحياة الاجتماعية وما تحمله من تضحيات وخسائر، وهذا الصراخ قد يتسبب بموت رجل هادئ حساس مثل عتيق الأهبل، فكر الكبير للحظات في طريقة حاسمة لإيقاف غنية عن إزعاج جيرانها، حتى فطن إلى حل حاسم رغم ما يكتنفه من جنون، لم يجد خياراً غيره، فقال بنبرات حادة مخاطباً عتيق:

ـ أتريدها حقاً أن تتوقف عن إزعاجك بصراخها؟

صاح عتيق الأهبل بضراعة:

ـ أرجوك، أيها الكبير، أدفع عمري مقابل ذلك.

ـ لا حاجة لنا بعمرك المهدور، هل تقبل بما سأعرضه عليك؟

ـ كيف لا أقبل! أريدها أن تتوقف عن الصراخ بأي ثمن.

ـ تزوج بها يا عتيق.

ضحك عتيق لأول مرة منذ زمن وقال:

ـ أنتم تعرفون أنني رجلٌ جادٌ أيها الكبير ولا أحب المزاح.

ـ وأنا جاد أيضا، ليس هناك خيار آخر.

ـ لكني جئت شاكيا لتبعدوها عني، ولم آت طالبا يدها للزواج أيها الكبير، كما ترى، أنا رجل فقير...

قاطعه الكبير قائلا بصوت حازم:

ـ لا تهتم، سيكون زفافاً صغيراً، وسأتحمل تكاليفه.

حاصرته الأصوات والنظرات الغاضبة، ونظر إلى وجه الكبير سرحان المتصلب، وفهم أن الأمر انتهى، فانسحب إلى الخارج، وهو يصيح غاضباً على غير عادته:

ـ أنا أكره هذه المرأة المزعجة، فكيف أتزوجها وأجلبها إلى داري، لن أنفق بقشة واحدة على هذا الزفاف اللعين.

رغم غضبه ذهب ليعد نفسه للعُرس، وقلبه يكاد يقطر دماً، بعد أيام قلائل، أقيم عرس عتيق وغنية، ودفع الكبير سرحان المهر وباقي النفقات، وأعفى المرأة من المبيت في منزل الزوج البخيل، كان عليها فقط أن تعد له قليلاً من الطعام في كل وجبة، ثم تعود إلى دارها وأطفالها، لم يعد أحد يسمع شتائمها وصراخها، فقد صمتت وأمست سعيدة، كان الكبير سرحان يطرق منزلها كلما ثار شبقه، ثم يعود إلى منزله عند الفجر، ونادراً ما كان ينام معها عتيق الأهبل، وعندما سألها الكبير عن زوجها أجابت ضاحكة:

ـ بخيل في كل شيء.

ـ ما كنت لألتقي بك لولاه، لا تنسي له هذا الفضل.

هزت كفها باستخفاف، وارتمت في حضنه، فاستقبلها بابتهاج، الآن لا خوف أن تحمل منه، فقد ظل مدة طويلة لا يجرؤ على الاقتراب منها، ولا يسمح لها أن تزوره في منزل روضة، فكر أن لا ضير أحياناً من هذه الحيل الخسيسة مادام لا يشكو منها أحدٌ، وفعلاً عمَّ الهدوء لأسابيع قليلة، ثم اشتعلت فجأة ثورة الأرامل في القرية، أمسى الصراخ والشجار يعلو على أي صوت آخر، حتى أصيب الأهالي بنفس الأعراض التي أصيب بها عتيق الأهبل، لهذا تمنوا أن تزول المشكلة بأي شكل من الأشكال، راح كل شخص في القرية يشكو، حتى الكبير سرحان نفسه عاش أياماً رهيبة، استقبل عشرات الشكاوى، وهذا جعله يدعو الأهالي إلى اجتماع شامل لمناقشة هذا الأمر، فاجتمعوا وتجاذبوا أطراف الحديث بأصوات عالية، ثم تحول حديثهم فجأة إلى شجارٍ حامٍ، حتى صرخ الكبير سرحان في وجوههم، منبهاً بأنه موجود في المجلس، ولا ينبغي أن يتصرفوا كأغنام بلا راعٍ، همد المتشاجرون وانكمشوا بخجل، وهم يسمعون صوته الهادر، وقرروا أن يقبلوا رأيه مهما كان، الأهم أن ينقذهم من هذه المعضلة الكبيرة، فقال بصوته الآمر:

ـ تزوجوا الأرامل.

صعقوا ولم يصدقوا آذانهم، وهتفوا بصوت واحد مرتاب:

ـ ماذا؟

ـ نعم، تزوجوا الأرامل وأنقذونا من صراخهن الرهيب.

تجرأ جهلان الخُضري قائلاً باستنكار:

ـ لا يجوز أن يتكرر ما حدث مع عتيق على الأهالي.

ـ أتعارضني يا جهلان الخُضري؟

ـ كلا أيها الكبير، لكني أخشى ألا يجدي هذا نفعاً، ثم إننا أشخاص متزوجون ولا نشكو من شيء.

ـ إنهن يتبعن خطى غنية، ألم تفهموا بعد سر الصراخ؟ حدثوا نساءكم بهذا القرار، لا أظنهن يجرؤن أن يخالفن أوامر الكبير، ومن شاءت أن تغادر فلتفعل.

قال هارون اليهودي بانبساط:

ـ أرملة ماشا مازالت طرية كتفاحة حمراء، سوف أخطبها لنفسي أيها الكبير.

ـ اذهب إليها قبل أن يسبقك شخص آخر، الفرص الجميلة لا تتكرر، وأنتم يا رجال اختاروا أراملكم.

ـ وأنت أيها الكبير، هل ستشاركنا وتختار امرأة؟

ـ بالتأكيد، هناك امرأة أخذت عقلي ووعدتني في السابق بالزواج، لكنها لم تفِ بالوعد ولا أدري ما خطبها!

ـ هل هي من الرباط؟

ـ إنها ابنة الشيخ رعدان.

ـ مريمة؟

قالوها ونظروا إلى بعضهم بدهشة، أفصح هارون أنها رفضت عروضاً كثيرة للزواج، وأعيت شباب اليهود الذين حاولوا خطبتها، حتى أحجموا عنها، إذ فرضت على طالبي الزواج شروطاً مستحيلة، إنها معقدة ومغرورة كأنها الأنثى الوحيدة في الأرض، هو نفسه طلب يدها رغم اعتراض عائلته، كان والده يرى أن لا

خير في امرأة لا تعمل ولا تجيد أي حرفة يدوية، فضلا إن عائلتها تمارس السحر وتملك كتبا خطيرة، لكن مع استمراره في الإلحاح سارا معاً لخطبتها، لكنها طلبت منه مهراً غريباً مضحكا، وهو أن يقفز من سطح دار زكية إلى الأرض، وإن نجا تكون عروسه، فصرخ والده في وجهه قائلاً بتهكم:

ـ هيا، اقفز يا هارون، وإن لم تفعل سأقفز أنا وأفوز بها بدلاً عنك.

لم يجب، بل خرج هاربا وتبعه والده متجهما، ومازال يعاتبه إلى الآن كلما تذكر الموقف. لأجل هذا أبدى هارون شكه أن تكون مريمة قد وعدت أحداً بالزواج...

قاطعه الكبير سرحان مؤكداً:

ـ كانت بندقية الكبير مرشد يوم ذاك تتحرق إلى قتلي، وعندما رفضت الخروج عرضت علي الزواج لكي أخرج لأموت، لكن الفقيه عايض خرج أولا ولقي مصرعه.

ـ يا لها من غاشمة.

ـ الآن حان ميعاد الوفاء بالوعد، لن أتوان عن طلبها حتى ترضخ، وأتمنى أن تكون آخر امرأة في حياتي.

وتابع بحزم:

ـ وأنتم اذهبوا لخطبة النساء الآن.

خرج الأهالي مسرعين كصيادين خرجوا يبحثون عن الأرانب، هجموا على منازل الأرامل بشكل أهوج، التقى ثلاثة منهم قرب منزل عثمان، وتشاجروا على فاتن أرملة ابنه محمد حتى خرجت وطردتهم جميعاً، وهي لا تدرك ما رمى بهم إلى قرب دارها ليزعجوها بصراخهم، وهناك أرامل لم يذهب إليهن أحد مثل

صالحة أرملة قاسم عوض وسيسبان امرأة حمود الذيب، البقية ذهبوا منفردين دون مشاكل، لكنهم طرحوا موضوع رغبتهم في الزواج دون تمهيد، كأنهم يبتاعون عجولاً، لهذا السبب تلقوا ردوداً مخيبة للآمال، ولم يسلموا من الكلمات الفجة اللاذعة، وفرحت نساؤهم، وأطلقن الجمل الساخرة وحسب، لم يجرؤن على اعتراض تعليمات كبير القرية، كما لم يجدن جدوى من التلويح بمغادرة منازل الأزواج، وقررن ألا يتركن بيوتهن وأطفالهن للأرامل بيسر، وفي الصباح التالي، عاد أولئك الرجال المخفقين بوجوه كالحة سوداء، ولما رآهم كبير القرية انفجر ضاحكاً، فغضبوا لأن ما حصل كان بسبب رأيه الخبيث، وبعد أن سمع ما جرى لهم خاطبهم قائلاً وهو يقاوم ضحكه:

ـ هناك خطأ ما أيها الرجال، فأنتم لم تحددوا اختياراتكم جيداً، والأرامل لهن اختيارات أيضاً، وعلى كل رجل أن يختار امرأة تناسب عمره.

ـ نعم، لم ننتبه إلى ذلك.

ـ في الأول والآخر ينبغي إثارة إعجاب النساء، كما تعلمون لكل امرأة ـ مهما بدت عنيدة ـ مفتاح غامض يجب أن تلمسه لتثير اهتمامها.

نظروا إلى كبير قريتهم، وهزوا رؤوسهم متابعين كلامه باهتمام، مازالوا رغم إخفاقهم يأملون أن يرشدهم إلى العمل الصائب، ما لبثوا أن سألوا بإحباط:

ـ كيف نثير اهتمامهن بعد كل ما جرى لنا من خزي؟

ـ آخ، ما حدث للقرية من أحزان ليس قليلاً، دعونا نخلق جواً من المرح في القرية، لكل رجلٍ منّا جانبٍ جميلٍ مختبئ في أعماقه،

وينبغي أن يظهره، هل رأيتم ذكور الطيور كيف تتودد إلى إناثها؟ إنها تقفز وتتحرك وترقص.

ـ ماذا تقصد أيها الكبير؟

ـ ألم تفهمني يا جهلان؟ صحيح إن لكل شخص من اسمه نصيب.

سكت قليلا، ثم نفخ الهواء المحبوس في صدره واستطرد متابعا بحماس وشغف:

ـ ما أرمي إليه هو أن نتحرك ونبرز خفة أجسادنا وأرواحنا وقوتنا في الوقت ذاته، لنرقص ونحن بأبهى صورة، يتحتم أن ترى النساء عضلات صدورنا تتحرك وتسمع أقدامنا تقرع الأرض بثبات وعزم..

ـ لا بأس، إن كان هذا يجدي سنحرك أردافنا أيضا.

ضحكوا لقول هارون، وتكلم الكبير قائلا بحمية:

ـ هذا مشين، أتريد أن تبصق امرأة ماشا في وجهك حين تأتيها خاطبا؟ مظهر الرجل ومرحه تغوي النساء أكثر من قسمات وجهه. لذا عليكم أن تغتسلوا وتلبسوا أجمل ما لديكم. لكن يعوزنا مناسبة ما حتى لا يبدو الأمر مفتعلاً.

ـ غداً ختان ابني زين، وأنا أدعوكم إليه، لكن..

حك نعمان الدغبلي قرن رأسه بقلق، وسكت، وعرف الكبير سرحان ما يدور في رأسه فقال بانشراح:

ـ سأهبك ثمن كبشين للوليمة، عليك فقط إشعال النار والطهي، وعلى الأهالي الأرز الأبيض والخبز.

هلل الأهالي للخبر، لأنهم لم يمرحوا منذ مدة طويلة، عتيق الأهبل كان بخيلاً وعُرسه تم على عجل وبأقل التكاليف، لذا ينبغي أن تكون مناسبة الغد مناسبة بهيجة لا تضاهى، سيلبسون فيها أجمل المآزر، ويحضرون إلى باحة القرية في وقت مبكر من الصباح.

23

مع شروق الشمس بدا "زين" متأهبا للختان، لفرط بهائه وسحره يتوقع الرجال ألا تغيب امرأة عن طقس ختانه، قرعت الطبول، وزُفَّ الشاب زفافاً مدهشاً في أرجاء القرية، لعلعت أصوات النساء بالزغاريد، وسار خلفه الصغير والكبير، حتى خويت المنازل من سكانها، أقبلوا جميعاً صوب الباحة، وهناك مال الفتى جانباً وخلع ملابسه وقذفها بعيداً بجرأة، تقدم عارياً إلى حيث كان شعنون الحجَّام واقفاً، أسرع الأخير يجري طقس الختان، أخذ يهز الشفرة أمام عيني زين، وهو يقول بصوت أجش رافع:

ـ هل تدوخ حين ترى الدم؟

ـ لا.

ـ هل تتألم أو تصرخ؟

ـ لا.

ـ هل تستطيع أن تفض بكارة فتاة؟

ـ نعم.

ـ أصدقني القول إن كان في ذَكَرَك شِيّة أو عيباً.

ـ ذكري صلب كالجذع.

ـ هل تقبل أن تفحصك الفتاة المثيرة؟

ـ نعم.

ألتفت شعنون إلى الأهالي وصاح:

ـ أغمضوا عيونكم، ومن يفتحهما يصيبه الله بالعمى، قولوا آمين.

ردد الأهالي الآمين برهبة وإخلاص، ثم أغمضوا عيونهم، في تلك الأثناء، تقدمت من زين فتاة عارية في الخامسة عشر من العمر، سمراء، ثدياها واثبان بحجم حبتي رمان محلي، حوضها مقعر وردفاها متكوران كبطيختين صغيرتين، وهي بنت شعنون الحَجَّام الصغرى، وقد أتت لتفحص الفتى حسب التقاليد، بدت متحفزة وجريئة وواثقة بنفسها رغم أن تلك كانت تجربتها الأولى في الفحص، كانت أختها الأكبر منها هي الفتاة المثيرة، لكنها تزوجت قبل شهور، ومن ثم جاء الدور على الصغرى لتقوم بهذه المهمة، لقنها والدها ما يجب عليها أن تفعل، وطمأنها أنها ستعمل دون أن يراها أحد، حتى هو نفسه لن يجرؤ على فتح عينيه ساعة فحص الفتى، النساء كذلك يغمضن عيونهن، ولا يجوز النظر إلى المختون سوى بعد الفحص، لم تكن تجهل ذلك لأن عائلتها تزاول هذه المهنة منذ زمن غير معروف، غير أن الاحتراس وإتباع القواعد في هذا الشأن أمر في غاية الأهمية، وفي حال ارتبكت أو خجلت أو تصرفت بخشونة لن ينقدها والد الفتى أي مال، لهذا السبب بدا شعنون خائفاً ألا تجيد عملها، وقد قدم لها التعليمات أكثر من مرة لأنها تجربتها الأولى، رغم المخاوف تقدمت الفتاة من زين، سرّها أنه هو الآخر مغمض العينين، ولا يراها، مسحت بأناملها الرقيقة صدره، وجست ذكره بروية، فانتفخ وسط راحتها وانتصب وخرج من غشائه اللحمي، راق لها أن تستمر في الفحص، مستغلة اختفائها عن الأنظار، ظلت في صمت مطبق تلثمه بوجهه وتدلك ذكره في عضوها، بقيت كثيرا تفحصه، بحيث تململ الأهالي، وغشي العرق

وجه نعمان الدغبلي الذي خشي أن يكون في ولده عيباً، كذلك انتاب والدها القلق، وعلا صوته المتوتر وهو يخاطبها:

ـ تأخرتِ يا سعدية، هل بالفتى عيب ما؟

تأوهت صارخة:

ـ انتظروا، عليكم اللعنة.

خارت على جسد زين قليلاً، ثم استوت ترتدي ثيابها بعجل، ولكزت والدها هامسة في أذنه بارتياح:

ـ إنه سِيد الرجال.

ثم انسلت من الباحة، وانتظر شعنون حتى اختفت ابنته، وأعلن النتيجة قائلاً بحماس:

ـ افتحوا العيون، فتاكم سِيد الرجال.

زغردت النساء، واكتسى وجه نعمان الدغبلي بالزهو، كما هلل الأهالي واستبشروا، ولم يهتموا بطول مدة الفحص، لأن الأهم هو النتيجة النهائية، لعل كلمتي "سِيد الرجال" هما أقصى حد يبلغه الفتيان عند فحصهم، حين ذلك أتيح للجميع متابعة طقس الختان، واختلست العازبات النظر إلى ذلك الشيء المشرئب اللامع، ثم أشحن أبصارهن بخفر واستترن خلف النساء الكبيرات، لاحظ شعنون بلؤم أن عضو زين مبلل ولامع، وهذا لا يحدث في حالات الختان السابقة، أدرك أن ابنته خالفت القواعد، فاعتراه الغضب، وتمهل حتى ذبل العضو، وأمسكه بخشونة كما يمسك الجزار رأس دجاجة، وقطع الجلدة الزائدة بقسوة، تجلد زين، ولم تند منه أي آهة ألم، رغم أن الدموع طفرت في عينيه، تهلل وجه والده، وزغردت أمه بفرح، سرعان ما عالج شعنون موضع الختان بشكل سيء،

فارتدى زين ملابسه وبقي عليه أن يرقص، دق مسعد وأولاده الطبول قارعين دقات رقصة الختان، رقص المختون ليثبت قدرته على الصبر والثبات، ما لبث مسعد الطبَّال أن غيّر ضربات الطبل، ودق رقصة ياسمين الشهيرة، فارتفعت أصوات المشاهدين وزغردت النساء، واهتزت الخناجر والعصي في الهواء، قفز خاطبو الأرامل إلى ملعب الرقص، وتمايلوا وداروا رافعين خناجرهم وعصيهم في وجوه بعضهم، ترك كلٌ منهم لجسده حرية التعبير عن مكنون نفسه، أحجم الكبير سرحان قليلاً عن الدخول، لأنه لم ير مريمة بين النساء، ثم لمح طيف امرأة متوارٍ خلف أصص نبات الحبق على سطح منزل العيلوم حاييم، فدخل يهيج كثور فحل، يدور ويقفز وعيناه معلقتان على الطيف المستتر وراء الأصص الفخارية، بقي يرتعش من التأثر، وينفخ بحماس، متمايلا مع ضربات الطبول، سمع أصوات النساء المشجعة: "ياسمين للكبير".. فصاح بصوت عالٍ متأثراً: مريمة للكبير.

كان يتمنى أن يسمعه ذلك الطيف المستتر، لوح إلى هناك أكثر من مرة بشغف، حتى أوشك أن يصرخ في وجوه النساء المشجعات أن يرددن صيحته السابقة "مريمة للكبير"، أخيرا نهض الطيف من خلف الأصص وابتعد، رآها بوضوح، لم يكذب قلبه قط، كانت مريمة تتلصص على الراقصين، سأل نفسه بكدر: لِمَ لا تتخلَ عن حذرها، وتعيش دون تكلف مثل معظم النساء؟ انسحب من ميدان الرقص متوتراً، سار بين المنازل وقلبه ينتفض من التأثر والشغف، دخل منزل زكية، ورفع صوته ليسمعه الشيخ رعدان، رأى ولده سعد يجلس قرب الشيخ المسن، بينما الأخير ينشر كتاباً أمامه ويلقي عليه دروسه الغامضة، تراجع الفتى للوراء بمجرد أن رأى والده، فقال الشيخ رعدان الذي خف بصره قليلاً:

ـ من هناك؟

ـ أنا الكبير سرحان.

ـ أهلاً بالكبير، لديك فتى نبيه وكلب ذكي، لقد عثرت على كتبي المغتصبة تحت أنقاض منزل مرشد، وجدتها سليمة لم تحترق، كما عثرت على شيء ثمين جداً ضاع مني.

ـ أهو الخاتم؟

ـ هذا صحيح، كيف عرفت ذلك؟

ـ كان الكبير مرشد يبحث عنه قبل أعوام. وظن أني سرقته منه، كنت أخشى أن يصل إلى كف شخص جاهل يسيء استخدامه.

ـ وجدته بين ثياب بالية ومهملة في غرفة الصغار.

ـ هذا غريب فعلا، لكني لست هنا من أجل الخاتم، بل جئت من أجل مريمة.

ـ مريمة؟ ماذا تريد منها؟

ـ لا شيء خطير، لقد حصلت منها على وعد بالزواج في وقت سابق.

ـ كما تعلم، يتحتم أن تحترس، لأنها تكره الرجال، وتلقي بخُطّابها على دروب المهالك.

دخلت مريمة فجأة ونظرت إليهما وقالت:

ـ ماذا يريد الكبير سرحان؟

جثا على ركبتيه متخلياً عن وقاره وأجاب:

ـ أريدك للزواج يا مريمة.

ـ لا أريد رجلاً يعكر صفوي، الجميع يعرف ذلك.

ـ لكنك قطعتِ لي وعداً.

ـ أعرف، لكن الفقيه عايض خرج قبلك.

ـ أتريدين أن أموت؟

ـ أريد رجلاً يضحي بنفسه من أجلي.

ـ ألا تريدين رجلاً يحبك؟

ـ الرجال لا يعرفون الحب، ولا يقبلون التضحية من أجل من يحبون..

ـ لكني أحبكِ وسأضحي من أجلك.

ـ اثبت ذلك.

ـ هاأنذا طوع أمرك، يمكنك قتلي إن شئتِ.

ـ سأضع أمامك فرصة أخرى، أخبرني حين تكون متأهباً للتضحية.

ـ أنا متأهب الآن.

ـ هل تستطيع أن تصمد أمام لدغة إحدى أفاعي الهضبة المرقطة.

ـ هل تمزحين؟ لن أنجو من سمها بلا شك.

ـ إذا نجوت أتزوج بك على شروطك.

خرج الكبير سرحان واجماً، هل تستحق هذه المرأة اليهودية أن يموت من أجلها؟ ما جدوى التضحية حينئذٍ؟ هل ستحزن عليه أو حتى تذرف دمعة من أجله؟ هل سيؤنبها ضميرها – إن كانت تملك ضميراً- حين ترى جنازته تسير في أزقة القرية؟ لقد نقل لها لغة

جسده الشغوف في الباحة، كان هذا الختان مناسبة للتعبير عن الحب بواسطة الرقص، لكن يبدو أنها لا تفهم لغة الجسد، يا له من غبي حين عشقها! ويا لها من مجنونة حين تفرض على طالبي الزواج هذا المهر المميت! إنه يعرف أفعى الهضبة المرقطة التي أهلكت عدداً من مواشي الأهالي، لا ينجو أي كائن حي من لدغتها، رأى في الهضبة ذات يوم ثوراً جامحاً ملدوغاً، حين أتى صاحبه مهرولاً من القرية كان الحيوان قد نفق.

ظل الكبير سرحان أثناء الوليمة شارداً مكتئباً حتى ظن نعمان أن هناك شيئاً أساءه في منزله، ظل يعتذر له عن أي خطأ غير مقصود أو سوء في التنظيم، لكن الكبير أفصح إن هنالك شيء آخر يشغل باله خارج أجواء الوليمة، شيء خاص قد يحدد مصيره ونهايته، تمنى له والد المختون طول العمر، لم يعرف أحد بعد إنه أخفق، أما غالبية الخاطبين للأرامل فقد تكللت جهودهم بالفوز، لكن نسائهم غادرن منازلهم حانقات، وهددنهم بعواقب وخيمة، قلن إن ما يجري خيانة للعشرة الطويلة، ماذا يعني أن تصرخ الأرامل أو حتى يقتلن أنفسهن جزعا وكمدا؟ والخلاصة هي أن كبير القرية رجل متسلط يود أن يقيم سننا غريبة، كذلك الرجال الأغبياء فرحوا حين سمعوا فكرته الحمقاء، لأنهم منذ زمن طويل كانوا ينتظرون مثل هذه الذرائع ليتنصلوا عن حياتهم الزوجية المستقرة، لكنهم جميعا لن ينجوا من العقاب، لأن قلوب النساء المحطمة لن تغفر لهم ما فعلوه ذات يوم مشئوم.

في المساء جاءوا إلى مجلس الكبير، يزفون إليه خبر قبول الأرامل بالزواج، مازالوا ينتظرون فقط الموعد، أخبروه ضاحكين عن الشجار الذي دار في منازلهم، وهروب النساء في النهاية، وتهديدهن بتعرضهم للعقاب بسبب قبولهم عرضه، حتى هو

سيعاقب، لكن وجه كبير القرية ظل محتقناً معتماً كالليل، قال لهم إنه في سبيله لتلقي العقاب الذي هددت به النساء الحانقات، وبعد سؤال وجواب عرفوا السبب، في مثل هذا الظرف لا يفرط الأهالي في كبيرهم، فأعلنوا أنهم سيلغون طلبات زواجهم تضامناً معه، لأنهم لا يستطيعون أن يفرحوا وهو مكروب، في آخر الاجتماع أعلن أنه لا يخشى الأفاعي، ولا يحفل بسمومها، ولا يسعه إلا قبول تحدي مريمة، حاولوا ثنيه عن عزمه، غير أنه كعادته أغلق أمامهم سبيل مناقشته قائلاً بحزم:

ـ انتهى الاجتماع.

ذهب الرجال مكتئبين، سرعان ما انتشر خبر هذا المهر الباهظ، اجتمع الأهالي سراً وقرروا أن يقيموا واسطة لدى الطرفين، الرجال حفوا بالكبير، وجعلوا يتحدثون إلى جدار صلب لا يتزحزح، والنساء لاسيما كبيرات السن حاولن التأثير على مريمة وثنيها عن شرطها، لكنها كانت جداراً صلباً آخر، وخابت جميع المساعي، وسلم الأهالي أمرهم إلى الله.

24

في صبيحة ذلك اليوم الموعود، خرجت النساء لابسات السواد تحسباً لموت وشيك، وجاء الرجال بوجوه سوداء واجمة، لكنهم كانوا أكثر إيمانا بالقدر خيره وشره، كما حضرت النساء المهجورات بملابس مبهرجة ليشهدن موت كبير القرية، احتشدوا جميعا تحت منزل زكية في انتظار مجيء الأفعى، لاح الكبير سرحان مشمر الساعدين متأهباً يتحرك جيئة وذهابا، أخيرا أقبل الراعي حاملاً آنية معدنية مغطاة بإحكام، مط الجميع أعناقهم إليه، حين وصل وضع الآنية على الأرض، وتنحى جانباً بتهيب كأن مهمته انتهت عند هذا الحد، نظر الكبير سرحان إلى وجوه الحاضرين فرداً فرداً، كان ولده سعد بين الرجال رابط الجأش كأنه يتفرج على رقصة أو ختان، حول بصره إلى النساء دون اكتراث، كانت بناته يرفعن أصواتهن بالبكاء لاسيما صفية التي غدت تفهم ما يدور، أشاح وجهه سريعاً عنهن، حوّل طرفه للمرة الأخيرة إلى منزل زكية، رأى وجه مريمة المتصلب الفاتن على النافذة، لا يبدو عليها أي تأثر أو أسف، هل تظن أنه سيجبن ويتراجع مثل غيره من الخاطبين؟ شعر بالحنق والمكابرة، اقترب من الآنية بجرأة، وجلس القرفصاء، فتح الغطاء دون تردد، ودس يده فيها غير آبه بصراخ النساء، ثم سحبها بسرعة مكشرا بألم، شهر يده أمام الجميع، لاحت نقطتان صغيرتان صنعهما نابا الأفعى على ظاهر كفه، سرعان ما طفرت على الجلد قطرتان كبيرتان من الدم، رد طرفه إلى نافذة الطبقة الثانية حيث كانت مريمة تراقب المشهد عن كثب، رفع كفه ليريها البرهان، رأى قلقاً أو شيئاً ما مرتسماً على

وجهها الناصع، لكن هل يجدي الندم بعد هذه اللدغة المميتة! فكر بحزن، أحس بحنق عظيم يتملكه، لأن عليه أن ينتظر مصيره المحتوم، أحس بالسم ينتشر في دمائه بسرعة مخلفا ما يشبه الطعنات الحادة، شعر بحرارة عظيمة تكاد تذيبه من الداخل، شرع جسده يرتعش ويند عنه عرق غزير، حبذ أن يموت بعيداً عن مريمة وبناته والأهالي، فهرول مترنحاً مبتعداً وهو يصيح بألم:

ـ لا يتبعني أحد يا رجال، هذا آخر أمر أوجهه إليكم.

حرص الأهالي على تنفيذ رغبته الأخيرة، منعوا بناته وولده من اللحاق به، في مكان ما خارج القرية سقط على الأرض منهارا، رأى طيف كلبه إلى جانبه، أراد أن يعاتبه على مجيئه، لكنه غرق في غيبوبة عميقة. أخذ الكلب يلعق راحته بقوة مولداً حرارة شديدة بموضع اللدغة، كأنما كان يدرك أن السم يتجه نحو مركز الحرارة في الجسم الحي، باتجاه القلب مباشرة، لا يعلم أحد كم ظل الكلب يلعق الجرح، ولا كيف استطاع أن يولد الحرارة الكافية التي جعلت السم ينكفئ عن قلب صاحبه، أفاق الكبير سرحان بعد الفجر، كان الجو مازال رماديا، والهضاب حول القرية تبدو جاثمة بسكون، وجد كلبه إلى جانبه مستلقيا على غير عادته، هزه دون جدوى، أتاح له بصيص من الضوء أن يلاحظ لسانه المنتفخ الخارج من فكيه، سالت دموعه بتأثر وامتنان، صعب عليه أن يتركه هناك وحيدا، في النهاية أدرك أن عودة كلبه لم تعد ذات جدوى، فعاد وحيداً خائر الجسد إلى القرية.

كان الأهالي مجتمعين في منزل جهلان الخضري، يتجادلون حول ضرورة البحث عن الكبير الملدوغ ليعيدوا جثته إلى القرية قبل أن تلتهمها الحيوانات، البعض الآخر كانوا يرون أن الصباح خير موعد للبحث عنه لإعادته ودفنه بسرية تامة في المقبرة،

وينصحون بالتكتم حتى لا تفوح رائحة ما جرى إلى القرى المجاورة فيصبحون أضحوكة في قاع الحقل، وهناك من خافوا أن يطير الخبر إلى قضاء يريم، ومن ثم يتعرضون للمساءلة، ويتهمون بالمشاركة في قتله، جزء آخر تأهبوا للذهاب إلى المقبرة ليحفروا قبراً لائقاً بكبيرهم، وآخرون نصحوهم بالتريث حتى تتجلى الأمور، متعللين باحترام وصيته الأخيرة.. وهكذا قطعوا شطراً كبيراً من الليل، وهم يتجادلون دون أن يصلوا إلى رأي حاسم، خرجوا عند انبلاج الفجر من منزل جهلان الخضري عائدين إلى منازلهم بإحباط، مكثوا منتظرين ظهور ضوء الصباح، فجأة سمعوا صراخ فاطمة بنت روضة، فخرجوا مسرعين، وهم يظنون أنها صرخة الشؤم المحتومة، لكنهم رأوا كبير القرية هناك يتقيأ دماً وصديداً، فأغاثوه ببعض الوصفات الشعبية التي تفيد الملدوغ، لكنه كان قد نجا فعلا من الخطر، ومازال جسده يعاني من آثار السم، ظلوا إلى جواره يومين كاملين، يتحدثون بصوت عالٍ عن المعجزة التي حدثت، كانت أول كلمات نطق بها حين استطاع الكلام أن قال بخفوت:

ـ أعدوا أنفسكم يوم الخميس القادم لزواج جماعي مهيب لم تشهد له المنطقة مثيلاً.

في اليوم الثالث، اتجه الكبير ونخبة مختارة من الأهالي إلى منزل زكية لإقامة الخطوبة وكتابة العقد، أتى العيلوم حاييم متنمراً، مفصحا إن الزواج الذي يقوم على التحدي منهي عنه في التوراة، وهو لن يشرف على عقد يغضب الله، لما سمع الكبير سرحان ذلك ظنها حيلة من مريمة للتنصل عن الاتفاق المبرم بينهما، فأوشك أن يفقد عقله، ويتصرف بتهور، غير أن مريمة ظهرت تقود والدها المسن، الذي قال بصوت متحشرج متعب:

ـ لنكتب العقد يا عيلوم حاييم.

رد العيلوم حاييم بامتعاض:

ـ هذا العقد باطل يا شيخ رعدان، لن أشارك بمعصية الله في آخر عمري.

ـ وأنا أريد أن تقيم تشريع الله على ابنتي، اعقد عليها الآن في حضوري كما فعلت في غيابي.

أحس العيلوم حاييم بالحرج، وأجاب بتلعثم:

ـ لم أشأ أن أفعل، مع ذلك عقدت وفق شروطي.

ـ اعقد لها الآن، لا أحب أن يصفنا المسلمون بناقضي العهود.

تقدم العيلوم حاييم مرتبكاً، وأخرج أدوات الكتابة، رافعا عينيه ناحية السقف مناجيا ربه:

ـ غفرانك أيها الرب الرحيم، لم أشأ يوماً أن أعصيك، لكنني مكره.

سأل مريمة إن كانت تقبل الزواج بالكبير سرحان، فهزت رأسها بانكسار، قائلة: "قبلت"، ولم يسأل الطرف الآخر عن رأيه، أو يرفع عينيه إلى وجهه، بل كتب العقد بلا شروط، وهو يطلب الغفران من الله، وعلى ملامحه مسحة من الحزن والشعور بالذنب.

بعثت الدعوات إلى كافة القرى في قاع الحقل، وفاح خبر ما جرى إلى المناطق المجاورة، في صباح الخميس أتى نافخو المزامير والدراويش وقارعو الطبول من كل حدب وصوب، واحتشد الضيوف المدعوون كالنمل وهم يتحدثون عن المرأة التي اشترطت على خُطَّابها أن يحقنوا أجسادهم بسم أفعى الهضبة ليفوزوا بها، كما أتى ضيوف الغفلة متحمسين لرؤية العريس الناجي والعروس

التي يتوقعون أن تكون ذات جمال خارق حتى تستحق أن يضحي شخصٌ من أجلها بحياته، إضافة إلى أن هناك عرس جماعي سيقام، ووليمة كبيرة مفتوحة للجميع، إثر ذلك خرج إلى باحة القرية إحدى عشر عريساً متوجين بالرياحين والحبق والفل الأبيض، فحف بهم الأهالي، بدا واضحاً إن هذا العرس الجماعي هو الأكبر في قضاء يريم، ظهر الكبير سرحان مزيناً متوجاً وسط العرسان، فصافحه الضيوف وجعلوا يعانقونه، ويباركون له ويهنئونه على سلامته أيضاً، صار يضحك بانتشاء المنتصر، ويتحدث باقتضاب كما يليق بعريس أن يفعل، أتى ولده سعد، وانتصب أمامه، وهو يشعر بالنشوة لمظاهر الفرح والاحتفال في المكان، شعر والده بالحرج، فأجلسه بجانبه طالبا منه الهدوء، لم يمانع من بقائه قربه، ليوحي للناس أنه ينتمي إليه، ويكترث لأمره، أمسى يحبه ويفتقده فعلا، ويريده أن يعيش في منزله، بعيداً عن دروس معلمه الشيخ رعدان، وها هو بزواجه من مريمة يرجو أن يستعيده، لذا وضع كفه على رأسه، وراح يلعب بخصلات شعره الطويلة بحنان، لقدد بات في السادسة من عمره، لكنه يبدو من تصرفاته ووجهه النبيه الحاذق كأنه فتى يافع، استقر العرسان على مقاعدهم الخشبية المبطنة بفرو الماعز، وسرعان ما دقت الطبول وعلا ضجيجها بحيث لا يستطيع شخص أن يسمع حديث جاره، شرع الضيوف يرقصون مستمتعين، فجأة فزَّ الفتى الصغير مذعوراً، ونهض مبعداً كف والده عنه، ما لبث أن انبطح أمام المقاعد ملصقاً أذنه على التراب، كأنه يصيخ السمع لشيء ما يحدث في باطن الأرض، ثم قام صائحا كالمجنون مشيراً بسبابته إلى خارج القرية، كان كلامه يضيع وسط أصوات الطبول وضجيج المزامير، رغم ذلك لاحظ كثيرٌ من الضيوف المحيطين هذا السلوك الغريب، وتجلى على وجوههم التذمر، غمز والده

الرجال أن يبعدوه، فحملوه بصعوبة إلى منزل روضة، أحسوا أنهم يحملون صخرة كبيرة بين أيديهم، عادوا مسرعين لاهثين لا يحسون بسواعدهم لفرط الخدر والتعب الذي أصابهم، ما إن وصلوا الباحة حتى رأوا الولد هناك ممسكاً لحية والده سرحان وهو يصيح بثورة! كان هذا تصرفا مهيناً مخجلاً لكبير قرية وعريس، وأبٍ مهاب نجا من الموت، حاول الضيوف المندهشون والأهالي التدخل، معتبرين هذا التصرف سلوكاً خارجاً عن الأدب من فتى صغير مدلل، لكنهم لم يستطيعوا سحب الفتى عن والده الذي ما لبث أن أشار إلى قارعي الطبول ونافخي المزامير أن يتوقفوا، لما ساد الهدوء صاح على ولده سعد بنزق:

ـ ماذا دهاك يا ولد؟

ـ هناك جلبة كبيرة قادمة باتجاه القرية، أنا أسمعها بوضوح، ألا تسمعون ما أسمع؟

ـ لا نسمع شيئاً يا سعد، أرجوك يا بني، كُف عن إزعاج الضيوف، وسأفعل ما بوسعي لإيقاف هذه الجلبة.

صاح الفتى بحنق:

ـ لن تستطيع أن توقفها، إنها جلبة كبيرة، أشخاص كُثر قادمون تتقدمهم كائنات ضخمة، هيا بنا نخرج من القرية الآن.

ـ توقف أيها الرعديد، لا تزعج الرجال، وليكن ما يكن.

مع ذلك لم يشأ الكبير سرحان أن يتجاهل إنذار ولده سعد، لذا صاح على أقرب الأهالي أن يقترب منه، وهو سالم الموقر، سرعان ما دنا مذعنا، فهمس في أذنه قائلا:

ـ انذر الشيخ رعدان بما سمعت، دعه يرسم خطاً سحرياً على جميع مداخل القرية.

انطلق سالم بسرعة تتناسب مع لهجة كبير القرية التي تشي بخطر وشيك، فجأة قال سعد بتشاؤم وهو يهز رأسه بيأس:

ـ لا جدوى.

أشار والده إلى قارعي الطبول ونافخي المزامير قائلاً بجذل مصطنع:

ـ اقرعوا وانفخوا، لن يفسد فرحتنا أحد.

عاد ضجيج الطبول والمزامير، ونسي الجميع الأمر، وتنوعت الرقصات وتضاعفت دوائر الرقص هنا وهناك على طول الباحة وعرضها، كانت الوليمة دسمة فريدة، طباخوها استقدموا من قرى قاع الحقل، ذُبح لأجلها إحدى عشر كبشاً وثورين، تكفل الكبير سرحان بثلثي النفقات، صار الضيوف أثناء المقيل يتحدثون عن العرس، ويقولون إن زفاف الكبير سرحان أصبح مشبوهاً ومشوهاً في قضاء يريم، لأنه اقترن بامرأة يهودية، وهو أمر مشين لم يحدث من قبل، ولن يمر دون عواقب وخيمة، فالأوضاع لم تعد كما كانت في قضاء يريم، أضحى العامل يملك كتيبة عسكرية مزودة بعدد من الآلات الحربية، كما تغيرت أزياء الجنود وأسلحتهم وطرق تدريبهم، أمسوا أكثر عنفاً من ذي قبل، كذلك تحدثوا عن تقرير الجاويش عبدالله، إذ ادعى شخص في المجلس إنه قريب هذا الجاويش من جهة الأم، وأنه قرأ ما سُجل في التقرير من أمور بشعة، على سبيل المثال، جاء فيه إن أطفال قرية الرباط يطلقون على أنفسهم لقب "أمير" قبل الاسم، لاسيما سعد ابن

سرحان الطحان، وأن الأهالي هناك يمارسون السحر، ويرتكبون أبشع الجرائم. كانت في التقرير نقاطاً سوداء كبيرة مريبة فوق بعض الأسماء، لاسيما "الرباط"، "سعد"، "الشيخ رعدان"، "سرحان"، "الكبير مرشد"، وهؤلاء متهمون بأفعال تتراوح بين السحر والقتل وسرقة ألقاب الأمراء وإثارة المشاكل، كل ذلك ينذر بأشياء سيئة على ما يبدو، ليس هناك ما يوحي بأن تلك النقاط سقطت بمحض المصادفة، لأنها تكررت في أكثر من موضع على الأسماء عينها، لعل الجميع يعرفون إن الأمير الناصر يكره السحر والسحرة أكثر من أي شيء آخر في الوجود، وينادي بإعلاء كلمة الله في الأرض، لا يدري أحد كيف تكون عواقب هذا التقرير إن وصل إلى يده.

ضاق صدر الكبير سرحان الذي حبذ أن يسمع في يوم عرسه حديثاً آخر حول أي شيء في الوجود غير تقرير الجاويش عبدالله وأخبار الأمير الناصر وجيوشه الرهيبة، لهذا السبب استدعى مدبر عرسه جهلان الخضري، وطلب منه أن يوقف الضيوف عن الكلام، أو يطردهم، مفصحا بغضب إنهم دائماً يتفوهون بالأمور السيئة بعد أن يبلعوا طعام الوليمة، ومن ثم يتدخلون في ما لا يعنيهم، في حين ينبغي أن يشعروا بالامتنان. وقع جهلان في الورطة نفسها التي وقع فيها سرحان يوم عرس الكبير مرشد، لاحظ أن العروس هي مريمة، كان ذلك الزفاف تعيسا للغاية، ولا يجب أن يتكرر، متشائماً محتاراً لا يدري كيف يتصرف في مثل هذا الظرف الحرج، لم يجد وسيلة سوى الكذب كأن عقول القرويين صبت في قالب واحد، أو يتعلمون تزييف الكلام من بعضهم البعض، فكر مُدبر العُرس جهلان الخضري بذلك، وتقدم إلى وسط المجلس وصاح قائلاً:

ـ هيه، يا جماعة، انتبهوا إلى ما سأقوله، هناك قرية في تهامة هجمت على أهاليها الجرذان وأكلت أطفالهم الرضع، ونخلت أساس بيوتهم، ثم حاصرتهم وأخذتهم أسرى إلى جحورها القذرة، أولئك المساكين كانوا مثلنا يقيمون عرساً جماعياً ويرقصون، كانت أصوات الطبول تقرع عالياً، لذا لم يسمعوا أصوات التحذير الصادرة من القرى المجاورة، لقد كانوا غافلين تماماً عن أي خطر، ولم ينج منهم سوى بضعة دراويش كانوا خارج القرية بحيث سمعوا نداء التحذير.

صعق الرجال بما سمعوا، ومضوا يتحدثون عن هذه الأمور الغريبة التي جرت في تهامة، ظلوا بين الشك واليقين يتجادلون حول صحة هذه الرواية، وتوقع البعض أن فئران تلك المناطق لا ريب بحجم الماعز، وأن لها قرون رمادية، وأنياب كالمسامير تقضم بواسطتها كل شيء صلب في طريقها بما في ذلك الصخور، وأنها من سلالة الفأر اللعين الذي تسبب في دمار سد مأرب القديم.

راق الحديث العريس الكبير سرحان حتى أنه ضحك، وتعجب من مخيلة مدبر عرسه، وسذاجة الضيوف الذين صاروا يتحدثون بحماس عن الأمر كما لو كان حقيقياً. ولم يتوقفوا حتى أتت لحظة الزفاف عند الغروب، زفت العرائس إلى العرسان في وقت واحد، جرت تقاليد الزفاف دون مشاكل بما في ذلك طقوس المسح، لأن الأهالي استفادوا من أخطائهم الماضية، وجلبوا ماسحين من القرى المجاورة، كما جاء العيلوم حاييم ومسح على مريمة، ثم داست على دماء الكبش، وحملها الكبير سرحان بين ذراعيه القويين إلى حجرته المزينة في علية داره، كان غالبية الأهالي يحيطون بموكب زفاف كبيرهم، ويولونه القدر المستحق من الاهتمام، لكنهم بدوا مثارين ومغمومين بفعل أخبار وردتهم عن آليات مريبة وأغراب

قادمين رآهم الرعاة بمشارف القرية، كان الوقت غير مناسب لإبلاغ كبيرهم وتكدير صفوه بما يجري، بدا عليهم التردد، ولعله لاحظ امتقاع وجوههم ولم يفهم شيئاً، أو لا يريد أن يفهم، لأنه يستقبل عروسه التي انتظرها وقاسى كثيرا من أجلها، لكنه اكتفى بالقول مازحاً ومحذراً في آن قبل أن يوصد غرفته:

ـ لا أحد يزعجني حتى لو أتت جرذان تهامة وأكلت الأطفال وحطمت المنازل في القرية.

إثر ذلك، خفتت جميع الأصوات، وتفرق الضيوف وكذلك الأهالي الذين انتهت مهمتهم للتو، وتحتم عليهم أن يتيحوا للعرسان وقتاً مريحاً بحيث لا يزعجهم أحد، هذا جزء من تقاليدهم أيضا، مهما حدث في القرية لا يجب الاقتراب من حجراتهم الموصدة، أو تكديرهم بالأنباء السيئة، كان بعض الأهالي الذين يملكون قطعاناً مازالوا يرددون ما سمعوه من أبنائهم الرعاة وبناتهم الراعيات، إنه حقا أمر فظيع ينذر بالخطر، لكن جهلان الخضري أنبأهم إنه لا يملك الجرأة على إيقاف موكب العروس وإنذار الكبير بما يجري، ولا أحد بيده أن يفعل ذلك لمجرد أنباء قد تكون غير صحيحة..

أثناء الرقص وضجيج أصوات الطبول والمزامير كان الرعاة قد سمعوا شخصاً يصيح من الهضبة:

"يا أهالي قرية الرباط، سلموا أنفسكم لجنود مولانا المبجل الأمير الناصر حفظه الله، إنهم قادمون إليكم، مهلتكم حتى منتصف الليل"..

لم يصدق الرعاة النداء، كان ذلك النداء غريباً، لأن القرية تنعم بالسرور والأفراح، ناهيك أنهم لم يروا جنودا قادمين أو غرباء، لذا ظنوها مزحة ابتكرها أحد الرعاة الأوغاد من أهالي القرى

المجاورة، لكنهم عندما كانوا عائدون بمواشيهم آخر النهار، قبيل الغروب، رأوا طلائع الجنود تظهر وتتوافد بكثافة خلف الهضبة الكبيرة، ثم سمعوا النداء الثاني بوضوح:

"يا أهالي قرية الرباط، سلموا أنفسكم وسلموا السحرة، أنتم محاصرون من جميع الجهات، مدافع مولانا المبجل الأمير الناصر حفظه الله مصوبة على منازلكم، وقد أعذر من أنذر"..

كان هذا النداء الأخير مؤكدا لا لبس فيه، ساعتها كان العرسان يستقبلون عرائسهم، وأصوات الدفوف والزغاريد تصم الآذان، أسرع الرعاة - ومنهم فاطمة بنت روضة - وأفشوا الخبر في أرجاء القرية، وطار النبأ من شخص إلى آخر حتى علم الجميع باستثناء العرسان والعرائس، رغم ذلك أسرعوا في استكمال مراسيم الزفاف، ثم اجتمعوا في منزل جهلان الخضري مدبر عرس كبير القرية، ماذا يفعلون؟ انتشر هذا السؤال الوحيد بينهم، اختلفوا في الآراء كالعادة، هل ينتهكون حرمة تلك الليلة الخالدة للعرسان ويقرعون أبواب حجراتهم لينذروهم بالنداءين اللذين سمعهما الرعاة؟ هل يزعجون كبير القرية سرحان في ليلته الأولى، وقد سمعوه يحذرهم بعدم إزعاجه مهما حصل؟ ظلوا محتارين للغاية ومشوشين، البعض منهم لم يؤمنوا بأقوال الرعاة، لذا قرروا أن ينتظروا النداء الأخير، فصعدوا إلى سطوح منازلهم، وظلت عيونهم مصوبة ناحية الهضبة، وآذانهم ترهف السمع وتتحرك ـ لفرط قلقهم ـ كأجنحة العصافير الصغيرة المبتدئة في الطيران..

25

على خلاف ما توقع استطاع أن يدخل إلى جسد عروسه بيسر، كانت خاضعة مستسلمة بعد أن عجزت عن قتله، ظن أنه سيخوض معها صراعاً مريراً، وأنها لن تمكنه من جسدها المثقل بكراهية الرجال، لكنها أحبطت، وفي الإحباط خير في بعض الأوقات، لذا تركته يعبث بجسدها كما يحلو له، كانت تبدو كأنها فقدت نزوتها الجسدية، لكنه رجل خبير بمعاشرة النساء، ما لبث أن جعلها تطلق أول آهة استمتاع لم تطلقها منذ زمن غير معروف، ولم يتوقف عنها، وفي جزء من الليل أضحت تطلق صراخاً كصراخ المعذبين، لكنها لم تكن كذلك، كانت صرخاتها تنبعث عن لذة عظيمة تهزها من رأسها حتى قدميها، في تلك اللحظات انطلق النداء الثالث والأخير.

"يا أهالي الرباط، سلموا أنفسكم، واخرجوا من قريتكم، هذه فرصتكم الأخيرة، مدافع مولانا الأمير الناصر حفظه الله تشحن الآن وتتأهب لتسوّي قريتكم الملعونة بالأرض، وقد أعذر من أنذر".

لم يسمع سرحان النداء الأخير رغم وضوحه في هدوء الليل، ظل غارقاً منهمكاً يدك جسد عروسه دكّاً، كان صياح عروسه وانهماكهما اللذيذ هما السببان اللذان حالا دون سماعهما النداء، لكن العِرسان الآخرين سمعوا النداء لأنهم لم يكونوا مثله منهمكين مع أراملهم، شرع الأهالي يخرجون من منازلهم، مروا من الباحة قريباً من منزل الكبير سرحان، وهناك رفعوا مشاعلهم وأصواتهم

عمداً لكي يبرئون ذمتهم، مكثوا قليلاً مترددين عسى أن يصدر من حجرته أي صوت أو حركة غير صراخ اللذة الذي كان طاغياً مسموعاً، كان الوقت يقترب من منتصف الليل، أحسوا أنهم قد فعلوا ما بوسعهم، وساروا مبتعدين، لكن غنية امرأة عتيق الأهبل، أحست أن نكران العشرة والليالي الهانئة ليس من شيم أبناء الناس الطيبين، فهرولت إلى تحت داره، وقذفت حصاة إلى النافذة وهي تصرخ بغضب:

ـ اخرج يا كبير سرحان، لن ينفعك طيز اليهودية، أعرفك جيداً في مثل هذه الأوقات تتحول إلى حيوان لا يشبع.

ثم تتحرك بحنق، وزوجها يجري معها تحقيقاً، ويقول لها بغيرة واضحة:

ـ كيف تعرفين أن الكبير سرحان حيوانٌ لا يشبع؟

صرخت في وجهه أن يصمت كما هو حاله دائماً، لأن أي امرأة في القرية تعرف ذلك، والرجال الذين يشبعون من نساءهم هم الآن يغادرون القرية حاملين مشاعلهم، هذا واضح جداً.

ثم التفتت إلى منزل الكبير سرحان، ولم تر أي استجابة للحصاة التي قذفتها، فهرولت مرة أخرى غاضبة وسط صراخ زوجها الغيور، عادت إلى أسفل المنزل وتناولت حجراً كبيرا بحجم حبة طماطم، وهوت بها على النافذة بقوة، ثم سارت للتو إلى زوجها الغاضب وهي تلتفت إلى النافذة بجزع، سرعان ما فُتحت النافذة وظهر سرحان عارياً، رأى المشاعل على مشارف القرية تومض عاكسة ضياءً يملأ ذلك الأفق، فأغلق النافذة بعجل، وخرج وعروسه وبناته والتقوا بالشيخ رعدان وولده سعد، وهما يحملان مخاليهم، ما إن تجاوزوا آخر منزل في القرية حتى دوت تفجيرات

رهيبة، رأوا حمماً حمراء غريبة تسقط من رأس الهضبة على المنازل، وأخرى تأتى من خلفها، بحيث شب حريق هائل في القرية، على ضوئه رأى الكبير سرحان منزله الجديد يدمر وألسنة النار تتصاعد منه نحو السماء، صاح الشيخ رعدان بصوت مضطرب:

ـ أسمع بضعة أصوات تتردد، ماذا يحدث؟

رد الكبير سرحان بصوت رافع:

ـ يضربون القرية بكرات نارية سحرية، هلا تفعل شيئاً لإيقافها؟

انبرى الشيخ رعدان يقرأ إحدى التعاويذ، ثم هز رأسه قائلاً بيأس:

ـ لا شك أنهم يستخدمون الحديد بإفراط، التعاويذ لا تعمل في هذا المعدن إلا بشكل محدود.

صاحت مريمة كطفلة مدللة خائفة:

ـ لقد تعهدت ألا استخدم السحر إلا عند الضرورة حتى لا أخالف الوصايا وأعاقب، افعل شيئاً يا أبي، قدّم ذلك لي ذلك كهدية في ليلة عرسي، لا أريد أن أموت أو يزج بي في السجن.

صمت الشيخ رعدان مصغياً، ثم قال بتأثر:

ـ لن يحدث ذلك يا بنيتي، تبدين الآن سعيدة، تخافين من العقاب، لم تعودي تكرهين الرجال، أنتِ الآن امرأة متزوجة، ما أفرحني!

اقتربت منه فتحسس وجهها واحتواها بذراعيه، فقالت بصوت عالٍ:

ـ دعنا نخرج معاً بسلام.

ـ ستخرجون بسلام، ضعوا في راحتي حفنة من التراب، حين أرميها امضوا في طريقكم دون أن تلتفتوا إلى الوراء.

ـ وأنت يا أبي؟

ضحك الشيخ رعدان وأجاب بعجب:

ـ أنا! أنا لم أعد مؤهلاً للفرار في الظلام، ثم إنني رجل مخالف ينتظر العقاب، لذا سأواجه قدري..

ظلوا صامتين يمشون بحزن ورهبة نحو أضواء المشاعل، كان كلامه منطقياً، لم يعد قادراً على الهروب بجسده الواهن وبصره الضعيف، ها هو يمشي إلى جانبهم ببطءٍ بمساعدة سعد، ما لبث أن خاطب الفتى، وناوله مخلاته التي تحوي كتبه الخطيرة، وأوصاه ألا يخالف وصايا الأسلاف، فأخضل جسد الفتى الصغير، وهز رأسه بإذعان، ولم يحر جواباً، كانوا قد اقتربوا من المشاعل وتوقفوا خلف الزحام، ظهرت صورهم بشكل واضح يعكسها ضوء مُبهر، التفت الأهالي إلى الكبير سرحان، ونكسوا رؤوسهم، ولم يتفوهوا بكلمة واحدة، كانوا واقفين يسلمون أنفسهم على التوالي إلى الجنود المدججين بالأسلحة الغريبة، كل شخص مشغول بنفسه وعائلته، شعر أن الأهالي لم يعودوا يلتفتون إليه، أو يثقون به، كأنهم يعلنون أن منصبه انتهى حين دمرت القرية. كان ذلك أشبه باليوم الآخر الذي كان يتحدث عنه الإمام عثمان في مواعظه، مع فارق بسيط وهو أن هناك بعض الأواصر لم تنقطع تماماً، اقترب الكبير سرحان من فاطمة بنت روضة، وطلب منها أن تنضم إلى عائلته لينقذها إن كان بوسع الساحر المُسن أن يفعل شيئاً، لكنها أعرضت وسارت بعيداً، ما جعله يعود مكتئباً إلى عائلته.

حين وصل الشيخ رعدان إلى أمام الجنود قذف التراب في وجوههم، وقرأ آخر تعويذة من تعاويذه، وأشار إلى الطريق التي ينبغي أن يسلكوها، فتحرك سرحان وعائلته وسط الجنود العُمْي المحبطين، وغاصوا وسط الظلام بضوء طفيف لفانوس عتيق.